جوليانو دا إمبولي

رواية

ساحر الكرملين

المركز الثقافي العربي

إلى ألما

«الحياة مسرحية كوميدية، لكن على المرء أن يؤديها بجدية».

– ألكسندر كوجيف

(1)

لفترة طويلة، تضاربت الأنباء حوله وتناثرت كشظايا لا رابط بينها. قال البعض إنه اعتزل العالم في دير ناءٍ على جبل آثوس، متفرغًا للصلاة بين الصخور والسحالي، بينما أقسم آخرون أنهم رأوه يلهو في فيلا بمنتجع سوتوغراندي محاطًا بجيش من عارضات الأزياء الغارقات في الكوكايين. وهناك من زعم رؤيته على مدرج مطار الشارقة، أو في مقر الميليشيات بمنطقة دونباس، بل وحتى هائمًا بين أطلال مقديشو.

منذ أن غادر فاديم بارانوف منصبه كمستشار للقيصر، تكاثرت الحكايات حوله بدلًا من أن تتلاشى؛ وتلك مفارقة تحدث أحيانًا. ففي الغالب، يستمد رجال السلطة هالتهم من الكراسي التي يجلسون عليها، فإذا فقدوها، انطفأوا فجأة وكأن تيارًا كهربائيًا قُطع عنهم؛ ينكمشون كتلك الدمى الهوائية العملاقة عند مداخل مدن الملاهي، حتى إنك لو رأيت أحدهم في الشارع لتساءلت في حيرة: كيف تمكن هؤلاء من إثارة كل تلك المشاعر والضجيج يومًا ما؟

لكن بارانوف كان من طراز آخر. وإن كنت سأجد مشقة في تحديد ماهية هذا الطراز بالضبط. في الصور الفوتوغرافية، كان يبدو قوي البنية وإن لم يكن رياضيًا، يرتدي دائمًا بدلات داكنة فضفاضة قليلًا. وجهه عادي، طفولي بعض الشيء، ببشرة شاحبة، وشعر أسود ناعم مقصوص بعناية تلميذ مدرسي.

أظهر مقطع فيديو التُقط له على هامش اجتماع رسمي مشهدًا نادرًا له وهو يضحك، وهو أمر غير مألوف في روسيا حيث تُعد الابتسامة أحيانًا علامة على البلاهة. في الواقع، بدا وكأنه لا يولي مظهره أدنى اهتمام، وهو أمر مثير للدهشة، بالنظر إلى أن رأس ماله الحقيقي كان يعتمد كليًا على المظاهر؛ أي ترتيب المرايا في حلقة مفرغة بحيث تتحول الشرارة الصغيرة إلى حريق هائل.

عاش بارانوف حياته محاطًا بالألغاز. الشيء الوحيد المؤكد تقريبًا هو نفوذه الطاغي على القيصر. فخلال خمسة عشر عامًا من الخدمة، ساهم بشكل حاسم في تشييد صرح سلطة الرجل وتعظيم قوته.

أُطلق عليه لقب «ساحر الكرملين»، و«راسبوتين الجديد». في ذلك الوقت، لم يكن دوره محددًا بوضوح. كان يظهر في مكتب الرئيس بعد انتهاء أعمال اليوم الرسمية. لم يكن السكرتراء هم من يستدعونه؛ ربما كان القيصر يطلبه عبر خطه المباشر، أو ربما كان بحدسه العجيب يدرك التوقيت المناسب للحضور، بفضل تلك المواهب الاستثنائية التي أقر بها الجميع دون أن يتمكنوا من وصف كنهها بدقة. أحيانًا، كان ينضم إليهم شخص ثالث؛ وزير يحظى بلحظة رضا، أو رئيس شركة حكومية. ولكن، وبما أن الصمت مبدأ متجذر في موسكو منذ قرون، فإن وجود هؤلاء الشهود العابرين لم يُسلط أي ضوء على ما يدور في تلك الأنشطة الليلية بين القيصر ومستشاره.

ومع ذلك، كانت العواقب تبرز بوضوح أحيانًا.

في صباح ما، استيقظت روسيا كلها على خبر اعتقال رجل الأعمال الأشهر والأكثر ثراءً في البلاد، رمز الرأسمالية الجديدة. وفي مرة أخرى، أُقيل جميع رؤساء الجمهوريات الفيدرالية المنتخبين من الشعب، وأعلنت نشرات الأخبار الصباحية للمشاهدين الذين لم يفيقوا بعد من نعاسهم أن القيصر، من الآن فصاعدًا، هو من سيعين الرؤساء بنفسه. لكن في معظم الحالات، لم تكن تلك الجلسات الليلية تتمخض عن أثر فوري مرئي. كانت التغييرات تحدث بعد

سنوات، لتبدو وكأنها تطور طبيعي، بينما هي في الحقيقة نتاج تخطيط دقيق ومحكم.

في تلك الفترة، عاش بارانوف في عزلة تامة. لم يكن يُرى في أي مكان، وكان إجراء مقابلة معه ضربًا من المستحيل. لكنه امتلك عادة غريبة؛ فبين الفينة والأخرى، كان ينشر نصًا ما: مقالًا موجزًا في مجلة مستقلة مغمورة، أو ورقة بحثية حول الاستراتيجية العسكرية موجهة لكبار قادة الجيش، أو حتى قصة خيالية يستعرض فيها موهبته في التلاعب بالمفارقات، على غرار التقاليد الأدبية الروسية العريقة. لم يكتب أبدًا باسمه الصريح، لكنه كان يدس في نصوصه إشارات وتلميحات حول العالم الجديد الذي يتشكل في كواليس الكرملين الليلية. أو هكذا اعتقد حاشية البلاط في موسكو والمحللون في وزارات الخارجية حول العالم، الذين كانوا يتسابقون لفك شفرات بارانوف الخفية.

الاسم المستعار الذي استخدمه لهذه التصريحات، نيكولاي براندیس، أضاف طبقة أخرى من الغموض. سرعان ما أدرك المتابعون أنه اسم شخصية ثانوية في رواية نادرة القراءة للكاتب جوزيف روث. براندیس، وهو تتاري، يلعب دور المنقذ الذي يظهر فجأة في اللحظات الحاسمة من القصة ليختفي بعدها مباشرة. يقول في الرواية:

- "لا يتطلب الأمر قوة لغزو شيء ما. كل شيء يذعن لك، كل شيء متعفن ويستسلم. معرفة كيف تتخلى عن الأشياء، هذا هو المهم."

ومثلما تتبعت شخصيات رواية روث تحركات نيكولاي براندیس بهوس، باعتبار أن لامبالاته الخارقة هي الضامن الوحيد للنجاح، كذلك كان كبار المسؤولين في الكرملين وأتباعهم ينقضون على أدنى إشارة تصدر عن فكر بارانوف، آملين في استشفاف نوايا القيصر. ما جعل الأمر برمته محفوفًا بالمخاطر هو إيمان «ساحر الكرملين» بأن الانتحال هو أساس كل تقدم؛ لذا لم

يكن بوسعك أبدًا أن تجزم ما إذا كان يعبر عن أفكاره الخاصة أم يتلاعب بأفكار غيره.

بلغت لعبة القط والفأر هذه ذروتها في ليلة شتوية، حين تكدست سيارات فارهة، تحيط بها مواكب الحراسة وتدوي حولها صفارات الإنذار، أمام مسرح طليعي صغير في موسكو، حيث كانت تُعرض مسرحية من فصل واحد كتبها المدعو نيكولاي برانديس. اصطف عند الباب مصرفيون، وأباطرة نفط، ووزراء، وجنرالات من جهاز الأمن الفيدرالي. تقول الشخصية الرئيسية في المسرحية:

- *"في بلد متحضر، لكانت الحرب الأهلية قد اندلعت، لكن بما أنه لا يوجد لدينا مواطنون هنا، فستكون حربًا بين الخدم. إنها ليست أسوأ من الحرب الأهلية، فقط أكثر إثارة للاشمئزاز، وأكثر قذارة."*

على ما يبدو، لم يكن بارانوف بين الحضور تلك الليلة، لكن المصرفيين والوزراء صفقوا بحرارة ليكونوا في الجانب الآمن. وزعم البعض أن بارانوف كان يراقب الجمهور من خلال ثقب صغير يمين الشرفة.

ورغم ذلك، لم تفلح هذه الألاعيب الصبيانية في علاج بارانوف من سأمه. في مرحلة ما، بدأ القلة الذين التقوا به يلاحظون أن مزاجه يزداد قتامة. قيل إنه قلق، متعب، وعقله مشغول بأمور أخرى. لقد صعد المراتب بسرعة هائلة، وهو الآن يشعر بالملل، من نفسه قبل كل شيء. ومن القيصر أيضًا، الذي لم يكن يعرف الملل أبدًا، والذي بدأ يكره بارانوف.

ماذا؟ رفعتك إلى كل هذا العلو ولديك الجرأة لتشعر بالملل؟

لا ينبغي أبدًا الاستهانة بالجانب العاطفي في العلاقات السياسية.

إلى أن جاء يوم اختفى فيه بارانوف. أعلن بيان مقتضب من الكرملين استقالة المستشار السياسي لرئيس الاتحاد الروسي. وبعدها، اندثر كل أثر له،

عدا بعض المشاهدات العابرة له في أنحاء متفرقة من العالم، والتي لم يتم تأكيد أي منها قط.

***

عندما وصلتُ إلى موسكو بعد بضع سنوات، كانت ذكرى بارانوف تحوم في الأجواء كطيف هلامي. وبتحرره من جسده المادي الثقيل، صار حرًا في الظهور هنا وهناك، كلما دعت الحاجة لتفسير تصرف غامض من الكرملين. وبما أن موسكو - تلك العاصمة المستعصية لعصر جديد لا يملك أحد تحديد ملامحه - قد قفزت فجأة إلى الواجهة مرة أخرى، فقد نبت المفسرون المهووسون بساحر الكرملين السابق حتى بيننا نحن أبناء الجالية الأجنبية. أنتج صحفي من "بي بي سي" وثائقيًا يجادل بأن بارانوف هو المسؤول عن إقحام تقنيات المسرح الطليعي في السياسة. ووصفه صحفي آخر في كتاب بأنه نوع من السحرة يجعل الناس والأحزاب السياسية يظهرون ويختفون بفرقعة من أصابعه. وكرس أستاذ جامعي دراسة أكاديمية عنه بعنوان: «فاديم بارانوف واختراع الديمقراطية المزيفة».

أراد الجميع معرفة ما كان يفعله مؤخرًا. هل لا يزال يتمتع بنفوذ لدى القيصر؟ ما الدور الذي لعبه في الحرب في أوكرانيا؟ وما مساهمته في استراتيجية الدعاية التي أحدثت تغييرات عميقة في التوازن الجيوسياسي للكوكب؟

أنا شخصيًا تابعت خيوط البحث هذه بنوع من الانفصال. لم يثر الأحياء اهتمامي بقدر الأموات. لطالما شعرت بالغربة في هذا العالم حتى أدركت أن بإمكاني قضاء الجزء الأكبر من وقتي بصحبة الموتى. ولهذا السبب، انقضى معظم وقت إقامتي في موسكو في زيارة المكتبات والأرشيفات، وبعض المطاعم، ومقهى اعتاد نادله تدريجيًا على وجودي المنفرد. انكببت على الكتب القديمة،

وتجولت في ضوء الشتاء الشاحب، وفي أواخر الظهيرة كنت أذهب إلى حمامات البخار في شارع سيليزنيفسكايا لاستعادة نشاطي. وفي الليل، كان بار صغير في حي "كيتاي-غورود" يحتويني بدفء خلف أبوابه المشرعة للراحة والنسيان. وفي كل لحظة تقريبًا، كان يسير بجانبي شبح رائع، وحليف محتمل.

من الناحية العملية، يبدو يفغيني زامياتين ككاتب من أوائل القرن العشرين، وُلد في قرية تعج بالغجر ولصوص الخيول، واعتقلته السلطات القيصرية ونفته لمشاركته في ثورة 1905. حظي بالإعجاب مبكرًا بفضل قصصه، وعمل مهندسًا بحريًا في إنجلترا حيث أشرف على تصنيع كاسحات الجليد. ثم عاد إلى روسيا عام 1917 لينضم إلى الثورة البلشفية، لكنه سرعان ما أدرك أن بناء جنة للطبقة العاملة لم يكن مدرجًا على جدول الأعمال. وهكذا بدأ زامياتين في كتابة رواية «نحن». وفي تلك اللحظة، حدث شيء يساعدنا على فهم ما يعنيه الفيزيائيون عندما يتحدثون عن الأكوان الموازية.

في عام 1922، توقف زامياتين عن كونه مجرد كاتب وتحول إلى آلة زمن. كان يظن أنه يكتب نقدًا لاذعًا للنظام السوفيتي كما كان يُبنى آنذاك. وهكذا قرأ الرقيب رواية «نحن»، وعلى هذا الأساس منعوا نشرها. لكن الحقيقة هي أن زامياتين لم يكن يخاطبهم. لقد عبر، دون أن يدري، إلى القرن التالي وكان يتحدث مباشرة إلى عصرنا. تصور رواية «نحن» مجتمعًا يحكمه المنطق، حيث كل شيء يحمل رقمًا، وحيث حياة كل فرد منظمة حتى أدق التفاصيل لتحقيق أقصى قدر من الكفاءة. والنتيجة هي دكتاتورية صارمة لكنها مريحة، يستطيع فيها أي شخص تأليف ثلاث سوناتات موسيقية في ساعة واحدة بضغطة زر، وحيث العلاقات بين الجنسين منظمة آليًا عبر آلية تختار الشركاء الأكثر توافقًا وتسمح بالتزاوج مع كل منهم. كل شيء شفاف في عالم زامياتين، حتى الغشاء الموجود في الشارع، المزخرف كعمل فني، والذي يسجل أحاديث المارة.

من الواضح أن هذا مكان يجب أن يكون التصويت فيه علنيًا أيضًا. تقول الشخصية الرئيسية، المدعو "د-503":

- "يقال إن القدماء كانوا يصوتون سرًا، خلسة مثل اللصوص. ما الغاية من كل هذا الغموض؟ لم يتم تحديد ذلك تمامًا... نحن لا نخفي شيئًا، ولا نخجل من شيء. نحتفل بانتخاباتنا علنًا، وبإخلاص، وفي وضح النهار. أراقب الجميع وهم يصوتون للمُنعم، ويراقبني الجميع وأنا أصوت للمُنعم."

لقد تملكني هوس بزامياتين منذ اكتشفته. بدا أن أعماله تكثف كل أسئلة عصرنا. لم تكن «نحن» تصف الاتحاد السوفيتي، بل كانت تدور حول عالمنا السلس المدفوع بالخوارزميات، والمصفوفة العالمية التي يجري بناؤها حاليًا، وعجز أدمغتنا البدائية التام عن التعامل معها. كان زامياتين عرافًا. لم يكن يتحدث إلى ستالين فحسب، بل كان يستهدف كل الدكتاتوريين المنتظرين في الكواليس، وأباطرة "وادي السيليكون"، وكذلك قادة الحزب الواحد في الصين. كان كتابه السلاح الأخير ضد الخلية الرقمية التي بدأت تطوق الكوكب.

كانت مهمتي هي نبش هذا العمل من جديد وتوجيهه في الاتجاه الصحيح. المشكلة أنني لم أمتلك الأدوات اللازمة لأجعل مارك زوكربيرغ أو شي جين بينغ يرتعدون خوفًا، لكنني نجحت في إقناع جامعتي بتمويل بحثي عن حياة زامياتين، مشيرًا إلى حقيقة قضائه سنواته الأخيرة في باريس بعد هروبه من ستالين. أبدى ناشر فرنسي اهتمامًا غامضًا بإعادة إصدار «نحن»، وكان صديق لي يعمل منتجًا للأفلام الوثائقية مستعدًا للنظر في إمكانية مشروع يتعلق بزامياتين. قال لي وهو يرتشف مشروب "نيغروني" في حانة بالدائرة التاسعة:

- "حاول العثور على بعض المواد أثناء وجودك في موسكو."

لكن ما إن وصلت إلى موسكو حتى شُغلت عن مهمتي، مكتشفًا أن هذه المدينة القاسية تخفي نصيبها من السحر، مما أغراني بالخروج يوميًا إلى الشوارع الضيقة والمتجمدة في "بيتروفا" و"أربات". كانت كآبة الواجهات الستالينية الصماء تتلطف بالانعكاسات الشاحبة لمساكن النبلاء القديمة، وحتى الثلج، الذي تحول إلى وحل بفعل المرور المستمر للسيارات السوداء الفارهة، كان يستعيد نقاءه في الأفنية والحدائق الصغيرة المخفية، التي كانت تهمس بحكايات الأزمنة الغابرة.

تلك الأزمنة المختلفة - عشرينيات زامياتين والمستقبل الديستوبي في رواية «نحن»، الندوب التي تركها ستالين على المدينة والآثار الأكثر لطفًا لموسكو ما قبل الثورة - تلاقت كلها في داخلي، مُحدثةً انزياحًا زمنيًا أصبح حالتي الطبيعية في الوجود. ومع ذلك، لم أكن منفصلًا تمامًا عما يدور حولي. كنت قد توقفت عن قراءة الصحف حينها، لكن حاجتي المحدودة للمعلومات كانت تُلبى بسخاء عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

من بين الحسابات الروسية التي تابعتها، كان هناك حساب يحمل اسم "نيكولاي برانديس". كان على الأرجح طالبًا في شقة استوديو بمدينة قازان، وليس ساحر الكرملين الحقيقي، لكنني قرأت منشوراته دون أن أعرف على وجه اليقين. لا أحد يعرف شيئًا في روسيا، فإما أن تتأقلم أو ترحل. لم يكن الأمر يتطلب التزامًا كبيرًا، لأن برانديس لم يكن ينشر سوى جملة واحدة كل أسبوع أو أسبوعين. لم يعلق أبدًا على الأخبار، بل كان يميل لإخفاء إشارة أدبية، أو اقتباس كلمات أغنية، أو التلميح لمقال في "باريس ريفيو"، وكل ذلك كان يعزز فرضية الطالب في قازان.

- *"كل شيء مباح في الفردوس، إلا الفضول."*
- *"إذا مات صديقك، لا تدفنه. قف وانتظر. ستتجمع النسور قريبًا، وسيصبح لديك العديد من الأصدقاء الجدد."*

- *"لا يوجد في هذا العالم ما هو أكثر حزنًا من مشاهدة عائلة قوية وصحية تتحول إلى أشلاء بسبب تفاهة غبية. قطيع من الذئاب، على سبيل المثال."*

كان لدى الشاب نزعة سوداوية واضحة، لكنها كانت تتناسب تمامًا مع الطابع المحلي.

في إحدى الليالي، وبدلًا من الذهاب إلى البار المعتاد، قررت البقاء في المنزل والقراءة. كنت أستأجر غرفتين في الطابق العلوي من مبنى أنيق يعود لخمسينيات القرن الماضي، بناه أسرى الحرب الألمان - وهي علامة مكانة في موسكو، حيث تستند السلطة والرفاهية البرجوازية دائمًا إلى أساس متين من القهر. كانت عواصف الثلج تضرب النافذة، مخففة من توهج المدينة البرتقالي في الخارج. أما في الداخل، فكانت الشقة تحمل طابع الارتجال الذي يبدو أنه يلاحقني أينما حللت: أكوام من الكتب، وعلب الوجبات السريعة المتناثرة، وزجاجات نبيذ نصف فارغة. أضفى صوت مارلين ديتريش لمسة من الانحلال على المشهد، معززًا شعور الغرابة الذي كان يمنحني متعة كبيرة في ذلك الوقت.

كنت قد نحيت زامياتين جانبًا لأقرأ قصة قصيرة لنابوكوف، لكن أسلوبه كان يدفعني للنوم بهدوء، كما يفعل غالبًا. فالكاتب المقيم في "قصر مونترو" كان دائمًا أرفع من ذائقتي قليلًا. كانت عيناي تشردان عن الصفحة كل بضع دقائق، تبحثان لا شعوريًا عن تسلية، وتنجذبان حتمًا إلى جهازي اللوحي. هناك، وبين صيحات الغضب المتداولة وصور دببة الكوالا، قفزت هذه الجملة فجأة: *"نحن نعيش محاطين بجدران شفافة تبدو منسوجة من هواء متلألئ؛ نعيش تحت أنظار الجميع، مغمورين بالنور دائمًا."*

زامياتين. كان وقع رؤية هذه الكلمات تتجسد في شريط الأخبار كضربة مطرقة. وبشكل شبه تلقائي، أضفت هذه الكلمات من رواية «نحن» كردٍ على تغريدة برانديس: "وعلاوة على ذلك، هذا يسهل كثيرًا المهمة الشاقة والنبيلة للحراس، فمن يدري ما الذي قد يحدث لولا ذلك؟"

ثم قذفت جهازي اللوحي عبر الغرفة لأعود للقراءة. في الصباح التالي، عندما التقطت الجهاز من تحت الوسائد، كان الشيء اللعين يومض مطالبًا إياي بالتحقق من الرسائل.

"لم أكن أعلم أن الناس ما زالوا يقرؤون (ز)."

كانت الرسالة من برانديس، كُتبت في الثالثة صباحًا. أجبت دون تفكير:

"إن (ز) هو الملك الخفي لعصرنا."

فجاء الرد كسؤال:

"كم ستبقى في موسكو؟"

ترددت للحظة. كيف عرف هذا الطالب مكاني؟ ثم أدركت أن التغريدات التي نشرتها في الأسابيع القليلة الماضية ربما زلت بلسانها عن وجودي في موسكو، وربما مع قليل من القراءة بين السطور. أجبت بأنني لا أعرف بالضبط، ثم خرجت إلى المدينة المتجمدة لأداء طقوس وجودي المنفرد اليومية.

كانت رسالة جديدة بانتظاري عند عودتي:

"إذا كنت لا تزال مهتمًا بـ (ز)، لدي شيء لأريك إياه."

ولِمَ لا؟ لم يكن لدي ما أخسره. في أسوأ الأحوال سأتعرف على طالب لديه شغف بالأدب. ربما يكون كئيبًا بعض الشيء أحيانًا، لكن هذا يمكن إصلاحه عادة بكأس أو اثنين من الفودكا.

(2)

كانت السيارة رابضة عند حافة الرصيف، ومحركها يدور بهدوء. سيارة مرسيدس سوداء جديدة؛ وهي وحدة التنقل الأساسية في موسكو. وقف بجوارها رجلان ضخمان يدخنان بصمت. وما إن لمحاني أقترب، حتى فتح أحدهما الباب الخلفي لي، ثم استقل مكانه بجوار السائق.

لم أحاول تبادل أطراف الحديث. علّمتني التجربة أنني لن أحصل من حارسيّ هذين إلا على همهمات مقتضبة. يُطلق عليهم محليًا اسم "طوابع البريد"، لأنهم ملزمون بالالتصاق بالطرود التي يحرسونها. هؤلاء رجال قليلو الكلام، يوحون بالهدوء. يتناولون العشاء مع أمهاتهم مرة في الأسبوع، ويحملون إليهن الزهور وعلب الشوكولاتة. يربتون على رؤوس الأطفال الشقر حين تتاح الفرصة. والبعض منهم يجمع سدادات زجاجات النبيذ، أو يلمّع دراجته النارية بتفانٍ ديني. إنهم أكثر الناس مسالمة في العالم. إلا في تلك المناسبات النادرة التي لا يكونون فيها كذلك. وحينها تصبح القصة مختلفة تمامًا، ومن الأفضل لك أن تكون في مكان آخر.

ومضت لمحات من المدينة الحبيبة مسرعة عبر النافذة. موسكو. أكثر العواصم الإمبراطورية حزنًا وجمالًا. ثم ظهرت غابة مظلمة لا تنتهي، ارتبطت في ذهني بتلك الغابات التي تمتد بلا انقطاع حتى سيبيريا. لم تكن لدي أدنى فكرة عن مكاننا. كان هاتفي قد توقف عن العمل لحظة صعودي السيارة،

وظل نظام تحديد المواقع (GPS) يصر بعناد على أننا في الطرف الآخر من المدينة.

في مرحلة ما، انحرفنا عن الطريق الرئيسي إلى ممر يغوص في قلب الغابة. لم تخفف السيارة سرعتها إلا قليلًا، مهاجمةً طريق الغابة بنفس الشراسة التي أبدتها سابقًا على الطريق السريع. حتى لا يقول أحد إن السائقين الروس تسمحون للتفاهات الغبية بترهيبهم؛ قطيع من الذئاب، على سبيل المثال. واصلنا القيادة في الظلام، ليس لفترة طويلة جدًا، لكنها كانت كافية لتطفو الهواجس القاتمة على السطح. الفضول الممتع الذي كنت أشعر به حتى تلك اللحظة أفسح المجال تدريجيًا للتوجس.

قلت لنفسي: في روسيا، تسير الأمور عادة على ما يرام، ولكن عندما تسوء، فإنها تسوء حقًا. في باريس، أقصى ما تخشاه هو مطعم مخيب للآمال حظي بدعاية مبالغ فيها، أو نظرة ازدراء من فتاة جميلة، أو غرامة مرورية. أما في موسكو، فقائمة التجارب غير السارة قد تكون أطول وأقسى بكثير.

وصلنا إلى بوابة. ومن داخل كشك الحراسة، أشار لنا الحارس بالمرور. وأخيرًا بدأت المرسيدس تسير بروية أكبر. وعبر أشجار البتولا، لاحت بحيرة صغيرة تطفو على سطحها بجعات كأنها علامات استفهام في عتمة الليل. وبعد منعطف أخير، توقفت السيارة أمام مبنى كلاسيكي جديد ضخم باللونين الأبيض والأصفر.

ترجلتُ من السيارة لأجد نفسي أمام منزل ريفي يشي بطراز هامبورغ، يقبع بجوار بحيرة ألستر، لا قصرًا لواحد من الأوليغارشية. كان منزلًا لمحترف من المدرسة القديمة، طبيب أو مصرفي، وعلى أية حال كالفيني صارم، مكرس لعمله ولا يميل للتباهي. عند المدخل، شكلت الهيئة المترددة لكبير خدم مسن يرتدي سروالًا مخمليًا تباينًا صارخًا مع البلطجيين اللذين أقلاني إلى هنا. إذا كانا ينتميان بشكل لا لبس فيه إلى المدينة المتوهجة والقاسية التي غادرناها

لتوّنا، فإن هذا الخادم الذي انحنى ظهره قليلًا بدا وكأن مخدومه قد اختاره ليشرف على عالم أقدم وأكثر خصوصية.

بمجرد عبوري الباب، اكتشفت ردهة مدخل مكسوة بالألواح الخشبية. مرة أخرى، لم يكن هناك أي تنازل للطراز المعاصر الرائج في كل مكان آخر. بدلًا من ذلك، وبينما كنت أتبع "خارون" الهش هذا عبر سلسلة من الغرف، رأيت وفرة من الأثاث المكسو بالقشرة الخشبية، والشمعدانات المضاءة، والإطارات المذهبة، والسجاد الصيني؛ وكلها خلقت جوًا دافئًا عزّزه زجاج النوافذ المغشى والمواقد الكبيرة المزينة بالبلاط. انطباع التناغم الصارم الذي استقبلني عند العتبة ازداد قوة من غرفة لأخرى، حتى وصلنا إلى مكتب، حيث أرشدني كبير الخدم إلى ديوان صغير رسمي، يبدو وكأنه خرج للتو من غرفة انتظار لإحدى شخصيات "الحرب والسلم". وعلى الجدار المقابل، كانت لوحة زيتية لرجل مسن، يرتدي زي مهرج البلاط، ترمقني بنظرة ساخرة.

تطلعت حولي، مبتهجًا ومندهشًا قليلًا. غالبًا ما يكون للفخامة تأثير مشتت للانتباه، لكنها هنا كانت تمنح شعورًا بالقوة والتركيز.

قال صوت:

- "توقعتَ صنابير مطلية بالذهب، ربما؟"

كان بارانوف يبتسم. تحدث دون سخرية، وبدا مرتاحًا، كرجل اعتاد الاستحواذ على أفكار الآخرين. لقد تجسد دون سابق إنذار، ربما عبر باب جانبي. كان يرتدي سترة داكنة خفيفة الوزن، مرنة وباهظة الثمن. تلعثمت بإجابة ما، لكن الروسي لم يعرها اهتمامًا.

تابع قائلًا:

- "أعتذر عن الوقت المتأخر، عادة سيئة وقعت فيها ولم أعد أستطيع التخلص منها."

قلت وأنا أفكر في صخب الحياة الليلية في موسكو:

- "لست وحدك من يتبع هذا النمط."

ثم أدركت أن كلامي قد يبدو تلميحًا لعادات القيصر الليلية. بدا وكأن خاطرة عابرة مرت عبر نظراته الثقيلة.

استطردت قائلًا:

- "على أية حال، إنه لمن دواعي سروري الحقيقي أن أكون هنا. يا له من مكان رائع."

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت بعيني بارانوف تستقران عليّ لأول مرة:

هل قطعتَ كل هذه المسافة لتشعرني بالملل كالبقية؟

ظل الروسي واقفًا. ثم قال وهو يتجه نحو الباب الذي دخل منه:

- "إذن، لقد قرأت زامياتين. تعال، لدي شيء لأريك إياه."

دخلنا غرفة جدرانها عبارة عن مكتبة تليق بدير للرهبان البندكتيين. آلاف المجلدات القديمة كانت تلمع على الأرفف، عاكسة التوهج الساطع لموقد حجري مهيب.

قلت، مواصلًا تحطيم رقمي القياسي في ذكر البديهيات:

- "لم أكن أعلم أنك تجمع الكتب القديمة."

رد قائلًا:

- "أنا لا أجمعها، بل أقرأها. وهذان أمران مختلفان تمامًا."

بدا الروسي منزعجًا. الهواة والجامعون هم رجال صغار، مهووسون بسيطرة لن يمتلكوها أبدًا. ولم يكن بارانوف يعتبر نفسه واحدًا منهم.

أضاف قائلًا:

- "في الواقع، الكتب ليست كلها لي. ورثت الكثير منها عن جدي."

كدت أفشل في إخفاء دهشتي. ففي الاتحاد السوفيتي، لم يكن توريث مكتبة من الكتب القديمة عبر العائلة حدثًا عاديًا.

قال بارانوف، الذي لم يكن ميالًا للشرح:

- "لكن هذا شيء وجدته أنا."

أخرج بضع صفحات مكتوبة بخط اليد من حقيبة جلدية. وناولني الأوراق المصفرة قائلًا:

- "ألقِ نظرة."

كانت رسالة بحروف كيريلية، مؤرخة في موسكو، 15 يونيو 1931. بدأت في القراءة.

عزيزي يوسف فيساريونوفيتش،

مؤلف هذه الرسالة، المحكوم عليه بأقصى عقوبة، يتوجه إليكم بطلب استبدال هذه العقوبة بأخرى. اسمي معروف لديكم على الأرجح. بالنسبة لي ككاتب، فإن الحرمان من فرصة الكتابة ليس أقل من حكم بالإعدام.

رفعت نظري. تظاهر بارانوف بتفحص كتابه، مانحًا إياي وقتًا لاستجماع شتات عقلي.

قال دون أن يلتفت:

- "إنها الرسالة الأصلية التي كتبها زامياتين إلى ستالين. عندما طلب الإذن بمغادرة الاتحاد السوفيتي."

ظللت أحدق في بارانوف للحظة طويلة بعد سماع توضيحه. لم أستطع تصديق ما كنت أحمله بين يدي. ثم وجدت القوة لمتابعة القراءة.

لا نية لي لتقديم نفسي في صورة البريء المظلوم. أعلم أن لدي عادة غير مريحة للغاية، وهي قول ما أعتبره الحقيقة بدلًا من قول ما قد يكون مناسبًا في تلك اللحظة. وتحديدًا، لم أخفِ أبدًا موقفي تجاه التملق الأدبي، والمداهنة، وتلون الحرباء: لقد شعرت وما زلت أشعر أن هذا أمر مهين بنفس القدر للكاتب وللثورة.

بقيت غارقًا في الرسالة لبعض الوقت. وعندما رفعت عيني، كان بارانوف يراقبني.

قال:

- "إنها من بين أفضل رسائل الاستعطاف التي أرسلها فنان إلى ستالين على الإطلاق. زامياتين لم يحط من قدر نفسه أبدًا. يتحدث بصراحة، كبلشفي سابق. لقد حارب ضد جنود القيصر، ونجا من المنفى، وعاد لينضم إلى الثورة. المشكلة الوحيدة هي أنه فهم كل شيء بسرعة كبيرة، وكان أحمق بما يكفي ليقول ذلك كتابةً."

خارجًا لتوّي من حالتي الروحية مع المؤلف، شعرت بواجب التدخل، فتمتمت ببعض الكليشيهات حول التوتر المستعصي بين الفن والسلطة، وعن طبيعة زامياتين البدوية، وعن إيمانه بأن حتى الفكرة الثورية، بمجرد انتصارها، تبدأ حتمًا في التحول إلى فكرة برجوازية. نظر إليّ بارانوف بنظرة ودودة كتلك التي يرمق بها صديق العائلة طفلًا جُرّ إلى حفل مدرسي في نهاية العام. وعندما رأى أنني استنفدت ما في جعبتي، تحدث مرة أخرى.

قال:

- "نعم، كل هذا صحيح بما فيه الكفاية. لكني أعتقد أن شيئًا آخر يحدث هنا أيضًا. حاول زامياتين إيقاف ستالين، لأنه أدرك أن ستالين لم يكن سياسيًا بل فنانًا. وأن المستقبل لن تحدده المنافسة بين برنامجين سياسيين، بل بين رؤيتين فنيتين. في عشرينيات القرن الماضي، كان زامياتين وستالين فنانين طليعيين يتنافسان على السيادة. القوى على كلا الجانبين كانت غير متكافئة بالطبع؛ فوسيط ستالين كان لحم شعبه ودمه، ولوحته كانت أمة شاسعة، وجمهوره سكان كوكب بأسره، ينطقون اسمه بتبجيل بمئات اللغات. ما يبعثه الشاعر للحياة في الخيال، يجسده باني العالم على مسرح التاريخ العالمي."

وتابع بارانوف:

- "خاض زامياتين المعركة في عزلة شبه تامة، ومع ذلك حاول مقاومة النظام الجديد. كان يعلم أن فن ستالين سيؤدي حتمًا إلى معسكرات الاعتقال؛ فإذا كنت ستنظم حياة (الإنسان الجديد)، فلا مجال للهرطقة. ولهذا السبب، ورغم كونه مهندسًا، لجأ زامياتين إلى أسلحة الأدب والمسرح والموسيقى. أدرك أنه منذ اللحظة التي تُستخدم فيها سلطة الدولة لسحق النشاز، فإن الغولاغ سيتبع ذلك كأمر بديهي. إذا قُمعت التناغمات المحظورة، فسرعان ما لن يكون هناك سوى مارشات عسكرية بإيقاع ثنائي. السلالم الموسيقية الصغيرة (Minor)، التي لم تعد متوافقة مع مُثل المجتمع الجديد، ستصبح عدوًا طبقيًا. السلالم الكبيرة (Major)! لا شيء سوى السلالم الكبيرة! كل الطرق تؤدي إلى السلالم الكبيرة! الموسيقى، حتى الآلية منها، ستكون خادمة للكلمات. ولن يتم تأليف المزيد من السمفونيات ما لم تمجد الماركسية اللينينية."

وبينما كان ينطق بهذه الكلمات الأخيرة، تسللت نبرة من العاطفة إلى صوت بارانوف، وكأنه لم يكن يحلل حدثًا تاريخيًا فحسب.

استطرد قائلًا:

- "عندما أقنع زامياتين صديقه شوستاكوفيتش بتأليف أوبرا (ليدي ماكبث من متسينسك)، كان ذلك لأنه أدرك أن مستقبل الاتحاد السوفيتي يعتمد على هذا التصوير. وأن الطريقة الوحيدة للهروب من المحاكمات الصورية والتطهير السياسي هي إعادة تقديم الفرد الذي يتمرد على النظام المخطط له. وعندما وقف ستالين غاضبًا وغادر مسرح البولشوي بعد الفصل الثالث، كان ذلك لأنه عرف أن حرية المؤلف وشخصياته تمثل تحديًا مباشرًا لسلطته، ولمشروعه الفني العالمي. لهذا السبب أمر بتلك الافتتاحية الشنيعة في صحيفة (برافدا) التي تندد بالمؤلف لاهتمامه المفرط بالحسية الفجة والسلوك (البهيمي) لشخصياته. في مشروع ستالين، كان هناك مكان للغرائز البهيمية لشخص واحد فقط. تم اتباع تحذير لينين بأنه (من الضروري أن نحلم) بحذافيره، ولكن حلم ستالين وحده هو المسموح به؛ أما أحلام الآخرين فكان يجب قمعها."

توقف بارانوف قليلًا. قدمت الغرفة المريحة من حولنا تباينًا صارخًا مع العالم القاسي الذي كان يصفه.

ثم أكمل:

- "عندما تفكر في الأمر، كان النصف الأول من القرن العشرين هو ذلك بالضبط: مواجهة جبارة بين فنانين. ستالين، هتلر، تشرشل. بعدهم جاء البيروقراطيون، لأن العالم كان بحاجة إلى استراحة. لكن اليوم عاد الفنانون. انظر حولك. أينما نظرت، لا يوجد سوى فنانين طليعيين، بدلًا من تصوير الواقع، ينشغلون بخلقه. أسلوبهم هو الشيء الوحيد الذي تغير. اليوم، وبدلًا من فناني الأمس، لدينا شخصيات برامج تلفزيون الواقع. لكن المبدأ هو نفسه."

سألته:

- "هل أنت واحد منهم؟"

أجاب:

- "بالطبع لا. لقد لعبتُ دور المساعد لفترة. وأنا الآن متقاعد."

- "ألا تفتقد الأدرينالين؟"

- "أتعلم، أكبر رهان ستواجهه في حياتك هو أن تستيقظ، وتشرب قهوتك الصباحية، وتوصل ابنتك إلى المدرسة. بجدية، أعتقد أنني لم أرغب حقًا في شيء سوى ثلاث أو أربع مرات في حياتي. ولكن عندما رغبت، تمكنت عادة من الحصول عليه. وما أريده الآن، أؤكد لك، ليس أكثر من هذا."

أشار بارانوف بيده نحو المكتبة المحيطة بنا، والكرة الأرضية الخشبية القديمة، والنار المشتعلة في الموقد.

سألته:

- "وماذا كان رأي الآخرين في الكرملين بخصوص ذلك؟"

- "كيف تظنهم تفاعلوا؟" رد بارانوف. "بشكل سيء، بالطبع. داخل حوض السمك، كل شيء مغفور، سواء كنت لصًا، أو قاتلًا، أو خائنًا. لكن الهجران أمر مختلف. ماذا! أنت لا تريد شيئًا نحن مستعدون للقتل من أجله؟ الحاشية لا يمكن أن تغفر لك هذا أبدًا."

- "والقيصر؟"

قال بارانوف وقد ظهر بريق ساخر لحظي في عينيه:

- "القيصر قصة أخرى. إنه يرى كل شيء ويغفر كل شيء."

- "هل تكتب مذكراتك؟"

- "هذا آخر شيء قد أفعله."

- "لديك الكثير لترويه..."

قال بحزم:

- "لا يوجد كتاب يمكن أن يرقى أبدًا لمستوى الممارسة الفعلية للسلطة."

عارضته قائلًا:

- "يمكن تقديم الحجة المعاكسة أيضًا."

مر طيف ظل باهت عبر وجهه. وابتسم بارانوف.

قال:

- "أنت محق. دعني أعيد الصياغة. لا يوجد كتاب يمكن أنا أن أكتبه، ليرقى أبدًا لمستوى ممارسة السلطة."

- "وما الذي تراه في السلطة؟"

- "أنت تطرح سؤالًا مباشرًا أكثر من اللازم. السلطة مثل الشمس، مثل الموت: لا يمكنك النظر إليها مباشرة. خاصة في روسيا. ولكن بما أنك قطعت كل هذه المسافة، وإذا كان لديك بعض الوقت، أود أن أحكي لك قصة."

نهض بارانوف وسكب كأسين من الويسكي من دورق كريستالي. ناولني واحدًا وعاد لمكانه في كرسيه الجلدي. رمقني بنظرة ثاقبة للحظة، ثم نظر إلى كأسه.

قال ببطء:

- "كان جدي صيادًا ماهرًا."

(3)

يستمر بارانوف في الحكي:

كان جدي صيادًا من طراز فريد. في المنزل، لم يكن ليرتدي روب الحمام قط دون مساعدة خادم، ولكن عندما يتعلق الأمر بقتل ذئب، كان يقضي ليالٍ بطولها في الغابة تحت النجوم. قبل الثورة، كان الصيد مجرد تسلية. فقد درس القانون، وكانت أبواب المناصب في البيروقراطية القيصرية مشرعة أمامه، أيًا كان المسار الذي يختاره. لكن عندما استولى البلاشفة على الحكم، لم يتبقَ له سوى الصيد. في الواقع، منح البلاشفة جدي حريته، وإن كان هو لن يعترف بذلك أبدًا. كان يكره الشيوعيين، حتى إنه أطلق أسماء قادة الحزب على كلابه:

- "إلى هنا يا مولوتوف!"

- "اذهب وانبطح يا بيريا!"

لحسن الحظ، عاش في عزلة نسبية، ولم يوشِ به أحد. لكن أبي، حتى في طفولته، كان يدرك مدى جموح هذا الرجل وغرابة أطواره. كان يخجل منه، بل وأعتقد أنه كان يرتعب منه أيضًا. ولم يكن مخطئًا في شعوره ذاك، بالنظر إلى ما كان يجري في تلك الأيام. لكن جدي لم يكن يبالي على الإطلاق. وعلاوة على ذلك، كانت الأمور تسير لصالحه. في مرحلة ما، بدأ في تأليف كتب عن الصيد: كيفية تدريب الكلاب، تتبع الآثار، وما شابه ذلك. وكان يطعم تلك

الكتب ببعض النوادر، ويصف شخصيات التقاها في البرية، ويقتبس مقاطع من "تورغينيف"؛ فأحب القراء ذلك. قدمت كتبه شيئًا من خفة الروح التي ميزت الأزمنة الغابرة، لكن في نطاق محدود وغير سياسي، مما جعلها مقبولة لدى من هم في السلطة.

في نهاية المطاف، أصبح جدي مرجعًا ذا ثقل. وفي عام 1954، عندما انتشرت الذئاب في القوقاز، كُلف بقيادة حملة حكومية لإبادتها. صار عمليًا موظفًا حكوميًا، لكنه لم يغير سلوكه أبدًا. احتفظ بتلك الوقاحة المميزة للأرستقراطية الروسية، ولم يكن ليقاوم إلقاء دعابة ذكية، حتى لو كان ثمنها حبل المشنقة.

أذكره وهو يسخر من أبي عندما كنت صغيرًا:

- "عمل رائع يا أليوشا، الخطوة التالية هي أن يجعلك بريجنيف تجلس في حضنه أثناء عرض يوم النصر!"

ثم يضيف:

- "أنت تعلم أن للحزب نوعين من الموظفين، أليس كذلك؟"

- "نعم يا أبي، أخبرتني بذلك من قبل."

- "التافهون الذين لا نفع منهم، والأوغاد الذين لا يردعهم رادع. فأي النوعين أنت يا أليوشا؟"

كان أبي يرتعد. فقد كانت طبيعته على النقيض تمامًا. منذ طفولته، سعى جاهدًا للابتعاد عن المشاكل. وفي أول فرصة، انضم إلى "الرواد الشباب"، ثم "الكومسومول". أعتقد أنه كان يأمل في التكفير عن ذنوب والده غريب الأطوار وإرثه الأرستقراطي. أراد أن يكون مثل أي شخص آخر. وأنا أتفهم ذلك؛ فهو شكل من أشكال التمرد بحد ذاته. عندما تنشأ مع والد يعيش كليًا خارج حدود المألوف، فإن الطريقة الوحيدة للتمرد عليه هي الامتثال للسائد.

على أية حال، كنت أُرسَل كل صيف للإقامة مع جدي في الريف. كان "الإزبا" الذي يعيش فيه - وهو نوع من الأكواخ الخشبية المصنوعة من جذوع الحور - يقع خارج القرية مباشرة. مظهره الخارجي ريفي، يتوسط حديقة مطبخ تُزرع فيها الخيارات، والبطاطا، والغار، وبعض أشجار التفاح. كانت هناك أيضًا طاولة صغيرة مع مجموعة من الكراسي المصنوعة من الحديد الزهر، علاها الصدأ حتى بدت وكأنها قضت قرنًا أو قرنين في قاع نهر نيفا.

لكن بمجرد دخولك المنزل، تدرك أن جدي قد نجح بطريقة ما في إعادة خلق جو عصر مضى. غرفة المعيشة الصغيرة وغرفة الطعام لم تكونا مؤثثتين بفخامة، لكن شعورًا بالرخاء الهادئ كان يملأ الأجواء - في تناقض تام مع زمن التقشف السائد - مع رائحة الشاي الذي يغلي دائمًا. كانت هناك وفرة من جوائز الصيد وفراء الحيوانات، لكن سيد المنزل خفف من وطأتها عبر مزجها ببراعة بأشياء غير متوقعة: تماثيل صينية صغيرة، وحجر بازهر، وبعض الكتب ذات التجليد الفاخر الملقاة بإهمال على طاولة من خشب البتولا. كان الترتيب يتسم بأناقة قد أسميها في العادة "أنثوية"، لولا أن جدي كان يكره حتى فكرة المساكنة مع الجنس الآخر.

زوجته، والدة أبي، توفيت بمرض التهاب الصفاق وهي في الثالثة والعشرين، مطوية بذلك صفحة حياته العاطفية. كانت بعض الصديقات يزرنه من وقت لآخر، بعضهن أكثر لباقة من الأخريات. لكن لم تكن أي منهن تمكث أكثر من بضع ساعات في هذا المعبد المكرس لآلهة الأدب، والصيد، والصداقة الذكورية التي يغذيها التراشق الساخر وجولات الشراب الثقيلة.

كان يعتني بالمنزل زخار وزوجته نينا، وهما فلاحان يعملان رسميًا في "الكولخوز" لكنهما في الواقع كانا خادمين منزليين. كان جدي فارسًا ممتازًا، لكنه لم يتعلم قيادة السيارة قط. وعندما كان عليه الذهاب إلى مكان ما، كان

زخار يخرج سيارة "فولغا" العتيقة ويقوم بدور السائق. التنازل الوحيد الذي قدمه جدي للحكمة هو جلوسه ديمقراطيًا بجانب زخار بدلًا من المقعد الخلفي.

كانت مرافقة جدي مغامرة دائمًا، حتى لو كان ذاهبًا إلى القرية لقضاء أمر بسيط. كانت تحدث هناك أشياء لا تحدث لأحد غيره، وكأنه محاط بهالة من الحنين تحميه من دناءة العصر، مما يسمح في أي لحظة بإقامة احتفال مرتجل. كان بإمكانه الدخول إلى أكثر مقاهي الدولة كآبة، وفجأة تومض شرارة من سحر الأيام الخوالي لتعيد الحياة للمكان. حتى وهو جالس على كرسي بلاستيكي فوق أرضية من المشمع الرمادي، كان شيء ما فيه يستحضر صور الحفلات الراقصة الرسمية، ومشاهد فتح زجاجات الشمبانيا بضربة سيف. كان الناس، وغالبًا من الغرباء تمامًا، يستشعرون جاذبيته وينجذبون إليها، يتجمعون حوله لسماع هذا السيد العجوز الأنيق المهذب دومًا وهو يروي قصصًا عن زمن مضى، كما لو كان حاضرًا في صالون راقٍ ببطرسبورغ.

أحيانًا كنت ألاحظ بيروقراطيًا حزبيًا سيئ المزاج يرمقه بنظرات حانقة من طاولة قريبة، لكن لم يجرؤ أحد قط على التدخل في شأنه. كيف نجا جدي من تطهيرات ستالين؟ أمر غير واضح، ولكن مع مرور الوقت، تخلص النظام تدريجيًا من نزعته لافتراس البشر. كان جدي مجرد شخص عليك تحمله، وعلى أية حال، لم يبدِ أي اهتمام بالسياسة.

كان أصدقاؤه في الغالب من الصيادين. مجموعة غير متجانسة ضمت أرستقراطيين سابقين مثله، ولكن أيضًا فلاحين وقطاع طرق من سيبيريا. كان هناك حتى قلة ممن أسماهم "الشيوعيين المُستأنسين"، وهم أعضاء في الحزب تمكن من إفسادهم بأحاديثه الحنينية وحفلات الشراب. في أوائل الشتاء، كانوا ينثرون زجاجات الفودكا حول أراضي "الإزبا" ليستمتعوا بالعثور عليها مرة أخرى عندما يذوب الثلج. وفي تلك الأثناء، كانوا يتكدسون في الداخل،

يجتمعون مرتين على الأقل أسبوعيًا للعب الورق. يتبادلون قصص الصيد وينقدون الوضع الحالي، غالبًا عن طريق إلقاء النكات:

- "هل تعرف ما هو الثنائي الموسيقي السوفيتي؟ هو رباعي عاد لتوّه من جولة في الخارج."

- "زار بعض المفتشين الحكوميين مستشفى للأمراض العقلية. اصطف المرضى ليغنوا لهم أغنية: (ما أجمل العيش في الاتحاد السوفيتي!). لكن المفتشين لاحظوا رجلًا يقف صامتًا. سألوه: (لماذا لا تغني؟). فأجاب: (أنا واحد من الممرضين، لست مجنونًا!)."

- "ذهب الرفيق خروتشوف لزيارة مزرعة خنازير، بصحبة مصور من صحيفة (برافدا). لاحقًا، في غرفة الأخبار، حاول فريق التحرير تحديد صياغة التعليق أسفل الصورة. هل يكتبون (الرفيق خروتشوف بجانب الخنازير)؟ أم (الرفيق خروتشوف محاطًا بالخنازير)؟ أم ربما (الخنازير تتجمع حول الرفيق خروتشوف)؟ رُفضت الاقتراحات واحدًا تلو الآخر. أخيرًا، تدخل المحرر قائلًا: (حسنًا، إليكم الحل: الرفيق خروتشوف، الثالث من اليمين)."

كان الضحك يملأ تلك التجمعات، مع ضربات قوية على الظهور، وتفريغ دورق تلو الآخر. ومع ذلك، لم يكن منزل جدي يضج بالحركة دائمًا. كان يحب الوحدة. ادعى أن السبب هو عدم ميله للشيوعيين، لكن الحقيقة هي أنه كان سيبغض البشر في ظل أي نظام. وأعتقد أنني ورثت بعض صفاته...

ابتسم بارانوف. مد يده إلى الزجاجة وسكب جرعة من الويسكي في كأسه الكريستالي.

- "في إحدى الليالي ونحن جالسان بجوار المدفأة، بدأ جدي يروي لي قصصًا عن قوات القيصر في باريس بعد هزيمة نابليون. كانت هناك شخصية تتكرر في هذه القصص لرجل يُدعى يوركو، سكير عتيد ورفيق سلاح لأحد أجدادنا ممن خدموا في الحرس الإمبراطوري. عند وصول يوركو إلى باريس، اقتحم صيدلية، والتقط زجاجة كحول طبي، شمها، ثم سكبها في حلقه، متبعًا إياها بخيارتين صغيرتين أحضرهما خصيصًا لهذه المناسبة. أصيب الصيدلي بالذعر، متخيلًا فرقة الإعدام التي سيواجهها بتهمة تسميم جندي روسي. هرع إلى أقرب معسكر، حيث أوقف أول ضابط روسي بدا له متحضرًا نوعًا ما. وتصادف أن يكون ذلك الضابط فاسيلي بارانوف. شرح الصيدلي أنه لا يد له في موت يوركو الوشيك، وأن الجندي الروسي تجرع الزجاجة قبل أن يتمكن من نطق كلمة. قاطعه جدنا عند هذه النقطة قائلًا:

- (يبدو أن معرفتك بالجنود الروس ضحلة، أليس كذلك؟)

أقر الصيدلي بذلك.

- (لكنك مطلع على مفهوم المناعة، أليس كذلك؟)

حدق الصيدلي فيه مذهولًا.

- (انظر يا سيدي العزيز، الحياة في روسيا مليئة بالمصاعب التي تفوق أي شيء لديكم في باريس. خياراتنا من الأجبان محدودة للغاية، ونساؤنا قلما يبتسمن، وطرقنا مغطاة بالجليد دائمًا تقريبًا. لكن ما لا يقتلك يجعلك أقوى: على مر القرون، أتيحت لعمليات الأيض في أجسادنا فرصة للتكيف مع أشياء كثيرة).

ثم أشار إلى يوركو، الذي كان يلعب الورق بهدوء مع رفيقين، وبينهما زجاجة فودكا نصف فارغة على الطاولة.

انفجر جدي ضاحكًا وتابع:

- (عندما كنت في الثامنة عشرة، قُبلت أنا أيضًا في حرس القيصر. كنت فخورًا جدًا بذلك، رغم أن الأمر لم يكن له علاقة تذكر بجدارتي، كما تعلم. خدم أبي وجدي في نفس الفوج قبلي، وعلى حد علمي، خدم كل بارانوف سبقهما هناك أيضًا. على أية حال، كنت فخورًا للغاية وتلقيت التهاني من كل حدب وصوب: "يا له من امتياز هائل يا كوليا أن تخدم في حرس القيصر، يا له من حظ سعيد لوالديك"، إلخ، إلخ. ثم في أحد الأيام، وأثناء تدريباتنا الصباحية، سقطت عن حصاني وكُسر حوضي. قال لي جميع أصدقائي: "يا لسوء الحظ يا كوليا، الموسم الاجتماعي بدأ والحفلات الراقصة الأولى يُعلن عنها لتوها!". كنت يائسًا. كان إخواني في الفوج يتبخترون بزي التشريفات في حفل مبهر تلو الآخر، بينما كنت أرقد في السرير ألعب الورق مع جدتي. ولكن فجأة، اندلعت الحرب، وغادروا إلى الجبهة. المساكين، حصدتهم المدافع الرشاشة الألمانية جميعًا في هجومهم الأول. كنت لا أزال في فترة نقاهة بالمنزل، يزورني شعور قوي بالذنب بالطبع، ولكن تزورني أيضًا العديد من حسناوات بطرسبورغ اللاتي جئن لمواساتي.

في ذلك الوقت التقيت بجدتك. كانت الأوقات صعبة، لكننا امتلكنا آمالًا عريضة، أو هكذا اعتقدنا. فتحت لي مكانة عائلتي الرفيعة ودراسات القانون التي شرعت فيها الباب للعمل في أعلى مستويات الإدارة. بدأت أُستقبل في البلاط، وشرع والد زوجتي في بناء قصر صغير في شارع "نيفسكي بروسبكت". بدا مسارنا مرسومًا بشكل نهائي، حين قررت فجأة مجموعة من الحمقى أن القيصر يجب أن يُخلع وأن تتحول "أمنا روسيا المقدسة" إلى جمهورية. ونجحوا في ذلك أيضًا، واستولوا على السلطة! ولكن بعد ذلك انقض البلاشفة وذبحوا الجميع، القياصرة والجمهوريين على حد سواء.

كانت الثورة كارثة غير مسبوقة. لكن صحيح أنه بدونها، كنت سأنتهي موظفًا بيروقراطيًا، أو في أحسن الأحوال رجل بلاط. لن أقول أبدًا إن

الشيوعية شيء جيد، لكن الحقيقة هي أنك تستطيع أن تكون سعيدًا أيًا كان النظام الحاكم. وهل تعلم يا فاديا؟ أنت لا تعرف شيئًا أبدًا. لا يمكنك التحكم فيما يحدث، والأسوأ من ذلك، لا يمكنك أن تعرف ما إذا كان ما يحدث خيرًا أم شرًا. أنت هناك، تتوقع شيئًا ما، تريده أن يتحقق بكل قوتك. وأخيرًا يتحقق، لتدرك فورًا أن حياتك قد دُمرت. أو العكس. تسقط السماء على رأسك، لكنك تدرك تدريجيًا أنه لم يكن بوسعك أن تأمل في نتيجة أفضل. كل ما يمكنك التحكم فيه، صدقني، هو كيفية تفسيرك للأحداث التي تقع. إذا انطلقت من فكرة أن ليست الأشياء هي التي تجعلنا نعاني بل طريقتنا في تفسيرها، حينها تكون لديك فرصة للسيطرة على حياتك. وإلا، فإنك محكوم عليك بأن تطلق النار من مدفع لتقتل ذبابة)."

ما زلت أذكر تعبيرات وجه جدي وهو ينطق بهذه الكلمات. تحدث بجدية، ولكن أيضًا بلمسة من السخرية، وكأنه محرج قليلًا من لعب دور العجوز الواعظ الممل. لكنه أراد فعل ذلك. رجال ذلك الجيل أرادوا تمرير ما تعلموه عن الحياة، شعروا أن ذلك مهم. أعتقد أنهم كانوا آخر من امتلك هذا الشعور. بدءًا من جيل أبي، توقف الناس عن الاعتقاد بأن هناك أي جدوى من تمرير أي شيء على الإطلاق. لقد أصبحنا "عصريين" أكثر من اللازم، وحداثيين للغاية. ونعيش في خوف من السخرية. لا أحد يريد أن يلعب دور الأحمق العجوز.

لم يكن جدي بطريركًا من القرن التاسع عشر، بل كان رجلًا حديثًا. قرأ كافكا وتوماس مان، لكنه كان مستعدًا للمخاطرة بالتعرض للسخرية ليخبرني ما كان لديه ليقوله. وسأظل ممتنًا له دائمًا على ذلك، لأن تلك الفكرة لازمتني منذ ذلك الحين: أننا نتخبط في الظلام. أننا لا نعرف ما هو جيد لنا ولا ما هو سيء. لكننا أحرار في تحديد معنى الأشياء التي تحدث. وتلك هي قوتنا الوحيدة والفريدة.

(4)

من ذا الذي يعلم كيف استطاع الجَد أن يُبقي مكتبة العائلة طي الكتمان؟ في ظني، لم تجرؤ نفسٌ قط على التنقيب في مقتنياته؛ حتى نحن لم يكن مسموحًا لنا بوطء العلية. كان ينزل من هناك بين الفينة والأخرى حاملًا كتابًا، ويهمس لي:

- "خُذ، هذه مذكرات كازانوفا، لكن إياك أن تخبر أباك".

في البدء، كانت الكتب في معظمها للصغار: حكايات لافونتين، أو رواية للكونتيسة دو سيغور. ثم نفد صبره؛ إذ تاقت نفسه إلى محاور يشاركه شغف القراءة، حتى وإن كان مجرد طفل. فشرع يُهرّب إليّ أعمالًا من طراز مختلف. أذكر أنني لم أكن قد بلغت العاشرة حين ناولني مذكرات الكاردينال دو ريتز، فالتهمتُها كما لو كانت إحدى روايات المغامرات والدسائس. وفي تلك المرحلة، غدا لويس دي بوربون ودوقة لونغفيل أقرب إلى مخيلتي من ميكي ماوس أو الدب ميشا.

***

ابتسم بارانوف وأشار بيده إلى ركن من أركان مكتبته، وقال:

- "جزء كبير من هذه الكتب كان ملكًا له. وكما ترى، جلّها بالفرنسية. كان جدي يردد دائمًا أنها لغة ذروة التحضر. فالعالم الذي نشأ فيه شكّل

نفسه على هيئة باريس، مقلدًا آدابها، وأزياءها، وحتى نزواتها إلى حد العبث. هل تعلم أن نيسيلرود، المفاوض الروسي الشهير في مؤتمر فيينا، لم يكن ينطق كلمة روسية واحدة؟ أدار السياسة الخارجية للإمبراطورية لأربعين عامًا دون أن يتحدث لغتنا! كل ذلك الحب والشغف لم يكن موجهًا لإثبات الذات، بل لتقمص شخصية الآخر. وكيف رُدّ إلينا هذا الحب العظيم؟ بالاحتقار. دائمًا، وفي كل عصر، لا نلقى سوى الاحتقار نفسه!".

مدّ بارانوف يده ليتناول كتابًا آخر، وتابع قائلاً:

- "خُذ مثلاً ذلك الوغد كوستين، الذي أسموه توكفيل روسيا. عامله القيصر نيكولاس وكأنه شقيقه؛ استقبله في البلاط، وكسر البروتوكول ليتمكن كوستين من حضور زفاف ابنته. وكيف ردّ له ذلك السافل الجميل؟ دبّج أربعة مجلدات، وألفًا وثلاثمائة صفحة، ليصور روسيا جحيمًا خالصًا. استمع إلى ما يقول: «*هذه الإمبراطورية، على اتساعها المترامي، ليست سوى سجن كبير يمسك القيصر بمفتاحه. وإن كان هو السجّان، فإن السجانين هنا لا يعيشون حياة أفضل من المساجين*». أو قوله: «*الروس لا يعنيهم أن يكونوا متحضرين بقدر ما يعنيهم إيهام الآخرين بأنهم كذلك*»".

كان الجد يمقت روسيا عام 1839، لكنها في الوقت ذاته كانت تأسر لبّه. كان يقول:

- "ذاك الفرنسي الملعون هو خير من فسر روسيا؛ لأن البلاط في هذا البلد هو المسلك الوحيد نحو السلطة والثروة. التعويل على المشاعر الشعبية هنا لا طائل منه؛ فالغلبة دائمًا لمن يستند إلى البلاط. ولهذا السبب، التملق أجدى نفعًا من الموهبة، والصمت أبلغ من الفصاحة. لقد راقب كوستين نبلاء سان بطرسبرغ وهم يسيرون في زمهرير الشتاء بلا معاطف، لا لشيء إلا لفرط تملقهم للقيصر، فماتوا من البرد. لم تكن ثمة مقاهٍ لتداول أخبار الصحف، وبالطبع، لم

تكن هناك صحف من الأساس. كانت الأخبار تتلون بلون ناقلها، وغالبًا ما تُهمس همسًا. روسيا بلد الخُرس، بلد «الجميلة النائمة»؛ فاتنة ولكنها بلا حياة، لأن أنفاس الحرية غائبة عنها. وهذا حالها اليوم كما كان بالأمس".

حين كان الجد يتحدث بهذه النبرة، كانت فرائص أبي ترتعد ذعرًا. كان يخشى تلك المكتبة القابعة في العلية، ويعدّها وكرًا لأفكار هدّامة. لكن يُحسب له - والحق يقال - أنه لم ييأس، ولم يمنعني عنها قط. ليس لأنه كان متواجدًا في المنزل كثيرًا؛ فقد كان دائم الرحلات لإلقاء الخطب أو حضور الندوات. وفي مرحلة ما، عُيّن مديرًا لأكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للحزب الشيوعي، وأُدرج اسمه في الموسوعة السوفيتية العظمى، وهو الشرف الأسمى آنذاك. لكنه ظل، في جوهره، رجلاً حذرًا. أعتقد أن غايته القصوى كانت ألا يستيقظ يومًا على طرقات الشرطة السرية تزلزل بابه. ليس لديك أدنى فكرة عن كم المواهب التي قُربت قرابين في روسيا على مذبح هذه الغاية الوحيدة.

علّقتُ قائلاً:

- "يبدو لي ذلك دليلاً على رجاحة عقله".

فردّ بارانوف:

- "ربما. لا شك أن أبي كان يتمتع بنصيب وافر من الحكمة العملية. لكن حين أستعيد تلك الأيام، يبدو لي الأمر - حتى آنذاك - نوعًا من السذاجة الكارثية؛ أن تظن أنك قادر على استيفاء واجبك، وأن المرء إذا قفز في دوامة الواجبات قد يبلغ نهايتها يومًا ما. لو أمعنت النظر في أبي، لبدا لك دائمًا رازحًا تحت وطأة هذا العبء الذي وضعه هو بنفسه على كاهله. كان الجد يلقبه بـ «الحارس الأحمر الصغير». كان اللقب يضحكني وأنا طفل، لكن عليّ أن أعترف أنني ما كنت لأحظى بتلك الامتيازات التي وفرتها الحياة السوفيتية

لولا أبي، ولولا مسيرته ونهجه الحذر؛ تلك المتاجر الخاصة التي تبيع بضائع مستوردة، والمدارس التي تُدرّس الإنجليزية والألمانية والفرنسية، والمقاعد المحجوزة في المسرح، وإن كان من الأفضل ألا تتردد عليه كثيرًا خشية أن تُحسب على الفنانين أو المفكرين الأحرار".

في تلك الأيام، كان الامتياز الأكثر طلبًا هو «الكريمليوفكا»؛ سلة المؤن المخصصة لكبار الموظفين وأعضاء اللجنة المركزية للحزب. كان فيتالي، سائق أبي، يذهب كل يوم إلى شارع غرانوفسكوفو رقم 2 لإحضار الكريمليوفكا الخاصة بنا. وكلما سنحت لي الفرصة، كنت أرافقه. تتوقف السيارة أمام ما يبدو متجرًا عاديًا، لكنك تدرك فورًا أن ثمة شيئًا مختلفًا يجري في الداخل، فالسيارات الرسمية كانت تصطف دائمًا في الخارج ومحركاتها دائرة. ندخل أنا وفيتالي المبنى، ونقطع ردهة طويلة لنصل إلى باب زجاجي عُلّقت عليه لافتة: «مكتب التصاريح».

يطرق فيتالي الباب ويدخل دون انتظار. وخلف المنضدة، كانت تجلس امرأة بملابس رمادية، تستقبله بابتسامة. وكان هذا بحد ذاته امتيازًا نادرًا؛ فموظفو الدولة في الاتحاد السوفيتي لم يكونوا يبتسمون لأحد قط. تسأل فيتالي عما يريد، فيلتفت إليّ ويقول:

- "إذن يا فلادينكا، ماذا سنأكل اليوم؟".

وكنت أختار ما يحلو لي: فطائر السلمون، وضلوع الضأن، وحلوى لينوف، والبرتقال القادم من أذربيجان. لا أظن أنني شعرت قط بمثل ذلك الإحساس بالرفاهية والسلطة المطلقة منذ ذلك الحين.

جال بارانوف ببصره في المكان، وكأنه يقول إن كل هذا البذخ، وهذه الألواح الخشبية وزخارف السقف الجصية، لا تساوي شيئًا أمام سلة الفطائر التي كان يلتهمها طفلاً.

– "المشكلة، في الأساس، هي أنني حظيت بطفولة سعيدة. وأعتقد أن ذلك أثر فيّ. لم أشعر قط بأدنى نقمة، ولم تكن لدي حاجة للانتقام من العالم، وهو ما يُعد عائقًا خطيرًا لشخص يعيش الحياة التي أعيشها. هذا ليس أمرًا طبيعيًا في روسيا؛ فهنا يتذكر الجميع حياتهم السابقة وتضحياتهم. النخبة الروسية تشترك جميعها في أصل واحد من الفقر، قبل أن ينتقلوا إلى فيلاتهم في «كوت دازور» وزجاجات نبيذ «بيتروس». البعض يتباهى ببداياته، والبعض الآخر يخجل منها، لكن حين ينظرون إلى بعضهم البعض ببدلاتهم التي تبلغ كلفتها ثلاثين ألف دولار، يدركون أنهم يتقاسمون الغضب ذاته، والذهول ذاته مما آلت إليه الأمور. حتى القيصر نفسه، ورغم يقينه بقدره وبالقوة التي لا تُقهر التي وضعته في مكانه، لا يستطيع دائمًا إخفاء نظرة عدم التصديق. أنا، الطفل القادم من الـ «كومونالكا» – السكن المشترك – في شارع باسكوف، ها أنا ذا في قصر باكنغهام، والملكة تقدم لي الشاي! أما بالنسبة لي، فالأمر كان مختلفًا. في منزلي، كان الخدم يطوفون بقفازاتهم البيضاء يحملون صواني الشراب الوردي. صحيح أن المال لم يكن وفيرًا، لكننا لم نكن بحاجة إليه آنذاك".

– "على عكس اليوم".

– "صحيح، على عكس اليوم. وإن كان هذا صحيحًا جزئيًا فقط. يظن الأجانب أن الجيل الجديد من الروس مهووس بالمال، لكن الأمر ليس كذلك. الروس يلعبون بالمال، يطلقونه في الهواء كالألعاب النارية. لقد تدفق عليهم بسرعة وبغزارة. بالأمس لم يكن هناك شيء، وغدًا من يدري؟ لذا فمن الأفضل إنفاقه كله فورًا. في بلادكم، المال ضرورة، هو أساس كل شيء. أما هنا، فبوسعي أن أقول لك إن الأمر ليس كذلك. الشيء الوحيد الذي يهم في روسيا هو الامتياز، والقرب من السلطة. كل ما عدا ذلك ثانوي. هكذا كانت الأمور

في زمن القياصرة، وفي العهد الشيوعي كانت أكثر رسوخًا. النظام السوفيتي كان قائمًا على المكانة. المال لم يكن له وزن؛ لم يكن متداولاً بكثرة، وكان عديم الفائدة على أي حال. لم يخطر ببال أحد أن يقيم الناس بناءً على ما يملكونه منه. إذا ذهبت واشتريت «داتشا» (منزلاً ريفيًا) بدلاً من انتظار الحزب ليمنحك إياها – لأن ذلك كان متاحًا حتى في ذلك الحين – فذلك كان بمثابة إقرار بأنك لست مهمًا بما يكفي لتنالها كهدية. المكانة هي ما كان يُعتد به، لا النقد. وكان ذلك فخًا بالطبع. الامتياز هو نقيض الحرية، هو شكل من أشكال العبودية. هل تعرف ما هي «الفيرتوشكا»؟".

- "لا".

- "إنه هاتف. في العهد الشيوعي، كان مطمع الجميع. لم يكن مجرد هاتف عادي، بل جهازًا خاصًا يتيح لك الاتصال بكبار رجال الدولة. أرقام الفيرتوشكا كانت تتكون من أربعة خانات فقط. وحين يُركّبون واحداً في مكتبك، فهذا يعني أنك قد «وصلت». في كل عام، كان يُطبع دليل بأسماء المشتركين في شبكة الفيرتوشكا بين دفتين من الجلد الأحمر. إذا كنت مستخدمًا مسجلاً، كان لزامًا عليك أن تطلب الرقم بنفسك وأن ترد على المكالمات شخصيًا، كائنًا من كان المتصل. وإذا كنت رفيع المستوى جدًا، ستحصل أيضًا على فيرتوشكا في منزلك، وفي الداتشا، وفي السيارة. كان بوسع من يملكونه إجراء كل مكالماتهم عبره. أما استخدام الهاتف العادي فكان يُنظر إليه كعلامة على تواضع زائف، وجحود للامتياز الممنوح لك. تصرف قد يفعله مفكر حر، وربما يُعد عملاً تخريبيًا".

صمت بارانوف برهة وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة، ثم استطرد:

- "بطبيعة الحال، كانت الاستخبارات (KGB) تراقب جميع المحادثات، لكن ذلك لم يردع أحدًا. من الغريب أن أكثر ما يصبو إليه رجال الحاشية هو أدوات خضوعهم".

أدركتُ ذلك ذات ليلة، بمحض الصدفة. كان أبي، الذي يعشق السينما، يرتب أحيانًا عرضًا خاصًا في الأكاديمية. يدعو قلة من الزملاء ومسؤولاً أو اثنين من اللجنة المركزية، نحو عشرة أشخاص في المجمل. كان اختيار الفيلم يتطلب عناية فائقة، فلا يمكنك عرض أي شيء. لكن الرقابة المعتادة لم تكن تسري عليه؛ إذ كان بوسع أبي عرض أي فيلم يروق له تقريبًا. ففي النهاية، هو مدير الأكاديمية، وإن لم يدرس هو مظاهر «الانحلال البورجوازي الغربي»، فمن يفعل؟ على أية حال، عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، عرض فيلم «استيلاء لويس الرابع عشر على السلطة» للمخرج روبرتو روسيليني. هل تعرف الفيلم؟

أومأتُ برأسي بتلك الهيئة المشوبة بالذنب لشخص وعد نفسه مرارًا بمشاهدة فيلم ولم يجد العزيمة ليفعل.

- "إنها قصة «الملك الشمس» الذي يشيد قصره في فرساي ويجبر النبلاء على خدمته هناك، مستخدمًا المراسم والامتيازات الصغيرة كقفص لتقييدهم. يسلبهم حريتهم دون أن يلحظوا ذلك تقريبًا، وفي كثير من الحالات يسلبهم كرامتهم الأساسية أيضًا. في المشهد الأخير، نرى الملك يتجرد من حليّه وإكسسواراته الفاخرة. كانت الملابس الباذخة مجرد حيلة، أداة لفرض السطوة. كانت تهدف، كما يخبر وزيره، إلى جعل كل شخص في بلاطه يعتمد في كل شيء على الملك، تمامًا كما تعتمد الطبيعة في كل شيء على الشمس".

في تلك الليلة، وحين عادت الأضواء في قاعة العرض، انتابني شعور بأن الحضور كانوا غير مرتاحين. لم يكونوا أغبياء، بل على العكس تمامًا. لقد درسوا ونالوا الشهادات، وارتقوا إلى قمة الهرم بجهد جهيد وتضحيات جسام ومناورات لا يستهان بها. لكن في تلك المناسبة، وبعد مشاهدة الفيلم، نظر بعضهم إلى بعض بنظرات غريبة. وكأنهم شعروا بالحرج بطريقة عجزوا عن تفسيرها. انسحبوا من القاعة أسرع من المعتاد، وعاد كل منهم إلى منزله في السيارة الرسمية التي وضعها الحزب تحت تصرفهم على مدار الساعة.

في الواقع، كان لدى النخبة السوفيتية الكثير من القواسم المشتركة مع نبالة القياصرة. ربما كانوا أقل أناقة قليلاً، وأكثر تعليمًا قليلاً، لكنهم اتسموا بالاحتقار الأرستقراطي ذاته للمال، وبالبعد الشاسع ذاته عن عامة الشعب، وبالميل نفسه للغطرسة والعنف. لا مفر من القدر، وقدر روسيا هو أن يحكمها أحفاد إيفان الرهيب. ابتدع ما شئت - الثورة البروليتارية، أو الليبرالية الجامحة - فالنتيجة دائمًا واحدة: في القمة يقبع «الأوبريتشنكي»، كلاب حراسة القيصر. على الأقل، يوجد اليوم قدر ضئيل من النظام، وشبه احترام. هذا شيء يُذكر، وسنرى إلى متى يدوم.

نهض بارانوف فجأة، وكأن فكرة باغتته، واتجه نحو مكتبه قائلاً:

- "الفيرتوشكا لا تزال موجودة، هل تعلم ذلك؟ إنها الخطوط الأرضية الآمنة لجهاز الأمن الفيدرالي (FSB). أي شخص يريد التحدث مع القيصر يجب أن يمتلك واحدًا. انظر، ها هو ذا".

أشار بارانوف إلى هاتف قديم الطراز يقبع في إحدى زوايا مكتبه.

- "ظننت أنه سيكون أحمر اللون!".

- "كلا"، قالها ببرود، "إنه رمادي، مثل كل شيء آخر".

- "إذا كنت تظن أن موسكو رمادية، فعليك قضاء بضعة أيام في أوروبا، أو زيارة واشنطن".

فأجاب بابتسامة قاسية:

- "مستحيل! إنهم ليسوا رماديين هناك، بل أموات".

ثم أردف:

- "وكما تعلم، لم أعد حرًا في زيارة تلك الأماكن".

- "أجل، سمعت بذلك. قلتَ في مكان ما إن الأشياء الوحيدة التي تفتقدها من الولايات المتحدة هي توباك شاكور، وألن غينسبرغ، وجاكسون بولوك، ولكنك لست بحاجة للذهاب إلى هناك للاستمتاع بهم".

- "المرء يقول حماقات أحيانًا".

- "ماذا حلّ بوالدك؟".

- "أخبرتك. كان رجلاً طيبًا، دقيقًا، مشغولاً دائمًا بتأليف مجلد ضخم حول «جدليات العصر المعاصر» أو «المشكلات النظرية في اللغويات السوفيتية». ولفترة من الزمن، سارت الأمور على ما يرام. في الخمسين من عمره، نال جائزة لينين، وكان لزامًا على جميع مكتبات الاتحاد السوفيتي اقتناء مجلدات أعماله التي طُبعت بعشرات الآلاف من النسخ. ثم جاء غورباتشوف بكوب الحليب الخاص به!".

- "كوب الحليب؟".

- "نعم. كان بوسعك أن تدرك أن غورباتشوف سيدمر الاتحاد السوفيتي بمجرد النظر إليه، دون أن تضطر لسماعه. كان يعتلي المنصة، فيحضر له أحدهم كوبًا من الحليب. لم يصدق الناس أعينهم. ثم ضاعف سعر الفودكا. أراد من الجميع أن يشربوا الحليب. في روسيا! هل تتخيل؟ ويستغربون كيف

انحدرت البلاد إلى الهاوية! على أية حال، كانت تلك نهاية أبي. خسر كل شيء: وظيفته، وامتيازاته، وألقابه الأدبية. كل ما أفنى نصف قرن في بنائه. الشيء الوحيد الذي تركوه له هو الشقة، المكدسة بكتب النقد الماركسي المستغلقة. لكنه اضطر لبيعها أيضًا في النهاية".

كان أسوأ ما في الأمر أن كل الثوابت التي أسس عليها حياته تداعت دفعة واحدة. كنت في المدرسة الثانوية حينها، ولم أكن طالبًا متحمسًا بشكل خاص. كنت أدبر أموري، وأجد أعمالاً متفرقة؛ أشتري أجهزة التلفاز والمسجلات وأعيد بيعها، وأشياء من هذا القبيل. وسرعان ما أصبحت أجني أكثر من أبي. وبدأ الناس يطرقون الباب ويسألون عني، لا عنه. كنت في السادسة عشرة ولا أفقه شيئًا، لكنني كنت أكثر تكيفًا مع العالم الجديد منه، هو الذي كان يظن أنه يعلم كل شيء.

في النهاية، انقطع عن مغادرة المنزل. كانت بقايا أخرى من العهد السوفيتي تزوره من حين لآخر، لكنهم جميعًا كانوا يشعرون بنوع من الخزي، حتى من ذكرياتهم. فكانوا يجلسون هناك في صمت، كأطلال معبد مهجور.

وحين داهمه المرض، كان ذلك بمثابة خلاص له. كان يقول:

- "أخيرًا لدي سبب وجيه للبقاء في الفراش".

كان يستلقي بهدوء، يدخن غليونه ويعيد قراءة الكلاسيكيات: غوغول، بوشكين، تولستوي.

خلال تلك الفترة، بدا وكأن روحه خفّت، كمن أُزيح عن كاهله حمل ثقيل. قد يبدو الأمر متناقضًا، لكن المرض ليس بالضرورة حالة تدعو للتجهم. الجدية، والمواظبة، والعمل الشاق؛ تلك امتيازات الأصحاء. أما المحتضرون فلم يعد لديهم ما يفعلونه، وبوسعهم الاستمتاع بالأيام العابرة. كان هذا حال أبي على أية حال. طموحه أخذ أخيرًا قيلولة، كطفل تعب من اللعب. صار لديه

وقت للتنزه عند «برك البطريرك»، ليتشمس، ليقرأ كتابًا. وليس من نوع الكتب التي كان يقرؤها لمحاضراته، بل كتابًا جميلاً وعديم الفائدة تمامًا.

في نهاية المطاف، استلزم الأمر نقله إلى المستشفى، في عيادة الكرملين. كان ذلك لا يزال امتيازًا، لكن الزمن تغير، ولم يكن هو النجم في الجناح، ولا الشخص الذي تتجه إليه الأنظار، هو الشبح البائس من الماضي. لا، كانت النجمة امرأة ضخمة وسوقية تتحدث بلهجة ساراتوف، وتثرثر طوال اليوم عن إجازتها في سردينيا، ورحلات تسوقها في لندن، وسهراتها في مونت كارلو. كان الممرضون والمرضى الآخرون مأخوذين بها، يبتسمون ببلاهة لوصف طائراتها الخاصة ومسابح المياه المالحة. وكانت مصداقية كل ما تقوله تؤكدها المجوهرات المتدلية من عنقها وأذنيها، وساعة كارتييه، وأحدث الأجهزة الإلكترونية التي كانت تستعرضها بلا مبالاة.

تقبّل أبي الأمر برحابة صدر. ولأول مرة في حياته، بدا غير مبالٍ تمامًا برأي العالم فيه. وكأن قربه من الموت منحه شعورًا بالسيطرة على حياته لم يمتلكه من قبل. بذل الأطباء والممرضون جهودًا مضنية لإقناعه بأنه لن يموت، وأنه سيعود لسابق عهده في غضون أسابيع. لكنه كان يعلم أن ذلك غير صحيح، وكان يستمد من ذلك كبرياءً معينًا. قال لي:

- "إنهم يشعرون بالخجل ويودون إخفاء الحقيقة عني. لكنني أعلم أنني أوشكت على الموت، وهل تعلم؟ أنا مستعد، أكثر استعدادًا مما كنت أظن".

مع اقترابه من نهاية حياته، بدا وكأنه يقف شامخًا لأول مرة، مُظهراً قدرًا من الشجاعة لم يكن هو نفسه يعلم أنه يمتلكها. المحادثات الحقيقية الوحيدة التي خضناها كانت في تلك الفترة. كنت أجلس على يمينه، على أحد تلك الكراسي البلاستيكية الكريهة في المستشفى، ونقضي فترات الظهيرة بأكملها نناقش التاريخ والفلسفة، إلى جانب أمور تافهة، وماضينا المشترك، وكتب

جدي الفرنسية، تمامًا كما لو كنا في الريف، ممددين على الكراسي الجلدية في الكوخ الخشبي (الإزبا)، ورائحة حطب البتولا تعبق في الغرفة. كان يتحدث بنبرة لم أسمعها منه من قبل؛ لاذعة، ساخرة، وزاهدة بعض الشيء. كان متألقًا، وبدت فيه روح السخرية التي ورثها عن جدي. لم يبدُ ممكناً أنه استطاع إخفاء هذا الجانب من شخصيته لكل هذا الوقت. فجأة، بدت مسيرته كبيروقراطي في مجال المعرفة مأساوية وعبثية في آن واحد.

ثم، ذات يوم، مات. لم تكن الجنازة حدثًا مهيبًا بأي حال. أربعة أرواح بائسة سارت خلف النعش في سيارة مهشمّة، بينما كان الأثرياء الجدد في سيارات المرسيدس يمرقون بجوارنا بأقصى سرعة.

خطر لي فجأة أن الرجل عاش حياته كلها، في الأساس، ليحظى بجنازة فاخرة؛ كلمات تأبين، احترام الشعب، تحية عسكرية، إكليل زهور من الأمين العام للحزب، موكب من كبار الشخصيات، ونعي في صحيفة «برافدا». لم ينل شيئًا من ذلك. ولكن حتى لو ناله، كيف كان ذلك ليغير من الأمر شيئًا؟ ليس لديك فكرة كم من الناس يعيشون بهذه الطريقة؛ لكي يحظوا بجنازة فاخرة. البعض ينجح، والآخر يفشل. ولكن ما الفرق؟

هذا ليس ما أريده. فكرتُ في ذلك حينها، وما زلت أفكر فيه الآن. لذا، بعد موت أبي، نظرتُ إلى المسار الذي رسمه لي، وسلكتُ الاتجاه المعاكس.

(5)

في مقتبل العمر، لا يكفيك مجرد الإقدام على الفعل، بل تشعر بحاجة ملحة لتبريره. كان أبي يمني نفسه بأن يراني دبلوماسياً؛ رسم لي في مخيلته صورة وأنا أجلس في صالون فاخر بفيينا أو باريس، مستغرقاً بسعادة في تشريح الأدب الروسي بصحبة سفير ذي شعر فضي. لكن رغبتي كانت مغايرة تماماً؛ أردت الهروب - بغير رجعة - من عالم الأهداف والواجبات والخطط المرسومة. لذا التحقت بأكاديمية موسكو للفنون المسرحية، وانخرطت في تلك الحياة الفوضوية التي يعيشها طلاب الدراما.

في مطلع التسعينيات، كانت موسكو مدينة مكهربة تسري فيها طاقة غريبة. كنا قد أتممنا العشرين للتو، وعالم جديد ينفتح أمامنا، في اللحظة التي شعرنا فيها أخيراً بالقوة الكافية لغزوه. شوارع موسكو، المباني الستالينية العملاقة، الأرصفة الموحلة، وأضواء المترو السقفية الساطعة.. كلها بقيت كما هي، إلا أن شيئاً ما جعل كل ذلك يبدو فجأة وكأنه يسبح داخل فقاعة من الطاقة. تملّكنا حماس جارف لدرجة أننا لم نكن ننام سوى ثلاث أو أربع ساعات في الليلة. ما زلت أذكر دروسي في الأكاديمية؛ ولأول مرة، كنا نحضر عروضاً غربية، بل وسنحت لنا فرصة لقاء الممثلين والمخرجين، لتمتد نقاشاتنا معهم أحياناً حتى بزوغ الفجر.

تملكنا يقين راسخ بأن دورنا قد حان لإعادة تشكيل المجتمع من جذوره، وكنا أسرى لتلك الفكرة الروسية التي ترى الفن أبعد من مجرد ثقافة؛ بل نبوءة، وحقيقة، وبناءً اجتماعياً. لقد جئنا من عالم الهمس والحديث الخافت، حيث لم يجرؤ على الكلام علانية سوى المجانين أو الأبطال. لم نكن قد أدركنا بعد أن الكلمات لا وزن لها، وأن العبرة بالفعل وحده. في تلك السنوات، كانت الدوريات المعنية بالأدب والفن تبيع ملايين النسخ. لم يصدق الناس أنهم باتوا أخيراً قادرين على قراءة كل تلك الكلمات بحرية ودون رقابة، فكان نهمهم للقراءة لا حدود له. لك أن تتخيل مشاعرنا ونحن نعيش أسطورة "الفن كخلاص" واقعاً ملموساً. حتى أنا، في تلك المرحلة، تظاهرت بالإيمان بذلك. أنت تعرف طبيعة الشباب؛ يأخذون كل شيء بجدية مفرطة.. إنها لعنة الصبا.

ثم ظهرت كسينيا. التقيتها في حفلة صاخبة، من ذلك النوع الذي ينتهي بنصف المدعوين يتبادلون اللكمات، والنصف الآخر يختلسون القبلات في الحمام. ووسط كل تلك المعمعة، كانت تجلس شابة فاتنة، تلتزم سكوناً تاماً وكأنها تهم ببدء لعبة طاولة في ساحة هادئة بجزيرة يونانية.

اقتربت منها متذرعاً بحجة ما، وشرعت في سرد قصة ظننتها وقتذاك طريفة للغاية. ابتسمت هي في حالمية، ثم قالت بقسوة قاطعة:

- "يا له من أمر مدهش حقاً! هل لديك قصص أخرى على هذا المنوال؟"

ما كان يثير الارتباك عند الاقتراب منها هو خلوّها من أي عيب؛ لم تكن هناك شامة واحدة تكسر حدة التناظر المثالي في وجهها، إلا إذا اعتبرت نظرة عينيها عيباً، فقد كانتا تشعان بضوء يكاد يكون بنفسجياً.

أجبتها:

- "كلا، كانت هذه أفضل ما لدي!"

رقت ابتسامتها بصورة لا تكاد تُلحظ. وبطريقة ما، كنت قد أجريت اتصالي الأول بكوكب "كسينيا".

كان والداها من "الهيبيز" – نعم، كان لدينا مثلهم هنا أيضاً. أمها من إستونيا، حيث يصل بث التلفزيون الفنلندي، فكانت أحدث صيحات الموضة تصلهم أولاً بأول. التقت بموسيقي في حفل قرب سمولينسك؛ حدث الانسجام بينهما، وحُمل بكسينيا. قيل لها دائماً إنها "طفلة حب". بعدها سلك كل من الوالدين طريقه، ونشأت كسينيا تابعة لأمها، تتنقلان بالسيارات العابرة من مكان لآخر، ومن مخيم لمهرجان، ومن مدرسة لأخرى. كان الناس ينظرون إليهما باستهجان، فما كان منهما إلا أن اتخذتا من "المنطق السليم" عدواً لهما. لم تعرف الفتاة الاستقرار إلا حين كانت أمها تودعها لدى جديها رغبة في التفرغ لنزواتها. خلّفت هذه التنشئة لدى كسينيا حساً عالياً باللامبالاة، وعادات بدوية متأصلة، وتسامحاً يشوبه الملل مع كل أنواع التجاوزات.

كانت تعبر أيامها وكأنها تتزلج على الجليد، تقدح الشرر أحياناً ببراعة يعجز عنها البشر العاديون. ولكن لأنها لا تجد متنفسها إلا في المواقف المشحونة، كانت الظروف الرتيبة كفيلة بأن تفقدها صوابها. ورغم ذكائها، كانت أكسل وأكثر تشتتاً من أن تتبع مساراً منطقياً، ومع ذلك، كان حدسها المتقد يقودها أحياناً إلى قلب مشكلة استعصت على الجميع. وفي أحيان أخرى، كانت تغرق بلا أمل في مسألة حسابية تبدو بديهية لطفل في الرابعة. كانت تملك موهبة النظر في عيني الشخص ورؤية كل ما مر به، لكن تمركزها حول ذاتها كان ينسيها ما رأت بسرعة، وكأنها لم ترَ شيئاً. الحياة بمفهومها لا علاقة لها ببناء مستقبل مهني أو وضع خطط، وكانت ترى أن الرجال يتحولون تلقائياً إلى كائنات مملة حين يتحدثون عن المستقبل. مثلها الأعلى كان قضاء الظهيرة على أريكة بين القراءة والنوم، لكنها كانت تنفجر أحياناً في

زوبعة من النشاط؛ فتنظم حفلات ضخمة أو رحلات استكشافية في البراري، أو تعرض سلسلة مسرحيات، أو تتعلم اليابانية. كانت تنجح في كل ما تمسه بفضل مواهبها المتعددة، لكنها لم توظف تلك المواهب طويلاً قط.

خُيِّل لي أحياناً أنني لو عشت ألف عام، فلن ألتقي شخصاً آخر مثل كسينيا. لكن العيش معها لم يكن هيناً؛ فكلما افترقنا، ولو لفترة وجيزة، كان علينا أن نبدأ كل شيء من الصفر. كانت تتفحصني بحثاً عن أدنى ضعف - خفضة عين، أثر عرق على جبيني، أو أقل تردد في صوتي. كانت كالنمرة، متأهبة للانقضاض عند أول بادرة خوف. وبينما تبتسم عيناها، كانت شفتاها ترتجفان غضباً. ثم يتغير لون عينيها؛ من الرمادي المعتاد، تزدادان بريقاً حتى تكادا تصبحان بيضاوين. كانت تلك إشارة العاصفة الوشيكة. عندها تبدأ في مراجعة أحداث الساعات الماضية بجنون بحثاً عن سبب، وغالباً لا تجد شيئاً؛ فالأزمة قد يقدح زنادها أي شيء: انطباع عابر، ذكرى لحدث مر عليه شهور، أو مجرد نوبة ملل عارضة.

كان السيناريو يتكرر دائماً: تضيق عينا كسينيا حتى تصبحا شقين، ثم تنهال عليك بوحشية، نافثة كل الغضب العاجز المتراكم بداخلها منذ ولادتها. ولا يهم كيف تتصرف؛ فإن لزمت الصمت، استمر سيل الإهانات وتعاظم، متغذياً على سلبيتك كدليل قاطع على جبنك. وإن حاولت الرد، أو بادلتها الهجوم في النهاية، فالنتيجة واحدة؛ إذ تستخدم كسينيا كلماتك وقوداً لمزيد من الشتائم. ثم، كعاصفة مطرية، يتوقف الغضب فجأة، وتنسى كسينيا حتى ما قالته للتو. تلاحظ انزعاجك فتسألك عما بك. وأحياناً تتكرم عليك بعناق. كانت هي من يحتاج للمواساة، طفلة محطمة لا شيء يمكنه طمأنتها بالكامل.

كان الرعب الذي تثيره كسينيا يعود في المقام الأول إلى استحالة التنبؤ بتصرفاتها. ومثل الطغاة العظماء عبر التاريخ، أدركت كسينيا بالفطرة أن لا شيء يبعث الخوف أكثر من العقاب العشوائي. فإذا كان العقاب يضرب بغتة

وبلا سبب ظاهر، سيظل الرعايا في حالة استنفار دائم. أما من يعلم أن عليه اتباع قواعد محددة ليأمن، فسينتهي به المطاف لتطوير شعور بالأمان قد يدفعه للتمرد. بينما الخاضع لحالة دائمة من عدم اليقين يكون عرضة للذعر في أي لحظة، ولا تخطر فكرة التمرد بباله، فهو مشغول للغاية باتقاء الصواعق التي قد تهبط عليه في أي حين دون سابق إنذار.

تلك كانت سطوة كسينيا عليّ. نمر أسود، متقلب وبلا رحمة، لكنها في الوقت ذاته مجردة تماماً من الدفاعات. كانت غيرتها تعذبها، ودائماً ما تكون متأهبة لكشف قناعك، قائلة:

- "أنت لست كما تدعي، أنت وضيع النفس أيضاً، وخائن مثل البقية".

لكن، وللمفارقة الغريبة، سارت الأمور في اتجاه آخر تماماً.

(6)

مع مرور الوقت، تقوقعنا أنا وكسينيا داخل فقاعتنا الخاصة. لم يكن العالم الخارجي بالنسبة لنا سوى مرآة تزيد عزلتنا وضوحًا. لكن، وعلى مرمى حجر منا، كانت ثمة مدينة تمور بالفرص. في كل يوم، كان زميل دراسة سابق يطل علينا بفكرة لمشروع تجاري ما. ورغم سخافة معظم تلك الأفكار، إلا أنها كانت تنجح. وقبل أن يرتد إليك طرفك، ينتقل زميلك من ذلك الدكان حيث كان يرتق أحذيته، إلى طائرة «فالكون» خاصة اشتراها ليصطحب عائلته للتزلج في جبال الألب. ذات يوم، يحضر صديق إلى الاجتماع على دراجة جده الهوائية، وفي اليوم التالي يترجل من سيارة «بنتلي» مصفحة تحيط به كوكبة من الحراس.

هذا، تقريبًا، ما حدث لشخص كنت أصادفه أحيانًا حين أغادر القوقعة التي نسجتها حولي لألتقي بقلة من أصدقاء المدرسة الثانوية، الذين أعادوا تشكيل أنفسهم مؤخرًا كرجال أعمال. كان ميخائيل زعيم «الشبيبة الشيوعية» في كلية الهندسة، لكن هذا لا يعني أنه كان مجرد موظف حزبي بيروقراطي. ففي مرحلته الأخيرة، لم يكن «الكومسومول» يجتذب سوى أكثر الرجال تهكمًا وطموحًا، أولئك الذين لا يردعهم رادع، والذين كان همهم الوحيد جمع المال. في أواخر الثمانينيات، كان النوع الوحيد المسموح به من الشركات في الاتحاد السوفيتي هو التعاونيات الطلابية، وقد غدت هذه

التعاونيات بمثابة مدرسة إدارة الأعمال للرأسمالية الروسية. ومن هناك تخرج معظم أفراد «الأوليغارشية» لدينا.

كان ميخائيل ينتمي إلى تلك القبيلة من الجسورين. ورغم محاولاته المتكررة لشرح الأمر لي، لم أفهم قط ما الذي كان يفعله بالضبط. لقد اهتدى إلى طريقة لاقتطاع عمولة من المدفوعات التي تمر بين الشركات المملوكة للدولة. ببساطة، ولا أدري كيف تمامًا، نصب نفسه وسيطًا يسهل التبادلات، يقترض المال من البعض ويقرضه لآخرين. كان أشبه بمصرف صغير، قبل سنوات من تشريع المصارف الحقيقية.

غني عن القول إن أنشطة ميخائيل لم تكن تمت بصلة لأنشطة محاسب سويسري. فقد أخذ رأس المال الذي وصل إليه ووظفه في شتى أنواع التجارة المشبوهة. استورد الحواسيب، وصنع الهدايا التذكارية للسياح، وافتتح مصانع لسراويل الجينز المبيضة. أخبرني ذات مرة أنه وقع على شحنة من زجاجات الكونياك؛ وحين لم يجد مشتريًا بسعر خمسين دولارًا للزجاجة، رفع سعر الوحدة إلى خمسمائة دولار، فتدافع الناس ليخلصوه منها.

كانت موسكو هكذا في تلك الأيام. وكان ميخائيل في أوج تألقه. انتقل في وقت وجيز من ارتداء السترات المترهلة التي تبيعها المتاجر السوفيتية، إلى بدلات «هوغو بوس» الأرجوانية الداكنة، ثم إلى الملابس المفصلة خصيصًا في «سافيل رو». وبدأ وجهه الصبياني ونظارته يظهران في المجلات المصقولة التي توثق حياة النخبة الموسكوفية النهمة.

كنا نجتمع من وقت لآخر في حانة فندق «راديسون»، الفندق الفاخر الوحيد في العاصمة آنذاك. كنت أستمع إلى مغامراته، وأنا أفكر بشكل غامض أنني قد أستخدمها يومًا ما في مسرحية كنت أعتزم كتابتها عن أناس من طينته. ذات ليلة، مرت كسينيا لتقلني ونحن في طريقنا إلى مكان ما. كانت تلك المرة الأولى التي تلتقي فيها بميخائيل. وبعد التعارف المعتاد، حدقت فيه

للحظة: في نظرة الرضا الصغيرة تلك، وعينيه الثاقبتين خلف النظارة التيتانيوم الدقيقة، وبدلته المكونة من ثلاث قطع، في تباين صارخ مع سترتي الرياضية الرثة.

سألته بصراحة مباشرة:

- "من أين ابتعت ربطة العنق البشعة هذه؟"

كان حريًا بي أن أدرك في تلك اللحظة، ومن تبادلهما الأول للكلام، أن قدري قد حُسم. وأن كسينيا ستختار ميخائيل، بسوقيته وطاقته، بساعاته المعقدة وأحذيته الإنجليزية. أما هو فقد عرف ذلك على الفور. رد بابتسامة ساخرة وذكر اسم متجر في نابولي على ما أظن. وكانت عيناه تقولان:

سآخذك إلى هناك حالما تصبحين ملكي.

رأيت المشهد برمته. رأيته منذ البداية. لكنني لزمن طويل رفضت التصديق. كانت كسينيا إلهتي المتقلبة والانتقامية. عشت في رعب من تقلبات مزاجها، ولم يخطر ببالي قط أن حقيبة يد من جلد التمساح وجناحًا في فندق «كريلون» كانا كل ما يلزم لكسب ودها. كنت كل يوم أضع عند قدميها اللآلئ التي استخرجتها من تنقيبي المضني في عالم الشعر، غير مدرك أن سوارًا من الماس كان سيكون أوقع أثرًا وأطول بقاءً. من الغريب أن نلحظ مدى الجهد الذي يبذله عقلنا أحيانًا لحجب الحقيقة عنا. الأدلة تكون ماثلة أمام أعيننا، لكن عقولنا ترفض تجميع القطع.

بعد هذا اللقاء الأول، شرع ميخائيل في زيارة منزلنا بانتظام. كان يأتي وحيدًا أو بصحبة واحدة من سلسلة من الشابات اللواتي انتُقين من زوايا الإمبراطورية الأربع لبشرتهن المضيئة وملامحهن المتناسقة. كنا نتكدس جميعًا في سيارته «البنتلي»، أو «الجاغوار»، أو «المرسيدس» الضخمة، ليأخذنا إلى أفضل مطعم جورجي في المدينة. أو يطرق بابنا ومعه نادلان، يفرشان المحار والكافيار على طاولة شقتنا الصغيرة في الضواحي. وذات يوم أحضر معه طاهي

«سوشي»، جيء به جوًا مباشرة من اليابان، ليقضي الأمسية في تقطيع التونة الدهنية والسمك أصفر الذيل في مساحة مطبخنا الضيقة التي لا تتجاوز عشرة أقدام مربعة.

كان ميخائيل يلقي بكل هذه العجائب عند أقدامنا بتلك الهيئة المشوبة بالذنب لتاجر يوقد شمعة في كنيسة. وطوال الوقت، ظننت أن ذلك يعكس احترامًا متبقيًا للفن الذي نذرت أنا وكسينيا حياتنا له - كما لو كانت الثقافة في تلك السنوات لا تزال تمارس أدنى سلطة على العالم الحقيقي. كنت مخطئًا بالطبع، وكان ميخائيل يعلم ذلك. تظاهر بالإعجاب بآثارنا الثقافية المثيرة للشفقة، تمامًا كما تعجب برسومات طفل. كنت أعمى، لم ألحظ قط التعالي الكامن خلف إطراءاته المتدفقة. أما كسينيا، وكعادتها، فقد لاحظت كل شيء، وآلمها ذلك. كانت قد بدأت تشك بالفعل في أن الثقافة بدأت تغدو حلية رخيصة الثمن، أداة أخرى يشتريها سادة الكون لأنفسهم دون أدنى تفكير.

جاء وصول ميخائيل، وموقفه، ليؤكدا هذا الظن. أثار الأمر حفيظتها في البداية. التقطت فورًا التهديد الوجودي الذي يمثله ميخائيل - ليس فقط لنا كزوجين، بل لعالمنا بأسره. الأشياء الصغيرة والمتواضعة التي صنعناها، الزخارف المخطط لها بعناية، كلها كانت متجهة لتجرفها أحلام وطموحات الملايين من الرجال والنساء مجهولي الهوية على تيارات روسيا الجديدة. كنا أشبه بالمهراجات الذين ينعمون برفاهية الفيلة المدربة والقمصان المطرزة، وشراب الكرز وشراب بتلات الورد، بينما كانت السفن المحملة بسيارات السباق والطائرات الخاصة، وعطلات التزلج المروحية والفنادق ذات الخمس نجوم، تلوح بالفعل في الأفق. بكتبنا الأمريكية وعلاقاتنا في برلين، خِلنا أنفسنا في طليعة الحركة، بينما كنا في الحقيقة آخر المتسكعِينَ الرثين الذين ما زالوا يتبعون نجمًا ميتًا؛ نجم آبائنا. لقد احتقرناهم بشدة لجبنهم، لكنهم نجحوا في توريثنا شغفهم بالكتب والأفكار، وبالنقاشات التي لا تنتهي حول كليهما.

كان ميخائيل يدرك كل هذا تمام الإدراك. كان ابنًا بارًا لذلك العالم المصقول والمتألق، عالم المال، الذي كان يعرف قوته النارية، ولم يكن ثمة شيء ليعيده إلى الوراء. لكنه كان راغبًا في كسينيا، لذا ارتضى التسكع في صحبتنا، بين أطلال مدينة الموتى.

مع مرور الأشهر، باتت كسينيا أكثر تقبلاً لقرابينه. لم تناقش الأمر معي صراحة، لكنني استشعرت توترها المتزايد. عيوبي، وافتقاري للحزم، تلك الصفات التي كانت تعزوها في البداية لضرب من الرومانسية القديمة، باتت تشعر بها الآن كقيد يعيق نموها ويسجنها في عالم ضيق، في الوقت الذي كانت تود فيه اغتنام إمكانيات العصر الجديد بالكامل. كان ميخائيل يظهر كل يوم تقريبًا بهدايا جديدة وعروض جديدة. ورغم محاولته الحفاظ على موقف التواضع المحترم الذي تبناه حين تسلل إلى حياتنا، لم أستطع إلا أن ألاحظ أن أسلوبه صار أكثر ثقة بالنفس. المحاضرات، والحفلات الموسيقية، والنقاشات الليلية التي ميزت المرحلة الأولى من علاقتنا اختفت تقريبًا، لتحل محلها أنشطة ذات ثقل مالي أكبر، وحيث كان يصعب عليّ الحفاظ على مكانة مقبولة. كانت هناك افتتاحات لمعارض فنية، وحفلات إطلاق للمراقص، وعشاء في مطعم «الشمس البيضاء» أو «الإرميتاج»، وجولات تسوق مسائية؛ حدث يتلو الآخر بسرعة، وبدأت أعاني مشكلة حقيقية مع الملل القاتل لكل هذا التنقل العبثي.

في غضون ذلك، كانت كسينيا تزداد سكرًا بنمط حياة ميخائيل، إلى الحد الذي صار يصعب علينا فيه رفض حتى أتفه النزهات. وكل محاولاتي لإبطاء وتيرة لقاءاتنا كانت تقابل بملاحظات ساخرة وشجارات غاضبة.

كانت كسينيا تقول وهي تزم شفتيها باشمئزاز:

- "فاديا لم يحب الخروج قط. كل ما يحبه هو التسكع في المنزل".

وفي الحقيقة، كانت محقة. وللأسف، لم تكن كسينيا نقية بما يكفي، ولا فاسدة بما يكفي لتفهمني.

أذكر أنني استيقظت ذات ليلة ونظرت إليها طويلاً وهي راقدة بجواري، وشعرت أنها قد رحلت بالفعل، إلى مسافة بعيدة جدًا. إلى مكان لن تعود منه إلا لتلقي ملاحظة محتقرة أخرى. رغبت بشدة أن تعود. انظري! إنه أنا! ألا ترين؟ لكن ما الذي كان بيدي لأقدمه لتلك الإلهة المنتقمة الممددة بجانبي، تتنفس بهدوء وتعيد تجميع قواها لمعركة الصباح؟ أمضيت حياتي أدون الملاحظات، كمن يستعد لامتحان لم يحن موعده قط. شعرت بالإنهاك، ورغم ذلك لم أكن قد أنجزت شيئًا. كانت الأفكار تلمع في ذهني بكثرة جعلت اتخاذ أي إجراء محدد يبدو مثيرًا للضحك. كل يوم كانت مخيلتي تقترح عليّ خمس عشرة حياة مختلفة، لكن لم يثبت نفع أي شيء فعلته في إحداها للأخرى. لذا، فإن المرفأ الوحيد الذي بدا جديرًا بطموحاتي هو الأريكة المخملية الخضراء في شقتنا. في بعض الأحيان، كنت أنجح في إقناع نفسي بأن كسينيا تعرف وترى عظمتي. لكن يومًا تلو الآخر، كنت أرى أن ما اتخذ شكل السخرية في البداية، كان يتحول تدريجيًا إلى احتقار.

أعادني ذلك كله إلى طفولتي، إلى تلك الأيام الخريفية في الريف حين كان الضباب كثيفًا لدرجة أنني لا أرى يدي أمام وجهي. كان جدي يقول:

- "اذهب وابحث عن الشمس".

فكنت أخرج إلى الغابة وأتسلق تلاً يطل على الوادي. وبينما أمشي، كان الجو يزداد إشراقًا فإشراقًا، حتى تخترق الشمس، بمعجزة ما، طبقات الضباب الأبيض لتكشف عن عالم تتلألأ فيه الأشجار والشجيرات المكسوة بالصقيع كالماس. كنت أجمع بضعة أغصان مغطاة بالجواهر لأعود بها إلى المنزل، لكن بطريقة ما، كان الجليد يذوب في طريق العودة، ولا أصل إلا وأنا أحمل باقة سخيفة من الأغصان البنية. ليس عليّ إثبات شيء، قلت لنفسي. لكنني كنت

أكذب. كنت أهرب. وكانت كسينيا تعلم ذلك. توقي للسلام كان صادقًا تمامًا، لكنني حتى تلك اللحظة لم أفعل شيئًا لأستحقه.

فجأة فتحت كسينيا عينيها الرماديتين، تراقبني. لم تبدِ أدنى دهشة، وكأنه من الطبيعي تمامًا أن تجدني منحنيًا فوقها وهي نائمة، كناسر في الفجر. ولم تبدِ كذلك أدنى أثر للود. أنتِ أقوى مني، فكرتُ في تلك اللحظة، لأنكِ لا تحبينني. بالنسبة لها، كانت معاناتي مجرد إزعاج آخر.

***

في صباح أحد أيام السبت، كنا في الريف خارج موسكو. نظم ميخائيل نزهة إلى «داتشا» (منزل ريفي) قديمة كان يخطط لشرائها. أحضر معه أحدث غنائمه، أظن أن اسمها كان مارلين. كانت فرنسية، تعمل لصندوق استثماري كبير، وجذابة، وكانت أيضًا أقل بهرجة بكثير من الجميلات الشركسيات اللواتي كان ميخائيل يجرهن خلفه عادة. بدت العلاقة أكثر جدية من المعتاد. هي، على أية حال، بدت معتقدة ذلك.

المشكلة في ذلك اليوم أن مارلين لم تكن معتادة حقًا على الطرق في الريف الروسي. ولا على أسلوب ميخائيل «القوزاقي» في القيادة. فبعد نصف ساعة من الأكروبات على الطرق الترابية قرب فلاديمير، أصيبت بالغثيان. ورغم اعتراضاته، أجبرت ميخائيل على التوقف وتسليم مقود سيارة «البورش» لي، مهددة بالعودة إلى موسكو عبر "الأوتوستوب" إن لم يفعل. حاولت أنا أيضًا إقناعها بالعدول عن ذلك، لكنني فشلت، وانتهى بي المطاف جالسًا في مقعد السائق وبجانبي مارلين الغائبة عن الوعي، بينما استقر ميخائيل وكسينيا في المقعد الخلفي.

ولأنني لم أعتد قيادة سيارة بمائة ألف دولار على طرق حصوية مشكوك في أمرها، كنت متوترًا قليلاً. وكنت غاضبًا من نفسي لأنني وضعت نفسي

مجددًا، للمرة الألف، في موقف أظهر فيه بشكل سيء مقارنة بميخائيل المقدام. راح يسخر مني:

- "حسنًا يا فاديا، أرنا ما عندك. أراهن أنه في غضون خمس دقائق، ستتوسل مارلين إليّ لأتسلم القيادة مجددًا".

قالت كسينيا، وهي تتظاهر بالدفاع عني فقط:

- "توقف يا ميخائيل. فاديا يقود بشكل جيد تمامًا. كان عليك رؤيته وهو يقود جرار جده".

- "تقصدين عربة جده التي يجرها حصان".

كانا يستمتعان بوقتهما في الخلف. في تلك الأثناء، كانت «البورش» تتحرك دون قناعة كبيرة في الاتجاه الذي أحدده لها. جانب ما من آلية عمل ناقل الحركة لم يتضح لي تمامًا، فحللت المعضلة بالبقاء على الغيار الرابع. وفي لحظة معينة احتجت لتعديل مرآة الرؤية الخلفية. وبينما كنت أغير الزاوية بخرق، رأيت ما يجري في المقعد الخلفي. كانت يد ميخائيل تستقر على ركبة كسينيا. جاثمة هناك بلا حراك، كسرطان ثلجي عملاق.

منحني ذلك شعورًا غريبًا. يصعب شرحه، لكنني شعرت بصدمة المفاجأة وتأكيدًا لشيء كنت أعرفه سلفًا في آن واحد. نوع من الرضا، تقريبًا. على أية حال، لم أبدِ شيئًا. واصلت القيادة واستكملت بقية اليوم وكأن شيئًا لم يحدث. وحين عدنا إلى المنزل، أخبرت كسينيا أنني راحل. حاولت افتعال مشهد درامي، وإن أسعفتني الذاكرة، فقد كسرت كأسًا أو اثنين. لكنها في أعماقها كانت تشعر بالارتياح مثلي تمامًا، وإن كان لأسباب مختلفة.

(7)

انتقلتُ إلى غرفة صغيرة في الطابق العلوي من مبنى شعبي متواضع، كان صديق معماري قد أعاد تصميمها لتغدو أشبه بكبسولة بيضاء معلقة فوق مستنقع موسكو المضطرب. توقّعتُ أن أعيش فترة من المعاناة، لكن على العكس، شعرتُ مجدداً بالخفة والقوة. يبدو أن موهبتي في اجترار أحزان الحب كانت أقل مما ظننت. وكما قيل ذات مرة: لا توجد امرأة أغلى من الحقيقة التي تكشفها لنا حين تجعلنا نعاني.

أدركتُ حينها، بما لا يدع مجالاً للشك، أن المسرح لن يشبع أبداً ذلك الطموح الذي أيقظه رحيل كسينيا في داخلي. بتُ أنفر من الحزن القاتل الذي يكتنف الأدباء، وعجزهم عن صنع الفرح، وعدم صلاحيتهم للواقع، والأسى العميق الذي يلاحقهم أينما حلوا، ناهيك عن مناحاتهم المستمرة على ضياع الثقافة ومحاولاتهم المثيرة للشفقة لإنقاذ ما تبقى منها. هذا دون الحديث عن "الحياة الثقافية" ذاتها، تلك التي قوامها الأكاديميات، والجوائز، والمؤامرات الصغيرة التي يحيكها أنصاف الموهوبين للحفاظ على وهم البقاء، في غياب أي موهبة حقيقية.

أردتُ أن أكون جزءاً من عصري، لا مجرد معلّق عليه من الهوامش. وكلما ابتعدتُ عن رفوف المكتبات، ازداد يقيني بقدرتي على اقتناص أي فرصة تلوح لي. كنتُ فقط بحاجة للعثور على اللحظة المناسبة لأُركّز عليها حياتي بأسرها.

للمرة الأولى، سمحتُ لنفسي بالانجراف مع التيار المظلم الذي كان يجتاح المدينة آنذاك. تعرّفتُ على جاري ماكسيم، رجل إعلانات يشبه "غروتشو ماركس"، يرتدي دائماً بدلات إيطالية فاخرة وتحيط به نساء مذهلات. قال لي مرة:

- "قُبحي يؤخرني أسبوعاً تقريباً، أو عشرة أيام على الأكثر".

كان قد أتقن فن إغراق ضحاياه بسيل متواصل من الاهتمامات الصغيرة. ولأن النساء اعتدن على أساليب المغازلة السريعة، كن يؤخذن تماماً على حين غرة. كان يتمتع بخفة ظل، خاصة حين يسخر من نفسه؛ والسخرية من الذات كانت سمة نادرة في دوائرنا.

والنتيجة أن فريسة ماكسيم، بعد فترة وجيزة، لا تخضع لإلحاحه فحسب، بل تقع في حبه أيضاً. وبمجرد تجاوز الحاجز الجسدي، يبدأن في الاعتماد على خياله وذكائه ورجاحة عقله. كن يخمّن أن وراء وداعته شخصية قوية، عصية على المنال أكثر مما تبدو. وفي النهاية تنقلب الأدوار؛ فتجد النساء اللواتي تودد إليهن ماكسيم أنفسهن في موضع الملاحِق، يغمرنه بالاهتمام ويستخدمن كل وسيلة لاختراق سر لا مبالاته اللطيفة. في الواقع، لم يكن ماكسيم يستغل هذا الوضع. فحتى حين تتبدل الأدوار، كان يظل كريماً مع المحاربات اللواتي ألقين أسلحتهن عند قدميه. لكن ذلك بالنسبة له كان إشارة الانطلاق لغزو جديد، وهو ما يؤدي حتماً إلى سلسلة من الانفجارات العاطفية المدمرة.

استفدتُ أنا من دوامة النساء التي لا تهدأ حوله. فمنذ انفصالي عن كسينيا، كنتُ بحاجة لنظرة جديدة للحياة، وكانت موسكو في منتصف التسعينيات المكان الأمثل لذلك. كان بإمكانك أن تخرج ظهراً لشراء علبة سجائر، فتصادف صديقاً في حالة من الهياج الغريب، لتستيقظ بعد يومين في شاليه بمنتجع كورشوفيل، نصف عارٍ، ومحاطاً بحسناوات نائمات، دون أن

تملك أدنى فكرة عن كيفية وصولك إلى هناك. أو قد تذهب لحفل خاص في نادٍ للتعري، وتتبادل الحديث مع غريب غارق في "الفودكا" حتى أذنيه، لتجد نفسك في اليوم التالي تقود حملة إعلانية ممولة بملايين الروبلات.

لطالما كان "اللامتوقع" إحدى السمات العظيمة للحياة الروسية، لكنه بلغ ذروته في تلك الحقبة. تخيل كل أولئك الشباب، رجالاً ونساءً، المتفجرين بالحياة، وكثير منهم عباقرة، كانوا يظنون أنهم محكومون بحياة رمادية كئيبة، فإذا بالعالم كله ينفتح فجأة أمامهم. صار بإمكانهم أن يكونوا أي شيء: يجمعون الثروات، يجوبون العالم، ويواعدون عارضات الأزياء. أشياء لم يكونوا يحلمون بوجودها قبل بضع سنوات. كان ذلك كافياً ليطير صواب المرء. وقد طار صواب الكثيرين حرفياً.

كان مستوى العنف لا يُصدق؛ وكأن تلاميذ المدارس في المدينة قد سُلّموا - مع دفاترهم وأقلامهم - ترسانة من الأسلحة الرشاشة. كان الرصاص يلعلع في كل مكان ولأتفه الأسباب. ترى ميليشيات خاصة، وجيوشاً صغيرة تشكّل حراسة لأشخاص نكرات، ثم تسمع لاحقاً أن أحدهم قد مُحي من الوجود؛ بقنبلة أو بوابل من رصاص الكلاشينكوف.

كل شيء كان يغذي تلك الفقاعة المشعة التي اسمها موسكو. كل تطلعات البلاد، التي ظلت مكبوتة لعقود في خمول شيوعي هرم، تلاقت هنا. ولم يكن "الثقافة" هي ما يقبع في المركز كما توهم المثقفون الذين ظنوا أنهم ورثوا الصولجان بينما لم يرثوا شيئاً؛ بل كان المركز هو "التلفزيون". القلب النابض للعالم الجديد، الذي يحني الزمكان بسحره، ويعكس بريق الرغبات في كل اتجاه.

كان توظيف خبرتي المسرحية للدخول في مجال الإنتاج التلفزيوني أشبه بالانتقال من عربة بخارية إلى سيارة "لامبورغيني". في يوم كنت أجلس على طاولة مطبخ أشرح أشعار ماياكوفسكي وأحتسي الشاي المغلي وسط سحابة

كثيفة من دخان السجائر، وفي اليوم التالي كنت أرتشف "الكابوتشينو" في مكاتب مفتوحة صممها معماريون هولنديون، وأعد عروضاً تقديمية على الكمبيوتر، وأخطط لعطلة في مراكش.

في استوديوهات قناة أو آر تي (ORT)، القناة الأولى التي تمت خصخصتها حديثاً، لم نكن ننتج برامج فحسب، بل كنا نختبر ونبتكر أنماط الحياة التي ستتبناها قريباً جموع "الروس الجدد". أيامنا المليئة بعبارات الدهشة واللامبالاة كانت تنتهي في بارات النبيذ العصرية بنقاشات حول مزايا أنواع النبيذ الفاخر. كانت النساء يستلهمن سلوكهن من مسلسل "الجنس والمدينة"، والرجال يقلدون "جوني ديب". وضعنا موهبة المحاكاة الروسية الشهيرة قيد الاستخدام، ومثّلنا كل ما يمكن اعتباره "رائجاً"، وخلقنا الضجيج والإثارة. كانت النتيجة الإجمالية سخيفة بامتياز. ومع ذلك، كنا نحن من أعاد بناء المخيلة الجماعية للبلاد في تلك المرحلة. انهارت كل المؤسسات الأخرى، وكان على التلفزيون أن يقود الطريق. أخذنا حطام النظام القديم، والمساكن الشعبية في الضواحي، وأبراج ستالين الشاهقة، وحولناها إلى كواليس لبرامج الواقع التي ننتجها. ثم انتقينا النماذج الأكثر تمثيلاً للشعب الروسي - الأب السكير، والجدة القادمة من الأرياف، والعاهرة الماكرة، والطالب العدمي - وأرينا كلاً منهم الطريقة المثلى للدخول في العالم الجديد والمشاركة فيه.

القاعدة الأولى: ممنوع الملل. كل ما عدا ذلك ثانوي. حاول السوفييت خنق البلاد تحت غطاء سميك من الضجر. والآن، كل شيء مسموح به إلا الرتابة. كنا نخرج كل يوم تقريباً بفكرة جديدة تفوق سابقتها جنوناً: برنامج واقع عن عصابتين تتصارعان للسيطرة على بلدة ريفية صغيرة؟ لِمَ لا! وثائقي عن مدارس تعلم الشابات كيفية اصطياد الأثرياء؟ يبدو جيداً! منجم فلكي يتنبأ بحركة البورصة؟ مهندس ديكور يتخصص في منازل على طراز ماري أنطوانيت؟ تعاقدوا معهم فوراً!

كنا نصنع تلفزيوناً سوقياً وهمجياً، كما تقتضي طبيعة الوسيط. لم يكن لدى الأمريكان أي جديد ليعلمونا إياه، بل كنا نحن من تجاوز كل الحدود في "برامج القمامة". ومع ذلك، ومن حين لآخر، كانت الروح الروسية الخالدة تنهض من الأعماق.

خطرت لنا في وقت ما فكرة إنتاج عرض وطني ضخم، وطلبنا من جمهورنا أن يخبرونا عن أبطالهم، الأشخاص الذين يجعلون "الوطن الأم" فخوراً حقاً. توقعنا العقول العظيمة: تولستوي، بوشكين، أندريه روبليف، أو ربما ممثلاً أو نجم بوب كما قد يحدث في بلادكم. لكن ماذا قال لنا المشاهدون؟ من اقترحت تلك الكتلة غير المتشكلة من البشر، التي اعتادت حني الرؤوس والنظر إلى الأرض؟

الديكتاتوريين!

أبطالهم، ومؤسسو البلاد في نظرهم، كانوا جميعاً طغاة ملطخة أيديهم بالدماء: إيفان الرهيب، بطرس الأكبر، لينين، ستالين. اضطررنا لتزوير النتائج لوضع ألكسندر نيفسكي في المركز الأول - فعلى الأقل كان محارباً لا مبيداً للبشر. لكن الشخص الذي حصد أكبر عدد من الأصوات كان ستالين.

ستالين! هل تدرك معنى ذلك؟

في تلك اللحظة فهمت أن روسيا لن تكون أبداً دولة كبقية الدول. ليس وكأن أحداً ظن عكس ذلك يوماً.

(8)

في ذلك الوقت، كان مالك قناة "أو آر تي" مليارديرًا يُدعى بوريس بيريزوفسكي. لم يكن يبدو، للوهلة الأولى، كأحد "الأوليغارشية" الذين يتمتعون بمصداقية خاصة. لم يكن فيه ما يوحي بالسلطة أو يفرض الاحترام؛ كان قصيرًا، مكتنزًا، وحسير البصر، في حالة هياج دائم بسبب فكرة ما، أو مشغولاً بالضحك وإضحاك الآخرين. كان الجميع يعلم مدى نفوذه، ومع ذلك كان يشعر بحاجة ملحة للتذكير بذلك طوال الوقت. كان يعشق أن تقاطعه مكالمة هاتفية أثناء تناول الطعام.

يقول وعيناه تلمعان:

- "إنها تاتيانا... ابنة الرئيس."

أو ربما:

- "آه! أناتولي."

قاصدًا نائب رئيس الوزراء.

لم يكن بمقدوره المشاركة في محادثة لأكثر من أربع دقائق دون أن ينطلق في سرد قصة عن مآثره المذهلة: كيف ذهب ذات مرة إلى الشيشان ورتب لإطلاق سراح جميع الرهائن، واضعًا ساعة يده التي تبلغ قيمتها تسعين

ألف دولار كرهن؛ أو كيف صمم الزي الجديد للمضيفات، بعد استيلائه على شركة "إيروفلوت"، راسمًا إياه على مفرش طاولة في أحد المطاعم.

كان قد اشترى قصرًا قديمًا في شارع "نوفوكوزنيتسكايا"، وهو مبنى أبيض طويل ومنخفض ملحق بكنيسة القديس كليمنت. نظريًا، كان ينبغي أن يكون مقرًا لشركته، لكن بيريزوفسكي حوله إلى شيء أكثر خصوصية، نوعًا من النادي. كان "بيت لوغوفاز"، كما أسماه، مفتوحًا لشركاء العمل ولأي شخص يرغب هو في رؤيته عمومًا، ولأي سبب كان. كان بوسعك أن تهبط هناك في أي ساعة من ساعات النهار وأنت واثق من أنك ستجد سيجارًا فاخرًا، ورجل أعمال بيلاروسيًا أو جنرالًا كازاخيًا مستعدًا لإعادة تشكيل العالم معك. كان هناك حوض سمك عملاق يمتد بطول الجدار، ومدفأة نُقلت بالكامل من قلعة بافارية، وتكديس مفرط للأيقونات، والتماثيل العاجية، وطاولات الماركنتري. من الخردوات والتحف الصغيرة إلى السجاد، كان من الواضح أن اختيار القطع تم بناءً على قيمتها المادية أكثر من أي خطة جمالية. ومع ذلك، كان للمكان سحر معين، سحر نتاج مغامرة انتهت نهاية سعيدة، أو عملية سطو على بنك، أو ليلة انتصار على طاولة "البلاك جاك". منزل "الخال فانيا" وقد أعاد "جيمس بوند" تزيينه. ربما لم يكن قمة الذوق الرفيع، لكن معظم من أتوا إلى هناك أرادوا شيئًا واحدًا فقط: البقاء لأطول فترة ممكنة.

بادئ ذي بدء، كان أشخاص مثيرون للاهتمام يظهرون في "بيت لوغوفاز". أبرز مواطني موسكو، سواء في السياسة أو الأعمال أو الترفيه أو الجريمة، كلهم كانوا يسجلون حضورهم هناك. ثم، في ساعة معينة، تبدأ الإناث في التسلل، وكأنهن قادمات من مجرة أخرى. ما أراده الجميع هو الحصول على آخر موعد ممكن مع بوريس، لأنك إذا كنت لا تزال في النادي عند الثامنة مساءً، فهذا يعني دعوة تلقائية لواحدة من أكثر سهرات موسكو إمتاعًا. بعد تلك الساعة، يمتزج العمل بالمتعة تمامًا، ويمكن لاجتماع لمناقشة مشروع تجاري أن

يتحول بسهولة إلى حفل ماجن. هكذا تعمل السلطة في موسكو، لم تكن أبدًا مفصولة عن الحياة. في بلادكم، الرجال الذين يمسكون بزمام السلطة مجرد محاسبين. شخصيات رمادية باهتة تستيقظ في الصباح الباكر، وتأكل "الميوسلي" بالحبوب الكاملة، وتحبس أنفسها في مكتب لعشر أو اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة للقيام بما يلزم القيام به. ثم يصعدون إلى سياراتهم ويطلبون إيصالهم إلى المنزل، أو إنزالهم في حفل عشاء مع أشخاص مملين آخرين، أو في أحسن الأحوال، أخذهم لرؤية عشيقاتهم. نهاية القصة. أما في روسيا، فهذا أمر لا يمكن تصوره؛ نحن لدينا مفهوم شمولي للسلطة.

في تلك الأيام، منحتني نجاحاتي المتواضعة كمنتج تلفزيوني دعوات متقطعة إلى "بيت لوغوفاز". عادة ما كان بيريزوفسكي يستدعيني لأخبار حول مشروع في عالم المرئيات والصوتيات، أو لأنه يريد التوصية بابن عم له، أو راقصة باليه. لكن في إحدى الليالي، اتخذت المحادثة منعطفًا غير متوقع. كنا نجلس في مكتبه بالطابق الثاني مع شريكه التجاري الجورجي القديم. أثنى الرجلان على نسب المشاهدة لآخر سخافاتي التلفزيونية، وسألا بشكل غامض عن خططي للبرامج القادمة، لكنني سرعان ما استشعرت أن شيئًا آخر يدور في أذهانهما. عند نقطة معينة، بدأ بيريزوفسكي يتحدث في السياسة. ذكر أحد أصدقائه الوزراء الذي أُطيح به للتو من الحكومة.

قال:

- "السياسة الروسية هي الروليت الروسية. والسؤال الوحيد هو ما إذا كنت مستعدًا للعب أم لا."

ثم التفت بيريزوفسكي نحوي قائلًا:

- "أترَى يا فاديا، جمال روسيا يكمن في أنك حتى عندما لا تقامر، فإنك تواجه نفس المخاطر. لنفترض أنك تنشغل بشؤونك بهدوء في ركنك الصغير.

عاجلًا أم آجلًا، سيظهر وغد يريد تجريدك من كل ما تملك. وإذا كان لديه قليل من السلطة، أو قليل من العضلات، فقد ينجح. وتُترك أنت هناك كإوزة منتوفة، وماذا فعلت لتستحق ذلك؟ لذا، من الأفضل للمرء أن يلعب الروليت، أليس كذلك؟"

النبرة التي استخدمها بوريس كانت دائمًا تتركك في حيرة من أمرك. هل كان يطرح مجرد تعليق اجتماعي، أم أن كلماته تخفي عنصر تهديد أقل تجريدًا؟

تابع قائلًا:

- "هذا ما حدث لي. كنت منشغلًا بعملي في ركني الخاص. كنت قد بنيت شركة صغيرة راقية، شرعية، حديثة، تعمل على الطراز الغربي مع شبكة من الوكلاء يبيعون الكثير والكثير من السيارات في كل جزء من البلاد. ثم في يوم من الأيام أكتشف أن هناك وغدًا يريد الاستيلاء على عملي. فماذا يفعل؟ هل ينشئ شبكة من الوكلاء المنافسين؟ هل يحاول التفوق عليّ في السوق، كما تفعلون في أوروبا أو أمريكا؟ لا! ما يفعله هذا الحقير هو شحن سيارة (أوبل) قديمة بمتفجرات الـ(تي إن تي) وركنها على طريقي إلى العمل. لذا أمر بسيارتي بعد ظهيرة أحد الأيام، و(بووم)! يضغط على جهاز التحكم، ولا يعود هناك بيريزوفسكي. أو هكذا يعتقد. لكن الأمر لا ينجح، لأن لبيريزوفسكي أرواحًا أكثر من القطط. ما يحدث هو أنني انتهي ورأس سائقي في حضني؛ قطعة من الـ(أوبل) اللعينة جزته كما تفعل المقصلة. أما أنا، فولا خدش. بالكاد كدمة. نظر الناس إلى سيارتي التي تفحمت، ولم يصدقوا ذلك."

هز بوريس رأسه، متظاهرًا بعدم التصديق.

- "ماذا عساي أقول لك يا فاديا؟ في ذلك اليوم أدركت أنك حتى لو لم تعر السلطة أي اهتمام، فإن السلطة تعيرك اهتمامها. ذهبت إلى سويسرا في

فترة نقاهة لمدة أسبوعين. وهل تعلم ماذا فعلت عندما عدت إلى موسكو؟ انضممت إلى نادي التنس."

***

كنت أعرف بقية القصة. الجميع في موسكو كان يعرفها. في وقت الهجوم، كان الرئيس العجوز يلتسين قد بدأ بالفعل في الانحدار. نادرًا ما كان يأتي إلى المكتب. بنى لنفسه ناديًا رياضيًا على "تلال العصافير" وقضى وقته كله هناك، يلعب التنس. أو في المنزل يشرب. وحوله، كانت حاشية صغيرة من السياسيين والمحتالين يتنافسون على المكاسب. أناس استفادوا بشكل هائل من قربهم من السلطة لكنهم بدؤوا يقلقون من أن كل شيء قد يتبخر. كان الرجال متوسطي القدرات، لكنهم امتلكوا موهبة خاصة في مداعبة غرور زعيمهم واستغلال نقاط ضعفه. وقد بدا لهم بيريزوفسكي كنوع من المخلص. ذكاؤه، وطموحه، وإيقاعه المحموم، كلها أمور أكسبته بسرعة ود ابنة الرئيس، وعبرها، ود "الدب العجوز" نفسه. يجب القول إنه بالنسبة لهم، بدا بيريزوفسكي هدية من السماء. أقنعهم بأن كل شيء لم يضع بعد، وأن الرئيس، رغم ما به من إنهاك، يمكنه الاستمرار في الاحتفاظ بالسلطة.

أكاد أسمعه يهمس في أذن الرجل العجوز:

- "يا أبانا الصغير، روسيا لا تزال بحاجة إليك، وإلى شجاعتك، ونزاهتك. أنت لا تريد أن تترك الوطن الأم للشيوعيين، أليس كذلك؟"

مستندًا إلى هذه الحجة، تمكن بيريزوفسكي من تولي مسؤولية التلفزيون الحكومي، الذي استخدمه بعد ذلك لإدارة حملة إعادة انتخاب استثنائية. في غضون شهرين، أظهرت استطلاعات الرأي أنه جعل يلتسين مرشحًا قويًا مرة أخرى، أو بالأحرى أغرق كل منافسي يلتسين من خلال الإيحاء بأن انتخابهم سيعيد طوابير الخبز و"غولاغ" سيبيريا. المشكلة البسيطة الوحيدة كانت أن

العجوز أصيب بنوبة قلبية أخرى قبل أسبوعين فقط من الانتخابات. في ذلك اليوم، كان من المفترض أن يسجل نداءً أخيرًا للأمة. أُلغيت جلسة التسجيل، لكن الشائعات طارت، وفي غضون أيام كان واضحًا وضوح الشمس أن الرئيس يجب أن يظهر. وبما أن يلتسين لم يكن في حالة تسمح له بالذهاب إلى المكتب، أصدر بوريس أوامره بنقل أثاث الكرملين إلى مقر إقامة الرئيس، لإعطاء الوهم بأن الرئيس يمارس مهامه بالكامل. عندما حان وقت تسجيل الرسالة، كان يلتسين أضعف من أن يجلس منتصبًا في كرسيه، فدسوا لوحًا خشبيًا خلف ظهره لإسناده. بقي الخطاب نفسه، لكن الرئيس لم يكن قادرًا على نطق الكلمات بشكل متماسك. لذا طُلب منه تحريك شفتيه بأي طريقة ممكنة، وتم تجميع البث بالكامل في غرفة المونتاج، باستخدام مقاطع من خطاباته السابقة.

في يوم الانتخابات، كان يلتسين في حالة سيئة للغاية لدرجة أنه لم يستطع إدخال بطاقة الاقتراع في الصندوق. صورت كاميرات بيريزوفسكي الرئيس وهو يصوت، ثم حذف المونتاج الطبيبين ذوي المعاطف البيضاء اللذين كانا يسندان الرئيس. نجحت المناورة السخيفة، كما تنجح دائمًا في روسيا عندما يكون هناك ما يكفي من التصميم، وأعيد انتخاب يلتسين بفارق كبير. بعد ذلك، عاد الدب العجوز إلى خموله، وأصبح بيريزوفسكي الزعيم الحقيقي لروسيا.

الآن، كان ذلك الرجل أمامي:

- "السياسة الروسية مثل الروليت الروسية، هل أنت مستعد للمخاطرة أم لا؟"

بوضوح، كنت مستعدًا للمقامرة. بطريقة ما، لم أفعل شيئًا حتى ذلك الحين سوى الاستعداد لها.

قلت:

- "لا أعرف يا بوريس. أنا أحب عملي."

- "صحيح، وأنت لست سيئًا فيه أيضًا. ما أقترحه هو أن تنتقل إلى المستوى التالي."

رمقني بيريزوفسكي بكل الحدة التي سمحت بها عدسات نظارته السميكة.

- "ماذا لو توقفت عن اختلاق القصص وبدأت في خلق الواقع؟"

لم تكن لدي أدنى فكرة عما يتحدث عنه. ابتسم الجورجي الجالس بجانبه وأومأ برأسه مثل قريب قادم من الريف.

قال بيريزوفسكي:

- "أنت تعلم أن لدي بعض الاتصالات داخل الكرملين."

نظرًا للتواضع المفرط في عبارته، شعرت أنه يتوقع ردًا، لكنني لم أقدم أي رد؛ فواصل حديثه، وقد انطفأ حماسه قليلًا:

- "في الماضي، كنت قادرًا على مد يد المساعدة من وقت لآخر، لكن في هذه المرحلة تغير السيناريو تمامًا. المسألة ليست دعم شيء موجود بالفعل، بل اختراع شيء ليس له وجود بعد."

تدخل الجورجي قائلًا:

- "وكذلك شخص..."

- "وكذلك شخص، نعم، بالطبع، لكن المشكلة ليست هناك. ما نحتاجه هو خلق واقع جديد. نحن لا نتحدث عن الفوز بانتخابات، بل عن بناء عالم."

رغم أن بيريزوفسكي كان يتحدث بعبارات عامة، بدأت أدرك ما يرمي إليه. كانت الانتخابات الرئاسية التالية على بعد عام واحد تقريبًا، وبعد فترتين رئاسيتين وخمس نوبات قلبية، كان الدب العجوز خارج السباق. لكن

بيريزوفسكي كان قد استطعم السياسة. ولئن كان التهديد الشيوعي أقل إلحاحًا هذه المرة، إلا أنه كان لا يزال يرى نفسه منقذًا للأمة. أو محرك الدمى الذي يطوع الواقع لمصالحه الخاصة. وهو ما كان، في ذهنه، شيئًا واحدًا.

قال بيريزوفسكي:

- "أولويتنا الأولى هي حزب سياسي. لقد تحدثت بالفعل مع تاتيانا حول هذا الأمر. نحتاج لإنشاء حزب (الوحدة). هذا ما يفتقده المشهد. لقد سئم الناس من اليمين، واليسار، والشيوعيين، والليبراليين؛ ما يريدونه هو شعور بالوحدة. الحنين الذي يشعرون به ليس للشيوعية بحد ذاتها، بل للنظام، ولحس الجماعة، وفخر الانتماء إلى شيء عظيم حقًا. الروس ليسوا مثل الأمريكيين، ولن يكونوا كذلك أبدًا. لن يكفيهم ادخار القليل من المال لشراء تلفزيون جديد. إنهم يريدون أن يكونوا جزءًا من شيء لا يشبه أي شيء آخر. إنهم مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل ذلك. واجبنا هو أن نعيد إليهم منظورًا يتجاوز التفكير في قسط السيارة للشهر القادم. (الوحدة) هو ما نحتاجه. حركة تعيد الكرامة للناس. لقد كلفت مصممي الجرافيك بالفعل بابتكار شعار. هاك يا فاديا، ما رأيك؟"

ناولني بيريزوفسكي رسمًا لدب بني كبير في وضع جانبي منمق.

- "الليبراليون لديهم الثعلب، والشيوعيون لديهم الماموث، ثم هناك الدب، رمز الروح الروسية؛ شرس، نبيل، وقوي. هذا ما نحتاجه يا فاديا. لقد فقد الناس اهتمامهم بالسياسة، لذا سنمنحهم الأساطير بدلًا منها!"

أذكر أن بوريس كان منفعلًا لدرجة أنه أسقط حامل الأقلام أمامه بخرقائه المعهودة. ومع ذلك، كان تفكيره يحمل قدرًا من المنطق. في أوائل التسعينيات، قاد جورباتشوف ويلتسين ثورة، لكن معظم الروس استيقظوا في اليوم التالي على عالم غير مألوف، عالم لم يعرفوا كيف يتنقلون في دروبه. قبل

انهيار الحلمين الأمريكي والأوروبي، كان هناك انهيار الحلم السوفيتي. لم يلاحظ أحد في منطقتكم من العالم ذلك، لأنه لم يبدُ ممكنًا لأي شخص أن يبني حلمًا من أشياء بائسة وباهتة كهذه: مهنة محترمة كموظف بيروقراطي أو معلم، سيارة "جيغولي" صغيرة، منزل "داتشا" مع حديقة مطبخ، وعطلات في سوتشي وأحيانًا في فارنا، حيث يمكنك الخوض في البحر الأسود والتطلع لحفل شواء جيد مع الأصدقاء. ومع ذلك، كان لهذا النموذج قوة وكرامة خاصة به. كان أبطاله الجندي والمعلمة، وسائق الشاحنة للمسافات الطويلة والعامل؛ هؤلاء هم من ملأوا اللوحات الإعلانية التي تغطي الشوارع ومحطات المترو. وفي غضون أشهر، جُرف كل هذا بعيدًا. تولى الأبطال الجدد، الممولون وعارضات الأزياء، زمام الأمور، وأُطيح بالمبادئ التوجيهية لثلاثمائة مليون من سكان الاتحاد السوفيتي. كانوا قد نشأوا في أمة ووجدوا أنفسهم فجأة في سوبر ماركت. الشيء الأكثر صدمة في هذه الفترة كان اكتشاف المال. تلاه اكتشاف أنه قد لا تكون له أي قيمة على الإطلاق، مع انهيار البورصة والتضخم الذي وصل إلى 3000 في المائة.

كان حدس بيريزوفسكي في محله تمامًا: المزاج العام كان يتغير. لقد تعب الناس وأرادوا النظام مرة أخرى. أرادوا للأشياء أن يكون لها معنى. كانت المعضلة تكمن في ابتكار إجابة قبل أن يفعل ذلك شخص آخر.

(9)

كان بيريزوفسكي قد ضرب لي موعدًا في المقر الرئيسي لجهاز الأمن الفيدرالي (FSB)، وريث الـ «كي جي بي» (KGB). استقبلني في البهو ذي الطابع الجنائزي بابتسامة عريضة، وكأننا في صالون الاستقبال بدار «لوغوفاز». كان يبدو مرتاحًا تمامًا في هذا المكان الموحش، ولم يقاوم رغبته في إخافتي قليلاً، فقال:

- "أتعلم ما كان يقوله أهل موسكو عن مبنى «لوبيانكا» في العهد السوفيتي؟ كانوا يقولون إنه أطول مبنى في المدينة، لأنه بوسعك أن ترى سيبيريا من قبو المبنى".

أضحكتني الدعابة؛ كانت من النوع الذي يرويه جدي، بينما لا يجدها أبي مضحكة على الإطلاق. أما أنا، فكنت أعيش على كوكب آخر. ظننت أننا خلفنا ذلك العالم كله وراء ظهورنا، ولم أكن قد تعلمت بعد أن لا شيء يختفي حقًا وإلى الأبد. كانت زيارتنا، في حدود فهمي، مسألة مجاملة؛ إذ من الحكمة دائمًا في روسيا الحفاظ على علاقات ودية مع أجهزة الأمن الداخلي. لكن، وبينما كنا نسير في الممر الطويل الخالي من النوافذ في الطابق الثالث، أخبرني بوريس بخلاف ذلك؛ يبدو أن لقاءنا كان متصلاً بالحديث الذي دار بيننا قبل بضعة ليالٍ:

- "رئيس جهاز الأمن الفيدرالي سيكون مرشحًا جيدًا. لا أحد يعرفه حقًا، لكن «العجوز» يثق به. لقد أثبت كفاءته في لحظات حاسمة. إنه شاب، كفؤ، وعصري؛ بالضبط ما تحتاجه روسيا. وهو متواضع، سترى ذلك بنفسك. لم يشأ أن يستولي على مكتب أسلافه، بل حوله إلى متحف، كبسولة زمنية من عهد ولى ولن يعود".

وبالفعل، بعد مرور سريع عبر منطقة الاستقبال، أُدخلنا إلى مكتب كان يصلح لأن يكون مكان عمل لرئيس قسم في وزارة البريد. كان شاغله رجلاً أشقر شاحبًا، بملامح باهتة. يرتدي بدلة بيج من البوليستر، وله هيئة موظف، تشوبها مسحة خفيفة للغاية من السخرية.

صافحني قائلاً:

- "فلاديمير بوتين".

في ذلك الحين، لم يكن القيصر قد صار قيصرًا بعد. لم تكن إيماءاته تشي بتلك السلطة الصارمة التي سيكتسبها لاحقًا، ورغم أن نظرته كانت تحمل بعضًا من تلك القسوة المعدنية التي نعرفها اليوم، إلا أنها كانت تبدو محجوبة بجهد واعٍ لإبقائها تحت السيطرة. ومع ذلك، كان حضوره يبعث على الهدوء.

انطلق بوريس، بأسلوبه المعهود، يصب سيلاً من الكلمات، تصب كلها تقريبًا في الاتجاه ذاته: الأمر منوط به، ببوتين، ليمسك بزمام الأمور ويقود روسيا نحو الألفية الجديدة.

تمنع مدير الأمن الفيدرالي قائلاً:

- "اسمع يا بوريس، المخابرات تمنحك كل مزايا السياسة دون أي من مساوئها. أنا هنا في قلب النظام، أرى وأسمع كل ما يجري، وأنا في موقع جيد لحماية الرئيس وعائلته. لقد فعلتها من قبل، وتعلم أنني سأواصل فعلها كلما

دعت الضرورة. إذا نقلتني إلى الحكومة، سأكون تحت الأضواء ولن أتمكن من المساعدة بعد ذلك. وسينتهي بي المطاف مسحوقًا كالعجين، مثل كل رؤساء الوزارة الآخرين في السنوات القليلة الماضية. الآن لديك حارس مخلص يسهر على راحة بالك، ولا أظنك تريد خسارة ذلك".

- "أفهم ما تقوله يا فولوديا. لكن عليك أن تضع شيئًا واحدًا في حسبانك: إذا لم نتحرك بسرعة، فبعد عام من الآن لن يكون هناك رئيس ولا عائلة رئاسية لتحميها. وما هو، برأيك، أول شيء سيفعله السيد الجديد للكرملين فور دخوله المكتب؟ سيستبدل مدير الأمن الفيدرالي، هذا ما سيفعله".

بدا بوتين، الجالس خلف مكتبه المصنوع من خشب الورد، قلقًا بصدق.

- "هذا جائز"، قال، "لكن لا بد من وجود حل آخر! «ستيباشين» لم يمضِ على توليه رئاسة الوزراء سوى ثلاثة أشهر، لِمَ لا تبقي عليه؟".

- "هذا لن يجدي نفعًا يا فولوديا. شعبيته لا تتجاوز 3 بالمائة. أنت تعرف كيف يعمل الرأي العام؛ يُصدر حكمه بسرعة، ومن شبه المستحيل تغييره لاحقًا. لقد رأى الناس ستيباشين وهو يعمل، ولا يعتقدون أنه أهل للمهمة. والحقيقة أنهم محقون. هل يمكنك تخيل ستيباشين يقود جيشنا في القوقاز؟ سيكون الأمر أشبه بوضع بندقية كلاشينكوف في يد أوزة داجنة. روسيا بحاجة إلى رجل حقيقي يا فولوديا. قائد يعبر بها إلى الألفية الجديدة".

- "أسمعك يا بوريس، لكن ما الذي يجعلك تظن أنني أنا ذلك القائد؟ أنا بيروقراطي. كل ما فعلته طوال حياتي هو تنفيذ الأوامر والقيام بواجبي. تحدثت علنًا ثلاث أو أربع مرات، وأضمن لك أن النتائج لم تكن باهرة. لقد رأيت الرئيس وهو يعمل مرات عديدة: يدخل الغرفة، يستشعر الجو العام، وبعد ثانية ونصف يكون قد جعل الجميع يأكلون من يده. يضحكهم، يبكيهم، يبني علاقة معهم وكأنه جلس مع كل واحد منهم على طاولة

مطبخه. حتى اليوم، ورغم حالته الراهنة، لا يزال قادرًا على فعل ذلك. يراه الناس فيتأثرون. أنا لست من تلك الطينة".

تدخلتُ قائلاً:

- "إذا سمحت لي يا فلاديمير فلاديميروفيتش، فهذا بالضبط هو بيت القصيد".

استقرت نظرة بوتين الجليدية عليّ للمرة الأولى. وبجانبي، شعرت ببيريزوفسكي يشجعني على الاسترسال.

تابعتُ قائلاً:

- "يمتلك الرئيس شخصية استثنائية، وسيكون من غير المعقول محاولة استنساخها. كانت صفاته الإنسانية ضرورية لانتقال بلادنا من الاتحاد السوفيتي القديم إلى روسيا اليوم. لكن بعد ثماني سنوات في السلطة، وبالنظر إلى حالته الجسدية، فإنه يبدو بصورة مهترئة نوعًا ما. تخبرنا استطلاعات الرأي أن الشعب الروسي يشعر بأن الرئيس تخلى عنه، أنهم يحبونه لكنهم لا يعجبون به".

كان الموضوع حساسًا، لكن رئيس الأمن الفيدرالي لم يبدِ أي اعتراض.

- "لهذا السبب نعتقد أن الحاجة ماسة لشخص جديد، شخص يجسد في آن واحد عنصر الاستمرارية والقطيعة الواضحة مع الماضي. لو أصبحت رئيسًا للوزراء، يا فلاديمير فلاديميروفيتش، سترتدي تلقائيًا عباءة السلطة الشرعية. وهذا أمر جوهري للروس الذين لا تستهويهم المغامرات. ما يريدونه، خاصة في الوقت الراهن، هو الاستقرار والأمن. وستكون أيضًا نقيضًا صارخًا للرئيس الحالي. أنت شاب، رياضي، مفعم بالطاقة، وتعطي انطباعًا بالقدرة على تحمل كافة أعباء القيادة. تاريخك مع الأجهزة الأمنية يقدم ضمانًا للموثوقية. وكونك رجلاً قليل الكلام سيصب في صالحك. لقد سئم الشعب الروسي من

أصحاب الكلام المعسول. إنهم يريدون من يقودهم بيد حازمة، يريدون شخصًا يعيد النظام إلى الشوارع ويعيد للدولة هيبتها الأخلاقية. ولهذا السبب نتصور نوعًا مختلفًا من الحملات الانتخابية، حملة لا تعتمد على عقد التجمعات أو إطلاق الوعود. بل العكس تمامًا. الحيلة تكمن في تقديمك كسياسي لا يشبه البقية. أنا لا أفهم كثيرًا في السياسة يا فلاديمير فلاديميروفيتش، لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنها عرض مسرحي. إذا جاز لي أن أسألك، هل تعرف من هي أعظم ممثلة في كل العصور؟".

هز بوتين كتفيه بلامبالاة.

- "غريتا غاربو. وهل تعلم لماذا؟ لأن المعبود الذي ينسحب عن الأنظار يزداد قوة. الغموض يولد الطاقة. والمسافة تعزز التبجيل. خيال المجتمع الروسي، أو أي مجتمع، يعمل وفق بعدين. على المحور الأفقي يقع القرب من الواقع اليومي، بينما يقيس المحور العمودي السلطة. في السنوات القليلة الماضية، كانت السياسة الروسية تدور بالكامل على المحور الأفقي، لأن هذا البعد كان مفقودًا تمامًا في الحقبة السوفيتية. ظهر مع غورباتشوف، الذي كان يتوقف للحديث مع الناس العاديين - وهو شيء لم يحلم أي زعيم سوفيتي بفعله قط - واستمر حتى يلتسين، الذي بدا غالبًا كرفيق شرب أكثر منه رئيس دولة. لكن اليوم، من الواضح أن البندول بدأ يتأرجح في الاتجاه المعاكس. الإفراط في الأفقية جلب الفوضى، وإطلاق النار في الشوارع، وإفلاس الدولة، وإذلال روسيا على الساحة الدولية. إذا سمحت لي بالتلاعب بالألفاظ، فإن فائض الأفقية حجب الأفق. ما نحتاجه لضبط المنظور هو الارتفاع. كل بياناتنا تخبرنا أن الروس اليوم يريدون العمودية، أي السلطة. بلغة التحليل النفسي، يمكن القول إن الشعب الروسي يريد زعيمًا يكف عن «حديث الأمهات» ويعود لاستخدام لغة الأب، لفرض القانون. وكما قال عمدة موسكو عندما تخلفت الحكومة عن سداد ديونها: «انتهت التجربة»".

قال بوريس، الذي كانت له خلافات مستمرة مع المواطن الأول في موسكو:

- "إلا أنه لن يكون المستفيد من ذلك".

عقبتُ قائلاً:

- "أعتقد أن بوريس محق في هذه النقطة. «لوجكوف» ورئيس الوزراء السابق «بريماكوف» يتصدران استطلاعات الرأي لأنهما، بخلاف يلتسين، يقدمان وعدًا ببداية جديدة. لكن كليهما موجودان منذ زمن طويل، وصورتهما مستهلكة تكاد تكون باهتراء صورة الرئيس".

أومأ الرجل بجانبي، وهو واحد من القلة النادرة الذين يمتلكون صورة عامة أكثر استهلاكًا من السياسيين المذكورين، برأسه بحماس. حاولت تجاهله والعودة إلى نقطتي.

- "كما ترى، الروس لديهم رأي سيء للغاية في الطبقة الحاكمة. وحين تكتسب السياسة سمعة سيئة، تصبح الخبرة السياسية عائقًا. ولهذا السبب فإن نقص خبرتك هو ميزة يا فلاديمير فلاديميروفيتش. أنت وجه جديد، الروس لا يعرفونك ولا يمكنهم ربطك بأي من الفضائح الحديثة أو سوء الإدارة، التي يلقون باللوم فيها على من تولوا المسؤولية في السنوات الماضية. والآن، صحيح كما قال بوريس أن الجمهور يشكل رأيه بسرعة، لذا لن يكون لديك سوى بضعة أشهر لإقناع الشعب الروسي بأنك الرجل المناسب للمهمة. لكننا نؤمن إيمانًا راسخًا بأنك تمتلك الصفات المطلوبة".

أضاف بيريزوفسكي:

- "هذا صحيح يا فولوديا، نحن واثقون من ذلك. ولا تنسَ أنك لن تكون وحيدًا. سأكون بجانبك في كل خطوة على الطريق، جاهزًا للمساعدة وتقديم المشورة متى احتجت إليها".

قد أكون مخطئًا، لكن بدا لي أنني لمحت في بوتين، الذي ظل ساكنًا منذ بداية المحادثة، وميضًا خافتًا للغاية من السخرية كرد فعل على هذه الكلمات.

مهما يكن من أمر، عاد بوريس إلى النادي وهو في غاية الانشراح.

كان يردد لكل من يلقي له سمعًا:

- "إنه رهان مضمون. لقد عثرنا على حصاننا الرابح. ليس لأنه حائز على جائزة نوبل، لكنه سيفي بالغرض تمامًا للمهمة الحالية. لديه البنية المناسبة للدور. نحتاج فقط لوضعه بين أيدي سحرة الاتصالات لدينا، وسيحولونه إلى «ألكسندر نيفسكي». أو غريتا غاربو. أليس كذلك يا فاديا؟".

وضحك بغبطة طفولية.

حقيقة أنني طلبت من الرئيس السابق للـ «كي جي بي» أن يقتدي بممثلة أمريكية من الزمن الغابر بدت له نكتة صارخة. هززت كتفي وشاركته الضحك، لكن الحقيقة هي أن هذا اللقاء الأول مع القيصر ترك في فمي طعمًا غريبًا. لم أستطع تحديده بدقة، لكنني شعرت أن الأمور أعقد قليلاً مما يصوره بيريزوفسكي.

طوال الاجتماع، تصرف بوتين بكياسة لا تشوبها شائبة تجاه بوريس. بل وباحترام حتى، وهو يصغي لنصائح رجل الأعمال. ومع ذلك، حين خاطبه بيريزوفسكي بأسلوبه المعتاد في رفع الكلفة، خيل إليّ أنني رأيت أثرًا للامتعاض في عيني بوتين. ثم كان ذلك الوميض الساخر في النهاية، حين وعده بوريس بتوجيهه خطوة بخطوة. وكأن رئيس الأمن الفيدرالي وجد مجرد فكرة تلقي التوجيه من هذا الرجل أمرًا يبعث على الضحك الشديد.

من الواضح أن بيريزوفسكي لم يلحظ شيئًا من ذلك، لكن لم يمر وقت طويل حتى تأكدت شكوكي. كنت في غرفة المونتاج بعد بضعة أيام حين رن هاتفي بإلحاح.

- "فاديم أليكسييفيتش؟" قال صوت على الطرف الآخر، "أنا إيغور سيتشين، سكرتير فلاديمير بوتين. المدير يود دعوتك لتناول الغداء معه الثلاثاء القادم".

ورغم أن الدعوة صيغت بعبارات مهذبة، إلا أن الصوت على الطرف الآخر لم يكن يحتمل أي إمكانية للرفض. لاحظتُ عرضًا أنه سكرتير رجل - علامة من علامات الوجاهة والتميز بين الحرس السوفيتي القديم. حقيقة كنت أنا، بخلاف بيريزوفسكي، مستعدًا لالتقاط مغزاها.

(10)

كان غداؤنا في مطعم فرنسي افتُتح حديثاً في أحد الشوارع المتفرعة من حي أربات. فاجأني اختيار المكان قليلاً، إذ كنت قد كوّنت صورة تقشفية صارمة عن بوتين من لقائنا الأول. كان سيتشين، السكرتير، يقف عند الباب لحظة وصولي.

بادرني قائلاً بلهجة منزعجة:

- "عجّل يا فاديم أليكسييفيتش، فلاديمير فلاديميروفيتش موجود بالفعل!"

بدا واضحاً أن فكرة أن يترك شخص نكرة مثلي رئيسه منتظراً كانت تثير حنقه.

بمجرد دخولي، وجدت بوتين جالساً بمفرده إلى طاولة كبيرة في الزاوية، منعزلة نوعاً ما عن بقية الطاولات. كانت تعابيره مسترخية، وإيماءاته هادئة. كان يشع هالة من السطوة الباردة، تلك التي اختار بوضوح ألا يظهرها في لقائنا السابق.

صافحني وهو لا يزال جالساً، ثم التفت نحو كبير النادلين الذي كان يرمقه بتركيز منوّم مغناطيسياً، كقوارض صغيرة تحدق في أفعى جرسية، وقال:

- "بمَ تنصحنا يا بافل إيفانوفيتش؟"

- "إذا كنت تفكر في السمك، سيدي، أرشح لك المحار مع موس القرنبيط، أو سمك موسى بصلصة الكاردينال مع الجمبري المطهو بأسلوب الفلامبيه. أما إذا كنت تفضل اللحوم..."

قاطعه بهدوء:

- "وعاء من الكاشا، من فضلك".

- "اثنان".

كبت النادل رعشة سرت في جسده وانصرف. كانت تلك المرة الأولى التي ألاحظ فيها لا مبالاة بوتين التامة بالطعام، تماماً كما شهدت لاحقاً مناعته ضد الملذات الأخرى التي تجعل الحياة مستساغة. وكما يقول فاوست: "من يبتغي القيادة، عليه أن يجد سعادته في فعل القيادة ذاته".

في تلك الأثناء، كان رئيس جهاز الأمن الفيدرالي (FSB) قد دخل في صلب الموضوع مباشرة:

- "أكنّ احتراماً كبيراً لـ بيريزوفسكي وأنا ممتن لعرضه. إن مشروعاً من النوع الذي ندرسه يتطلب جهداً هائلاً، وقد أثبت بوريس بالفعل قدرته على اجتراح المعجزات. لكن في الوقت نفسه، أنا لست رجلاً في الثامنة والستين نجا من خمس نوبات قلبية. إذا قررت الالتزام بهذه الخطة، فسأعتمد على قوتي الذاتية، لا على قوة غيري. اعتدت تنفيذ الأوامر، وبمعنى ما، أجد ذلك الوضع الأكثر راحة للرجل. لكن رئيس روسيا لا يمكنه تلقي أوامر من أحد. فكرة أن تكون قراراته خاضعة لمصالح خاصة هي أمر ممقوت تماماً بالنسبة لي".

كانت نظرة بوتين في ذلك اليوم أكثر حدة واختراقاً مما كانت عليه أثناء لقائنا مع بيريزوفسكي. تفرس في عمق عينيّ ليقيس وقع كلماته.

تابع قائلاً:

- "بالنظر إلى الطريقة التي نشأتَ عليها يا فاديم أليكسييفيتش، أعتقد أنك تفهم ما أتحدث عنه".

كان محقاً تماماً. فكرة أن للدولة تفوقاً أخلاقياً معيناً على القطاع الخاص كانت متجذرة في أعماقي. مشهد بوريس وعصابته وهم يمزقون شوارع موسكو بسرعات جنونية في المسارات المخصصة للطوارئ، وصافرات الإنذار تدوّي، كان يهينني في الصميم، كما كان يهين معظم سكان موسكو.

أردف بوتين:

- "لقد استوقفني تحليلك في المرة الماضية. لقد تحريت عن خلفيتك، وأعتقد أن بإمكانك تقديم مساهمة مهمة في العمل الذي أقوم به، أياً كان مآله، سواء الآن أو لاحقاً. لكن يجب أن نكون واضحين بشأن نقطة واحدة. مع كل احترامي لبيريزوفسكي، لست بصدد وضع نفسي بين يديه. إذا قبلت عرضي يا فاديم أليكسييفيتش، فستعمل حصرياً لصحالبي. ستضمن لك الإدارة راتباً، وإن كنت أخشى أنه سيكون أقل مما تكسبه الآن، وعليك أن تتدبر أمرك به. لن أقبل بأي مكافأة أو ميزة تأتيك من بوريس أو غيره. إذا كان المال هو ما يهمك، فاحتفظ بوظيفتك في القطاع الخاص. عندما تعمل للدولة، عليك أن تضع المصلحة العامة فوق كل شيء، حتى فوق مصالحك الشخصية. وإذا وافقت على العمل معي، فلا داعي لأن أخبرك أن لدي طرقي لضمان احترامك لصفقتنا".

لم يكن يضيع وقتاً، هذا مؤكد. كنت قد اعتدت، خلال مسيرتي القصيرة كمنتج تلفزيوني، على أن يتم التودد إليّ، وكان ليسعدني أن آخذ عرض رئيس الاستخبارات الجاف هذا، وأكومه كالورقة وألقي به على الأرض. المشكلة أنه حلل الموقف بشكل صحيح. أدرك أن المال يعني لي أقل من أشياء أخرى، وبالتأكيد أقل من فرصة المشاركة في نوع المشروع الذي يبدو أن بوتين يخطط له. لا طائل من الدوران حول الموضوع عندما يمكنك النفاذ إليه مباشرة.

سأرى لاحقاً أن "القيصر" كان يعمل دائماً بهذه الطريقة؛ يصل إلى لب القضية قبل أي شخص آخر، ثم ينقض عليها بفظاظة. تباً للمجاملات.

استطرد بوتين:

- "لقد فكرت في مفهومك عن (العمودية). إنه مثير للاهتمام، لكنه لا يمكن أن يظل معلقاً في الهواء كالبالون الأحمر. يجب أن يُثبَّت على الأرض ويُطبَّق على ظرف واقعي. البلاد في فوضى وتحتاج إلى يد ثابتة، لكن سيكون من الوهم الاعتقاد بأنك تستطيع حل كل مشاكل البلاد دفعة واحدة. نحن بحاجة إلى موقف محدد بوضوح حيث يمكننا استعادة السلطة العمودية فوراً وبشكل ملموس. وإلا فإننا نخاطر بالخروج عن المسار ونبدو عاجزين مثل البقية".

قلت له:

- "صحيح يا فلاديمير فلاديميروفيتش، لكن الأشياء تحدث دائماً، وغير المتوقع يفرض نفسه".

- "ثق بي يا فاديم أليكسييفيتش، غير المتوقع هو دائماً نتيجة لعدم الكفاءة. ثم، ألم يقل صديقك القديم ستانيسلافسكي إن التقنية ليست كافية، وأن الإبداع الحقيقي يستدعي غير المتوقع؟"

لمعت في عيني بوتين تلك السخرية الخفيفة التي خُيل إليّ أنني رأيتها في مبنى "لوبيانكا"، لكنها هذه المرة كانت أكثر وضوحاً. أما أنا، فقد أُلجمت تماماً. كنت لأقسم أنه حتى الأسبوع الماضي لم يكن قد سمع باسم ستانيسلافسكي قط.

قال بوتين:

- "المسرح المثالي موجود أمامنا مباشرة. البلاد تحت الضغط. الأصوليون الإسلاميون يتطلعون إلى ما هو أبعد من الشيشان. إنهم يوجهون أنظارهم

الآن نحو داغستان وإنغوشيا وباشكيريا، ومن هناك سيزحفون إلى قلب البلاد. إذا لم نوقفهم، ففي غضون بضع سنوات لن يتبقى شيء من الاتحاد الروسي".

– "عذراً يا فلاديمير فلاديميروفيتش، لكن هذه ورطة شائكة سأفكر مرتين قبل الخوض فيها. في السنوات القليلة الماضية فقط، قتلت الشيشان مسيرات سياسية هنا في موسكو أكثر مما قتلت مقاتلين في ساحة المعركة".

– "لأن أياً من السياسيين لم يعالج الوضع بالقوة الكافية. أرادوا خوض حرب دون إعلانها، وإدارة صراع إنساني على الطريقة الأمريكية، وترى إلى أين أوصلهم ذلك. لقد ذبحهم الإسلاميون. ما أتحدث عنه مختلف. ليس لدي أي اهتمام بالفوز بجائزة نوبل للسلام. ما يهمني هو سحق الانفصاليين والقضاء على التهديد الذي يشكلونه لسلامة الاتحاد الروسي".

– "لن أجادل في الجغرافيا السياسية يا فلاديمير فلاديميروفيتش، لأنني لا أفقه فيها شيأً. لكن ما يمكنني قوله هو أن هذا سيكون انتحاراً سياسياً".

– "هنا أنت مخطئ يا فاديم أليكسييفيتش. لقد ابتلعتَ الفكرة الغربية القائلة بأن الحملة الانتخابية تتكون من فريقين من الاقتصاديين يتناظران حول عرض (باوربوينت). الأمر لا يسير بهذه الطريقة. في روسيا، السلطة شيء آخر تماماً".

لم أكن متأكداً وقتها مما قصده بوتين بالضبط. لكنني غادرت غداءنا وأنا متيقن من شيء واحد: لقد ارتكب بيريزوفسكي خطأً فادحاً. الرجل الذي تناولت الطعام معه للتو لن يسمح لأي شخص في العالم بأن يملي عليه ما يفعله. قد ترافقـه، ربما، وكنت أنوي فعل ذلك، لكنك بالتأكيد لا تستطيع قيادته. وكان على بوريس أن يستيقظ على هذه الحقيقة في أقرب وقت ممكن.

(11)

من يسكن الكرملين يمتلك ناصية الزمان. حول تلك القلعة، كل شيء في تغير مستمر، بينما يبدو أن الحياة في الداخل قد توقفت، لا يقطع سكونها سوى الدقات المهيبة لساعة برج سباسكايا والجولات المنتظمة للحرس الرئاسي. وكما كان الحال لقرون، فإن من يعبر عتبة تلك المستحاثّة العملاقة التي وضعها إيفان الرهيب في قلب موسكو، يشعر بيد السلطة المطلقة تستقر عليه؛ سلطة اعتادت طحن مصائر البشر لتجعلها هباءً بنفس السهولة التي تداعب بها رأس وليد. تنتشر هذه القوة في دوائر متحدة المركز عبر شوارع المدينة، مانحة موسكو ذلك الشعور بالتهديد المحدق الذي يشكل جزءاً كبيراً من سحرها. الكتلة القبيحة لمبنى "لوبيانكا"، والأبراج السبعة التي تطوق الشوارع المركزية، وناطحات السحاب في "موسكو سيتي" الحديثة، وفيلات روبليوفكا المزخرفة؛ كلها انعكاسات للطاقة المظلمة التي تتدفق من قلب القلعة.

لكن في صيف عام 1999، كُسرت تلك التعويذة. كل ما كان ينبعث من القاعات الكبرى للقصر الرئاسي هو الأنفاس الكحولية لدب سيبيري مترهل ومنهك، محاط بحاشية صغيرة من رجال البلاط المتحلين بالجواهر، والذين كان قلقهم يتزايد بينما الرجل الذي يدينون له بثرواتهم يتداعى. أصبح

يلتســن عبئاً ثقيلاً. لم يعد عاجزاً عن حمايتهم فحسب، بل كان من المرجح أن يجرهم جميعاً إلى الهاوية.

في الخارج، كانت المدينة المتوحشة تستشعر أن فكّي السلطة قد أرخيا قبضتهما. لم تعد موسكو عاصمة الإمبراطورية، بل تحولت إلى حاضرة تدق فيها الهواتف المحمولة أثناء عروض مسرح البولشوي، ويصفي فيها رجال العصابات حساباتهم بالبنادق الآلية، فارضين شريعة الغاب. لم يعد الكرملين هو من يضبط الإيقاع، بل المال هو السيد الآن. وسيارات المرسيدس المصفحة الخاصة بالأوليغارشية كانت تشق طريقها عبر شوارع وسط المدينة، تماماً كما كان حوذيو النبلاء في العهد القيصري يفسحون الطريق وسط الحشود بفرقعة سياطهم يمنة ويسرة. وفي تلك الأثناء، حين كانت الطبقة العاملة الوديعة في موسكو تعود من عملها، لم تكن تملك حتى المال لتشغيل المدفأة.

في أوائل أغسطس، اختار الدب العجوز رئيساً جديداً للوزراء لم يسمع به معظم الناس من قبل. قوبل ترشيح فلاديمير بوتين بتشكك عام.

كان خامس رئيس حكومة يعينه يلتسن في غضون عام وشيء. علق زعيم مجلس "الدوما" قائلاً: "لا جدوى من التصديق على التعيين، سيأتي شخص جديد ليحل محله في غضون شهرين على أي حال". لكن بوتين رأى الأمر بشكل مختلف. كان يعلم أن لديه بضعة أسابيع فقط ليترك بصمته على الرأي العام، ولم يكن يخطط لإضاعة أي وقت.

لم تكن مكاتبنا في الكرملين، بل في "بيت السوفييت" القديم، المعروف أيضاً بـ"البيت الأبيض" - كتلة عملاقة من النفثالين وُضعت على ضفاف نهر موسكو، لكنها فشلت رغم ذلك في حماية البلاد من العث. المبنى الذي كان مخصصاً أصلاً لاستضافة اجتماعات مجلس السوفييت الأعلى، بات يضم الآن، بتواضع أكبر، حكومة الاتحاد الروسي. بعد أن قصف الدب العجوز الطوابق

العليا بمدافع الهاون في لحظة غضب، جاءت شركة سويسرية لإعادة البناء، لكن المكان بالكاد كان يوحي بالكفاءة الألبية. كانت الممرات تعج بنماذج تبعث على الطمأنينة، شخصيات من الطراز القديم بملابس رمادية داكنة وبنية. بدوا وكأنهم يعيشون خارج اللحظة الراهنة، منحوتون من الشمع، بقايا عالم كان الزمن فيه يُقاس بكتل ضخمة، على النقيض من الإيقاع المحموم للمدينة، والدوامة الهستيرية للدولارات والكاميرات التي كنت جزءاً منها.

في الطابق المخصص لرئيس الوزراء، تم إخلاء حوالي عشرين غرفة للموظفين القادمين. انتقلنا إلى هناك: بوتين، إداريوه، المستشارون الاقتصاديون والعسكريون، وموظفو الاتصالات. عملنا ليل نهار. بالكاد استطاعت الجدران المعقمة احتواء عنف طموحاتنا. وفي الوقت ذاته، وعلى بعد أمتار قليلة، كان موظفو الحكومة القدامى يمارسون حياتهم، هادئين كتهويدة تغنيها جدة من القرن التاسع عشر. وعرفت لاحقاً أن الأمر دائماً هكذا في الوزارات؛ مجموعة صغيرة تعمل بجنون في غرفة واحدة، بينما يتراخى البقية. التفاعل بين المجموعتين محدود - نظرة احترام عابرة، مشوبة بالسخرية، بينما ينتظر القدامى مرور هذا الغزو المتكرر ليمضي كغيره، وهم على يقين تام بأن العشب سينمو مجدداً حيث يُداس الآن.

لا أعتقد أنهم أدركوا أننا نحن "النهاية"، وأن عصابتنا جاءت لتبقى. وكيف لهم أن يعرفوا؟ كنا نبدو مثل أي شخص آخر. ببدلاتنا المفصلة، وحواسيبنا المحمولة، وتعبيراتنا المتعالية لأشخاص يملكون كل الإجابات لأنهم يتقنون الإنجليزية. ومع ذلك، بدوتُ مختلفاً في نظرهم. أحياناً كان أحد تلك الأشباح الوزارية يستوقفني في الردهة:

- "هل لي أن أزعجك للحظة يا فاديم أليكسييفيتش؟"

- "بالطبع، أنا كلي آذان صاغية".

- "أردت فقط القول إنني عرفت والدك. كان رجلاً عظيماً. تلك كانت أياماً بحق... لم يعودوا يصنعون رجالاً من طينته!"

لا شك أن بعضهم قال ذلك تملقاً. لكن في الغالب، كانت تلك الأطياف التي تقاطعني لفترة وجيزة تريد فقط إجراء اتصال. العثور على شخص في فريقنا عرف العالم القديم كان يطمئنهم. وهل تعلم؟ كان يطمئنني أنا أيضاً. في كل مرة ينطق أحد هؤلاء الأشخاص، الذين يبدون وكأنهم فروا من صفحات رواية لـ غوغول، باسم أبي، كنت أشعر بموجة من الدفء، وتعود لي سنوات طفولتي؛ المعاطف الفرو، والسيارات الرسمية، وفطائر "البيروجكي" والقطع المقلية في شارع "غرانوفسكوفو". كنت أرى الحنين ذاته في عيونهم. كانوا يتذكرونني كطفل، أو على الأقل كشخص يشبهني، ربما ابنهم. كان لديهم الكثير ليفخروا به في ذلك الوقت. عملوا لمجلس السوفييت الأعلى، وللجنة المركزية. كانوا يعودون إلى منازلهم ويقولون لأطفالهم: "اليوم رأيت الرفيق غروميكو، كان عائداً لتوه من كابول، ويبدو مسروراً بشأن شيء ما. من الواضح أن الأمور تسير بشكل أفضل هناك في أفغانستان".

في الواقع، كان كل شيء قد انتهى، ومنذ وقت طويل. لكنهم ظلوا يؤمنون بالنظام القديم، أو على الأقل يتظاهرون بالإيمان به دون أن يخبرهم أحد أنهم مضللون. الآن فقدوا حتى الحق في التظاهر. لكنهم ما زالوا قادرين على الفخر بسنوات خدمتهم الطويلة، وقدرتهم على النظر إلى الوافدين الجدد عبر عدسة طويلة المدى. في حضرتهم، كنت أشعر أنني أقرب إلى أبي، وفهمت لأول مرة ما حدث له. وبشيء من الدهشة، اكتشفت أنني أيضاً أحمل الجين الذي يسمح لك بالتكيف مع هذا النوع من الحياة - أن تعيش كما لو كنت تقرأ كومة من الصحف، راغباً فقط في الانتهاء منها.

صحيح، كنت أعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم. جالساً بجوار رئيس الوزراء، شاركت في سيل متواصل من الاجتماعات، واتُخذت قرارات تاريخية في

كل واحد منها. لكن كلما تعمقت في عملية الحكم، بدا العالم أكثر امتلاءً بسوء الفهم، ومختنقاً بتفسيرات عقيمة وفرص ضائعة. تمرين واسع، لا ينتهي، يستهلك أعماراً كاملة دون أن يترك أثراً. كيف سولت لي نفسي أن أفكر في ترك بصمة على سطح هذا البحر الأخرس واللامبالي؟

عند هذه النقطة حدث ما لم يكن في الحسبان. في أحد أيام الخريف، بعد منتصف الليل بقليل، حين كان أهل موسكو الطيبون قد آووا إلى فرشهم، تاركين المدينة لرجال العصابات وعارضات الأزياء، دوّى صوت هائل في العاصمة المظلمة. في شارع "غوريانوفا"، في حي ناءٍ، نسفت مئات الكيلوغرامات من المتفجرات مبنى سكنياً مكوناً من تسعة طوابق. استهدف الانفجار عشرات العائلات التي كانت تغط في نوم عميق. وبعد أربعة أيام، وقع انفجار ثانٍ في الخامسة صباحاً. دُمر مبنى آخر في الضواحي، مخلفاً أكثر من مئة قتيل.

لاحقاً، كان هناك من قال إن القنابل فجرها حلفاء بوتين، أو عملاء الأجهزة الأمنية. بصراحة، لا أعرف أين الحقيقة. إذا كان سراً ظل طي الكتمان الشديد، فيسعدني القول إن أحداً لم يشاركني إياه قط. ومع ذلك، علمتني تجربتي أن الأمور غالباً ما تكون أبسط مما تبدو. في السياسة، العلاج يغني عن قنطار وقاية. إذا أوقفت هجوماً قبل وقوعه، فلن يعلم أحد بذلك، أما إذا تعاملت معه بحزم وقبضت على الجناة، فحينها نعم، ستجني رأسمالاً سياسياً منه. لكن شتان بين هذا وبين القول إن القنابل زرعها جهاز الأمن الفيدرالي وليس الإرهابيين الشيشان.

على أية حال، كانت تلك التفجيرات هي لحظة "11 سبتمبر" الخاصة بنا، قبل عامين من موعدها، وقد غيرت المشهد تماماً. حتى تلك اللحظة، كانت الحرب في الشيشان صراعاً بعيداً لا يهم سوى العائلات التي يخدم أبناؤها في

الجيش. وشكل هؤلاء أقلية ضئيلة. لكن عندما بدأت المباني في ضواحي موسكو تتطاير في منتصف الليل، آخذة معها مئات المواطنين الروس الشرفاء وهم نيام، طرقت الحرب أبواب الروس لأول مرة.

شعبنا باسل، ومعتاد على التضحية. لكن بعد انفجار تلك القنابل، ساد ذعر لم أر مثله من قبل. خاف الناس من العودة إلى منازلهم والنوم فيها. نظموا دوريات ليلية حول بيوتهم، وإذا تجول أي شخص في الحي وكان له أدنى أثر للحية، كان هناك احتمال كبير أن يُضرب حتى الموت.

لحسن الحظ، كانت الدولة في يد قائد قادر على الاستجابة. يميل الناس، عند النظر إلى الوراء، إلى نسب قوى خارقة للقيصر، لكن الحقيقة هي أن الصفة الوحيدة التي لا غنى عنها لرجل السلطة هي القدرة على استغلال الظروف. لا التظاهر بالسيطرة عليها، بل استغلالها بحزم.

لم يكن بوتين مولعاً بالخطابة، لكن كان من الواضح أن الشعب بحاجة لسماع صوته. كنا في كازاخستان في زيارة رسمية. وكان ذلك أفضل، لأن الألواح الذهبية في الكرملين كانت ستشتت الانتباه عن الرسالة. كنا بحاجة لموقع أكثر بساطة، المظهر الخشن لمجلس حرب مرتجل. بدأ المؤتمر الصحفي ببعض الأسئلة الفنية حول الوقت الذي استغرقته خدمات الطوارئ للوصول، وحالة التحقيق. أجاب رئيس الوزراء بهدوئه المعهود، بدقة ودون أدنى أثر للعاطفة - تماماً كالمسؤول الحكومي الزاهد الذي بدأ الروس يتعرفون عليه. ثم طرح عليه صحفي سؤالاً أكثر جدلاً بقليل:

"يبدو أنكم رددتم على الهجمات بإصدار أمر بقصف مطار غروزني. ألا تعتقدون أن هذا النوع من العمل قد يؤدي فقط إلى تفاقم الوضع؟"

ما حدث بعد ذلك هو أمر لا أستطيع تفسيره بالكامل حتى الآن. صمت بوتين للحظة. وعندما عاد للحديث، لم تتغير تعابيره، لكن حضوره اكتسب كثافة مختلفة، وكأن جسده قد غُمس في النيتروجين السائل. تحول المسؤول

الزاهد فجأة إلى ملاك الموت. كانت المرة الأولى التي أرى فيها ظاهرة كهذه. لم أشهد تحولاً مماثلاً قط، ولا حتى على خشبات أفضل المسارح.

قال بحدة، دون أن ينظر حتى إلى الصحفي الذي سأل:

- "لقد سئمت الإجابة عن أسئلة كهذه. سنضرب الإرهابيين أينما اختبأوا. إذا كانوا في مطار، سنضرب المطار، وإذا ذهبوا للتغوط - واعذروني على لغتي - فسنصفّيهم في المراحيض".

من مسافة زمنية بعيدة، قد لا يبدو الأمر جللاً، أو قد يضربك بابتذاله، لكن ليس لديك أدنى فكرة عن الوقع الذي أحدثته هذه الكلمات على الجمهور. كان ذلك صوت القيادة والسيطرة. لم يسمعه الروس منذ زمن طويل، لكنهم تعرفوا عليه فوراً، لأنه الصوت الذي نشأ عليه آباؤهم وأجدادهم. تنهيدة ارتياح كبرى اجتاحت شوارع موسكو وضواحيها الخائفة، وعبرت غابات سيبيريا وسهولها اللامتناهية. عاد أخيراً شخص في القمة يمكنه ضمان النظام.

في ذلك اليوم، تقمص بوتين دور القيصر بالكامل. أما بالنسبة لي، فقد ذكرني الأمر بإحدى عظات جدي. سألني يوماً ونحن نمشي في الغابة قرب كوخه الخشبي: "هل تعرف ما المشكلة؟ العين البشرية صُممت لتبقى على قيد الحياة في الغابة. ولهذا هي حساسة للحركة. كلما تحرك شيء، ولو في أقصى حواف مجال رؤيتنا، تلتقطه عيننا وترسل المعلومة إلى دماغنا. لكن هل تعرف ما الذي لا نراه؟". هززت رأسي. "ما يبقى ساكناً يا فاديا. في خضم كل التغييرات، نحن لسنا مدربين على إدراك الأشياء التي تظل كما هي. وهذه مشكلة كبيرة، لأنك حين تفكر في الأمر، تجد أن الأشياء التي لا تتغير هي دائماً الأهم".

درس لم أنسه قط. ولا أحد منا نسيه. ولهذا السبب، عندما يتحدث القيصر في السياسة، لا يذكر الأرقام أبداً. لغته تتحدث عن الحياة، وعن الموت، وعن الشرف، وعن الوطن. الحكم ليس نشاطاً يمكن تركه للعاجزين، لأولئك الكسالى جداً عن جمع المال، أو الخجولين جداً ليصبحوا نجوم روك. محاسبون يبحثون عن المجد، رجال صغار يظنون أن السياسة تتلخص في إدارة مجلس بناية.

الأمر ليس كذلك على الإطلاق. للسياسة هدف واحد فقط: معالجة مخاوف البشر. وبالتالي، عندما لم تعد الدولة قادرة على حماية مواطنيها من الخوف، أصبح أساس وجودها ذاته موضع تساؤل. عندما انتقلت المعركة حول القوقاز إلى موسكو في خريف 1999، وبدأت المباني المكونة من تسعة طوابق تتفتت كقلاع رملية، رأى المواطن الموسكوفي الطيب، الذي كان بالفعل تائهاً نوعاً ما، شبح الحرب الأهلية ينتصب أمامه لأول مرة. الفوضى، الانحلال، الموت. الرعب البدائي، الذي فشل حتى تفكك الاتحاد السوفييتي في إيقاظه، بدأ يتسرب إلى عقول الناس: ما الذي سيحدث لي؟

السلطة العمودية تقدم الإجابة الشافية الوحيدة، الوحيدة القادرة على تهدئة قلق الإنسان حين ينكشف أمام وحشية العالم. بعد انفجار القنابل، أصبحت استعادة "عامود السلطة" أولوية القيصر القصوى. الانتقال من المنطق الغربي للسلع والأدوات، ومن مناظرات البيروقراطيين المأخوذين بالرسوم البيانية، لبناء نظام يستجيب بدلاً من ذلك لحاجات الإنسان الأساسية. تلك كانت المهمة التي انخرطنا فيها حينها. السياسة العميقة، ليلاً ونهاراً، وبلا انقطاع.

(12)

في صباح يوم 31 ديسمبر 1999، وهو اليوم الذي امتلأت فيه صحفكم بمقالات سخيفة عن "مشكلة عام 2000" (Y2K)، ذلك الخلل البرمجي الذي كان من المفترض أن يصيب أجهزة الكمبيوتر بالجنون ويسقط الطائرات من السماء، استدعاني بوتين إلى مكتبه.

- "أخبرني يا فاديم، هل علموك القفز بالمظلات في أكاديمية الفنون المسرحية؟"

بدا لي السؤال في غير محله، فالتزمت الصمت.

- "لكنهم على الأقل علموك كيف تتظاهر، أليس كذلك؟"

لمع بريق مألوف مشبع بالسخرية في عيني القيصر. وبجانبه، كان سيتشين يستمتع بالمشهد بكل تلذذ كلب "دوبرمان" ظفر أخيرًا بقط الجيران. ولما كنت لا أزال صامتًا، أضاف بوتين بحدة:

- "على أية حال، استعد. سنغادر بعد ظهر اليوم."

وكما أُعلن، توجهنا إلى المطار العسكري بعد بضع ساعات، حيث كانت طائرة تنتظر لتقلنا إلى عاصمة داغستان. ومن هناك، انتقلنا إلى ثلاث مروحيات متوجهة إلى "غوديرميس" في الشيشان. بدأنا فورًا نستنشق هواء الإثارة والجنون الذي يحيط بالحرب، حيث يصبح مجرد البقاء على قيد الحياة

دفقة من الأدرينالين بحد ذاته. كان كل هذا جديدًا عليّ؛ فآخر بقايا امتيازاتي الموروثة كانت قد أعفتني من الخدمة العسكرية في الثامنة عشرة. والآن، وبينما كنت أستمع بشرود إلى تبادل المجاملات بين بوتين والضباط، وأتنشق أولى أبخرة الحرب، بدأت أفهم لماذا قد يفضلها بعض الرجال على أي منشط آخر.

على عكس المروحيات المدنية التي ركبتها من قبل، لم يكن لهذه المروحية أي نافذة تطل على العالم الخارجي. كنا داخل مقصورة مصفحة، معلقين فوق القوقاز في ظلام الليل الدامس، وتلك الحقيقة البسيطة حولتنا في غضون دقائق من غرباء إلى إخوة، لا يجمعنا الخوف بقدر ما يجمعنا الواجب الحتمي بعدم إظهار أدنى أثر له. ورغم الضجيج الصم للأنصال الدوارة، شعرنا جميعًا بالحاجة إلى الحديث. بدأنا بتبادل ذكريات ليلة رأس السنة من طفولتنا. كان البعض قد نشأ في قرى صغيرة، في قازان أو نوفوسيبيرسك، لكن سرعان ما أدركنا أن أحدًا منا لم يتخيل قط أن يقضي ليلة رأس السنة في مروحية مع القيصر. كان بوتين، الجالس في الصف الأمامي، يلتفت إلينا باستمرار، وكان بوسعنا أن نرى من تعبيراته أن دهشته وذهوله كانا أكبر حتى من دهشتنا. ضد كل الاحتمالات، أصبح هو القيصر الآن.

في لحظة ما، أدرك أحدهم أن منتصف الليل قد اقترب. أخرج سيتشين، الذي لم يكن قد طور بعد ذائقته للنبيذ الفرنسي الفاخر، زجاجة شامبانيا مولدوفية. شربنا نخب صحة الشعب الروسي، ونخب القوات التي كنا ذاهبين لزيارتها، ولكن في تلك اللحظة أبلغنا الطيار أنه لن يتمكن من الهبوط. كان بحاجة لرؤية بمدى مئة وخمسين مترًا، ولم يكن لديه سوى مئة متر، أو شيء من هذا القبيل. تغير الجو فورًا. أصر القيصر على ضرورة الهبوط، ولكن عندما فهم أن ذلك لن يحدث، اعتصم بالصمت. عادت المروحيات أدراجها. ظن الجميع أن المهمة قد أُلغيت. وعلق أحدهم بنبرة متكلفة قائلًا إن هناك

الكثير من القوات التي يمكننا استعراضها في داغستان، ويمكننا دائمًا الذهاب إلى غوديرميس في يوم آخر.

حرصتُ على ألا أنبس ببنت شفة. فنصح الحاكم بالتراجع ليست فكرة جيدة أبدًا، حتى في أتفه الأمور. وفي الواقع، ما إن هبطت المروحيات عائدة إلى حيث انطلقنا حتى أدركنا أنه إذا كانت الشيشان هي المكان الذي أراد القيصر الاحتفال فيه برأس السنة، فالشيشان هي وجهتنا، حتى لو كان الثمن المخاطرة بتفجير لغم أرضي أو السقوط في صدع جبلي. في الواحدة صباحًا، ركبنا سيارات الجيب وتوجهنا نحو الممر الجبلي. ولزمن بدا كالدهر، غارقين في ظلام دامس، قدنا عبر وديان القوقاز. ومع انعدام الرؤية، كنا نستشعر في الظلال حولنا مشهدًا باردًا، أسود، تعصف به الرياح، ونستشعر الإرادة التي لا تقهر للرجل الذي يقودنا.

استغرق الأمر قرابة أربع ساعات، لكننا وصلنا إلى غوديرميس قبيل الفجر بقليل. كان الجنود ناعسين ومندهشين. لم يصدقوا أن القيصر تكبد كل هذا العناء لزيارتهم. كان معظمهم مجرد صبية في زي عسكري، يفركون عيونهم وكأنهم في حكاية خرافية.

بعد استعراض سريع للقوات، وجدنا أنفسنا في خيمة مع حوالي ثلاثين ضابطًا. هناك، كان بإمكانك أن تشعر بالموقف مجردًا من كل الزوائد، كما لو كنا في العصر الحديدي. لا شك أن زيارة السلطات الحكومية كانت مثيرة للإعجاب، لكننا كنا في مكان تُكتسب فيه السلطة في ميدان المعركة. قرب الموت بسّط الأمور إلى حد كبير. لم يكن للصيغ المهذبة مكان هنا. نظر الرجال إلى بوتين بذلك المزيج من التوقير والسخرية الذي يميز المواقف الروسية تجاه السلطة. بدوا وكأنهم ينتظرون شيئًا ما. التقط مصور رافقنا صورًا للحدث. كان من الصعب ألا نبدو كسياح. واحتفالًا بالعام الجديد، وضع قائد الوحدة الشامبانيا للنخب. اتجهت كل العيون إلى القيصر.

لكن بوتين، وكأس الشامبانيا بيده بالفعل، أوقف المراسم.

قال، ونظراته الصلبة تجول بين الرجال المجتمعين:

- "لنتوقف للحظة. أود أن أشرب نخب صحة الجرحى وأهنئ الجميع هنا بالعام الجديد. لكننا نواجه عقبات كثيرة على الطريق أمامنا. وتنتظرنا مهام شاقة. أنتم تعلمون ذلك. وتعلمون ما يخطط له العدو لكم. ونحن نعلم ذلك أيضًا. نحن نعرف الضربات التي يجهزونها، وأين ستقع. لا يمكننا السماح لأنفسنا بلحظة ضعف واحدة. ولا لثانية واحدة. إذا خفضنا دفاعاتنا، سيكون الموتى قد ماتوا سدى. لذا أقترح عليكم أن نعيد كؤوسنا إلى الطاولة. سنشرب معًا، ولكن في وقت لاحق."

لم أكن أنا من اقترح عليه ذلك. ولا أعتقد أنه خطط لهذه اللفتة مسبقًا. لكنها وقعت على الجميع وكأنه أفرغ دلوًا من الماء المثلج فوق رؤوسهم. في تلك اللحظة، أصبح القيصر وأفراد الجيش شيئًا واحدًا، كعائلة وسط حريق هائل، يجمعها الحب والكبرياء. بعد ذلك، ومحاطًا بالضباط، وزع القيصر الميداليات وسكاكين الصيد على الجنود قائلًا:

- "أنتم لستم هنا فقط للقتال من أجل شرف وكرامة بلدنا، أنتم هنا لوضع حد لتفكك روسيا."

في تلك الليلة، وعلى شاشات الأخبار، رأى الروس جنودهم، والدموع تترقرق في عيونهم، يظهرون فخرًا وتصميمًا لم يُرَ مثلهما منذ سنوات. لأنهم، مرة أخرى، أصبح لديهم قائد يتولى القيادة.

حينها بدأت أشك في أن بوتين ينتمي إلى ما أسماه ستانيسلافسكي قبيلة الممثلين العظام. كان يعتقد أن الممثلين ثلاثة أنواع. الأول يمتلك موهبة فطرية، وعندما يكون في أفضل حالاته يمكنه أن يأخذ الجمهور إلى عالم آخر. لكن الأمر يختلف في أيامه السيئة، حيث يصبح مبالغًا ومحرجًا. هذا هو نوع الممثل الذي يمكنه تدمير عمل فني بمفرده. ثم هناك الممثل المنهجي، الذي

يدرس الدور، ويقوم بتمارين التنفس، ويكرس أمسياته للتدرب على الإيماءات ونبرات الصوت. هذا النوع، في المقابل، لن يأخذك إلى ذرى المشاعر العظيمة، لكنه لن يخذلك أيضًا. إنه يفعل دائمًا ما يجب فعله، ويمكنك الاعتماد على كليشيهاته الثابتة في كل الظروف.

بوتين ليس من هؤلاء ولا أولئك. إنه، مثل كل السياسيين العظماء، ينتمي إلى النوع الثالث: الممثل الذي يضع ذاته على المسرح، الذي لا يحتاج للتمثيل لأن الدور جزء أصيل منه لدرجة أن حبكة المسرحية أصبحت قصته الخاصة، وتجري في عروقه. عندما يجد المخرج نفسه أمام موهبة بهذا الحجم، لا يتبقى له عمليًا شيء ليفعله. عليه فقط أن يتبع. يتجنب إدخال تعقيدات. ويعطي ممثله دفعة خفيفة من وقت لآخر.

هكذا سارت الحملة الانتخابية. نظريًا، كنت أنا مديرها، واستراتيجيها - لاستخدام مصطلح بوريس، الذي ظن أنه هو الاستراتيجي. لكن الواقع لم يكن كذلك. كان بوتين قد أمسك بزمام الأمور بالفعل. وحده.

وبينما كان كل هذا يحدث، كان بيريزوفسكي لا يزال يعيش في عالم الأحلام. كان يلاحق القيصر بالمكالمات الهاتفية وطلبات الاجتماع. طرح نفسه وسيطًا للتعامل مع الشيشان، وسفيرًا لأوروبا، ومديرًا للحملة في موسكو. لا شيء أسوأ من فيروس السياسة. خاصة عندما يصيب شخصًا لا يمتلك الأجسام المضادة لمقاومته. كان بوريس رجلًا ذكيًا للغاية. لكن الذكاء لا يحميك من شيء، ولا حتى من الغباء.

أذكر اجتماعًا في مكتب القيصر بالبيت الأبيض. لم يكن بيريزوفسكي قد رأى بوتين منذ عدة أسابيع، وكان أكثر هياجًا من المعتاد.

- "لقد أصبحنا سلبيين للغاية يا فولوديا، سوداويين جدًا. لا بأس بالحرب، وكلنا نعلم أنك جنرال عظيم، وأنك ستقودنا للنصر - سأبني لك حتى

قوس نصر إذا أردت. لكن هل تعلم ماذا فعل يوليوس قيصر عندما عاد من بلاد الغال؟ استدان حتى أذنيه ليقيم للرومان احتفالًا لمدة ثلاثة أسابيع. (الخبز والسيرك) يا فولوديا، هل يعني هذا شيئًا لك؟ في حالتك، لن تضطر حتى للاستدانة، لأنني سأدفع التكاليف. لكن دعنا نعطِ هؤلاء الروس المساكين شيئًا، وإلا فلن يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، وسيقفزون جميعًا من النوافذ!"

في الواقع، الشخص الذي أراد القفز من النافذة كان بيريزوفسكي نفسه، والقيصر كان يعلم ذلك. كان بوريس بحاجة للشعور بأنه لا غنى عنه، لكنه أحس أن فائدته تتضاءل يومًا بعد يوم. "اللاحملة" التي أعددتها لبوتين لم تكلف روبلًا واحدًا، بينما كان بوريس بحاجة لتسجيل نقاط لدى مرشحه. أراد منا أن نستخدمه، ونستخدم محطاته التلفزيونية، وأمواله المشبوهة للدفع مقابل الإعلانات التلفزيونية، والملصقات، والمسيرات.

- "يقولون لي إنك رفضت حتى فترات الدعاية المجانية على التلفزيون؟ بهذا المعدل سينسى الناس أنك مرشح يا فولوديا. سيظنون أنك تنسحب لصالح لوجكوف أو بريماكوف."

- "لا تكن سخيفًا يا بوريس."

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها القيصر يتحدث بحدة لبيريزوفسكي.

- "نحن الحكومة. الأخبار هي حملتنا، الإجراءات التي نتخذها، التاريخ الذي نكتبه. لم يعد أحد يصدق الإعلانات. الحقائق هي الدعاية الوحيدة التي تهمنا."

انتفض بيريزوفسكي وكأن عقربًا قد لدغه. للحظة عابرة ظننت أنه أدرك أخيرًا مدى سوء تقديره. لكنني كنت مخطئًا بالطبع. كان بوريس قد توغل بعيدًا جدًا في طريقه الخاص. سنوات من المراهنات التي أتت أكلها بسخاء والتمتع بسلطة غير محدودة قد سمنته كديك رومي لعيد الميلاد. لقد فقد

قدرته على قياس موازين القوى بدقة. وبدلًا من تحليل الديناميكيات الحقيقية لما يحدث أمامه، اعتاد تقييم كل شيء من منظور العلاقات الشخصية. صحيح أنه ساعد القيصر في الصعود إلى السلطة. ويمكنني أن أضيف أن بوتين ليس جاحدًا. إنه لا يكافئ من ساعدوه بإرسالهم للعمل في مناجم الملح. في هذا، على الأقل، كان بيريزوفسكي محقًا. شعر القيصر بامتنان حقيقي وتصرف وفقًا لذلك.

لكنه كان رجلًا خُلق للسلطة. انجذب إليها، وفهمها، واحتاجها. لا أعرف كيف تخيل بوريس أنه بعد صعود القيصر إلى العرش، سيوافق على مشاطرته الصولجان. أو حتى التفكير في السماح لأحد رعاياه بالوقوف معه على قدم المساواة. كان عليك فقط النظر إليه للحظة لتدرك ذلك. لكن تلك كانت المشكلة: لم يخصص بيريزوفسكي لحظة واحدة للنظر بعناية إلى بوتين. لقد رآه كمنفذ صامت، ولم يتخيل قط أن تحفظ بوتين الجامد يخفي أي شيء سوى طبيعة دؤوبة ومطيعة.

وبينما يتفوق كل منا في أشياء دون غيرها، نادرًا ما رأيت شخصًا يجمع بين ذكاء حاد وغباء مدقع مثل بيريزوفسكي. كان بإمكانه هندسة أعقد الصفقات وإظهار ثروة هائلة من العدم، كجني يخرج من قمقم. لكنه كان يغفل تمامًا عن أشياء تكون واضحة لأدنى مرؤوسيه. في التحليل الأخير، أعتقد أنه كان منشغلًا بنفسه لدرجة أنه لم يكن لديه وقت لمراقبة الآخرين، وهو عيب سيكلفه الكثير في النهاية.

(13)

أعاد القيصر بناء «عمودية السلطة»، فكافأه الناخبون على ذلك. فزنا في الانتخابات من الجولة الأولى، دون حاجة لإعادة. بيد أن المعركة ضد القوى التي تهدد بتمزيق البلاد لم تكن قد بدأت إلا للتو، وكان أشد الأعداء خطرًا يقبعون داخل معسكرنا. بعد انتخاب بوتين، جلس بيريزوفسكي يترقب. كفّ عن قصف الكرملين بالمكالمات الهاتفية. ورغم أن أحد صحفييه انتقد حفل التنصيب لما شابه من بذخ مفرط، وأطلق آخرون تعليقات ساخرة حول التعيينات الحكومية الجديدة، إلا أنه كان من الجلي أن بوريس ينتظر شيئًا آخر: الفرصة لجعل القيصر يدرك من هو الحاكم الفعلي. وذات يوم، حانت الفرصة.

كان ذلك في منتصف أغسطس، وقد غادر بوتين موسكو لقضاء إجازة في سوتشي. في تلك الأيام، لم يكن القيصر مدققًا في وسائل ترفيهه. لم يكن قد التقى برلسكوني بعد، ولم يكن قد أولع بساعات «باتيك فيليب» محدودة الإصدار أو اليخوت التي يبلغ طولها ثلاثمائة وستين قدمًا. بضعة أيام من الرفاهية التي توفرها الدولة في المقر الصيفي السابق لسكرتير الحزب الشيوعي مع زوجته وابنتيه، ونزهة بالقارب، وشواء لحم الخنزير وسمك الحفش في طقس مشمس؛ كان ذلك يكفي تمامًا لإرضاء الأذواق البسيطة للموظف الذي لم يكد يخلع عباءته عنه إلا مؤخرًا.

ولكن، لم تكد تمضي بضعة أيام على إقامته في سوتشي، حتى قُطعت راحة القيصر فجأة حين غرقت غواصة نووية روسية في بحر بارنتس. كان على متنها نحو مائة من أفراد الطاقم؛ قضى بعضهم نحبه فورًا، بينما حوصر الباقون في قاع البحر. في البدء، حاولنا إبقاء الحادث طي الكتمان، جريًا على عادتنا المألوفة، لكن في غضون يومين بدأت الأخبار تتسرب، ولم نكن نعلم كيف.

انقضّ بيريزوفسكي كدب يترصد فريسته عند حافة النهر. قطعت محطته التلفزيونية (ORT) برامجها لتقدم تغطية حية ومستمرة للحدث. استأجروا طائرة مروحية للتحليق فوق المنطقة التي هوت فيها الغواصة. وسافروا إلى العواصم الأوروبية لمقابلة الخبراء الذين تساءلوا عن سبب رفض السلطات الروسية للعروض الغربية للمساعدة في إنقاذ البحارة. بثوا فقرات حلل فيها المهندسون احتمالات الاختناق، وقدم فيها علماء النفس وصفًا دقيقًا لرهاب الأماكن المغلقة. ثم جاء دور العائلات. ذهب المراسلون وعثروا على أقارب البحارة المحاصرين، واحدًا تلو الآخر. كان لكل جدة حكاية تدمي القلب، ولكل خطيبة صورة للبطل الذي غرق في قاع البحر وهو يدافع عن بلاده. كانوا جميعًا غاضبين من الحكومة التي تصرفت في البداية وكأن شيئًا لم يحدث، ثم فشلت في تنظيم حتى أبسط عمليات الإنقاذ.

"إنهم يختنقون بحثًا عن الهواء في الأسفل! أولادنا يموتون اختناقًا!". ارتفعت جوقة من الألم من أحشاء الشعب الروسي. أو هكذا صورت الأمر محطة بيريزوفسكي التلفزيونية على الأقل. وأين كان القيصر بينما كان كل هذا يحدث؟ عند البحر الأسود، يستمتع بإجازته! يركب الزلاجات المائية! وحش. عديم الكفاءة. لم يدخر المتحدثون عبر الشاشات أي نقد. وللمرة الأولى، بدا انفصال القيصر الخارق للطبيعة، والذي كان دائمًا جزءًا من جاذبيته، سمة سلبية وغير إنسانية.

هرعتُ إلى سوتشي بأقصى سرعة ممكنة. لم يكن واضحًا لي أيضًا، في البداية، سبب عدم ذهاب بوتين إلى موقع الحادث فورًا.

تذمر قائلاً:

- "ماذا تريدون مني أن أفعل؟ لقد ماتوا جميعًا. هذا واضح. لا يمكننا قول ذلك بعد لأننا لم نصل إليهم، لكن هذا ما حدث بوضوح. وسيرك بيريزوفسكي هذا ليس سوى ذلك: مجرد سيرك".

كان ذلك صحيحًا بلا شك. لقد نصب بيريزوفسكي الخيمة الكبيرة، وشيد مدرجات المتفرجين، وكان ينتظر الآن نزول بوتين ليستعرض نفسه في الحلبة. لكن القيصر، الذي استشاط غضبًا من فكرة لعب دور الوحش الذي تم ترويضه، لم تكن لديه أي نية لمنحه هذا الرضا. قال للمتحدث باسمه:

- "أخبرهم أنني لا أريد عرقلة عمليات الإنقاذ".

كانت تلك هي الرواية التي توجب علينا ترويجها للعالم الخارجي. لكنها لم تفلح؛ كانت حجة مفرطة في العقلانية كجواب على انفجار من الهستيريا. هل حقًا لم يكن بوتين يدرك ذلك؟

ذات ليلة، ولعلها كانت في اليوم الثاني أو الثالث للأزمة، كنا نشاهد نشرة الأخبار المسائية. كان القيصر يعتبر متابعة الأخبار المتلفزة مسألة شرف حتى في الأوقات العادية، وفي تلك الأيام لم تفته نشرة واحدة. بعد الفقرات المعتادة عن عدم كفاءة البحرية، وغياب بوتين غير المبرر، ورد فعل الأجانب المصدوم، ويأس عائلات الطاقم، التفت مذيع الأخبار نحو الكاميرا وقال:

- "نظرًا لتقاعس الحكومة، قررت قناة (ORT) إنشاء صندوق لصالح عائلات البحارة. إذا كنتم ترغبون في إرسال المساعدة لأحباء الأبطال الذين تخلت عنهم الحكومة الروسية لمصيرهم، اتصلوا بهذا الرقم".

انفجر بوتين غضبًا.

صاح بي:

- "هل تدرك ما يحدث يا فاديا؟ نفس الأشخاص الذين أمضوا السنوات العشر الماضية في تدمير الدولة، الذين سرقونا حتى العظم، الذين جعلوا جيشنا يقف في طوابير الخبز، لديهم الآن الوقاحة لتنظيم صندوق لعائلات الضحايا! صندوق خيري! ربما يجدر بهؤلاء المنافقين أن يتخلوا عن شاليهاتهم في «سان موريتز» أولاً! اطلب لي ذلك ابن العاهرة على الهاتف، اتصل به على هاتفه المحمول!".

لم يكن بحاجة لتوضيح من يقصد. لبعض الوقت، استمع بيريزوفسكي بهدوء بينما كان بوتين يقرعه بغضب وسخط. كدت أرى بوريس مستلقيًا على كرسي بجانب المسبح، وعلى وجهه تعبير قط فارسي راضٍ عن نفسه.

تحدث أخيرًا:

- "لكن يا فولوديا، أخبرني شيئًا واحدًا فقط: لماذا أنت على شواطئ البحر الأسود؟ يجب أن تكون في الموقع، تنسق العمليات. أو في موسكو على الأقل".

رد القيصر وقد أعماه الغضب:

- "وماذا عنك يا بوريس، لماذا أنت في «كوت دازور»؟".

- "بحقك يا فولوديا، أنا لست الرئيس. لا أحد يهتم أين أكون".

كان محقًا. وكما يحدث غالبًا، لم يشفع له ذلك.

- "هل تدرك يا بوريس، أن محطتك، ونحن نتحدث الآن، تبث مقابلات مع عاهرات دُفع لهن لتمثيل دور زوجات وأخوات البحارة؟ أنت تدير تلفزيون الدولة وتتآمر ضد منصب الرئيس؟ هل فقدت عقلك؟".

على الطرف الآخر من الخط، توتر بيريزوفسكي هو الآخر الآن.

- "عما تتحدث؟ هؤلاء لسن ممثلات يا فولوديا، إنهن نساء حقيقيات! كنت ستعرف ذلك لو ذهبت وتحدثت إليهن بدلاً من الاستماع إلى أزلامك في جهاز الأمن الفيدرالي!".

استمرت المحادثة على هذا المنوال لبعض الوقت، حتى غير بوريس نبرته: إذا حضر بوتين اجتماع أهالي البحارة، قال بوريس، فإن قناة (ORT) ستضمن تغطية إيجابية للرئيس.

كانت فكرة أن يملي بيريزوفسكي عليه أفعاله بغيضة للغاية للقيصر. لكن ما عساه يفعل في ظل هذه الظروف؟ فجأة، بدا وكأنه هو من يرقد في تابوت فولاذي في قاع المحيط. والشخص الوحيد القادر على رفعه إلى السطح هو بوريس.

حين وضع السماعة، كان وجه القيصر شاحبًا كقناع من الشمع.

قال بصوت خافت:

- "سنذهب إلى موسكو ونرتب هذا الاجتماع اللعين. وبمجرد أن نترك هذا الوضع الصغير وراءنا، سنتولى أمر صديقك".

(14)

ثمة قصة لـ إسحاق بابل، مستوحاة من تجاربه في الحرب، بعنوان «إوزتي الأولى». تدور حول شاب يهودي في يومه الأول بالجيش الأحمر (أي: الجيش السوفييتي) خلال حملة عام 1920. يصل للتو، فيبدأ رفاقه في الثكنة، وهم قوزاق أُميّون، في مضايقته بسبب نظارته وهيئته المثقفة. ينهض أحدهم، ودون كلمة، يلقي بصندوقه إلى الشارع، ثم يدير ظهره ويصدر أصواتًا ساخرة. هل يئن الشاب أو يشتكي؟ كلا، بل يمسك بإوزة كانت تتهادى بسلام في المكان، ويدوس رأسها بحذائه الثقيل، ثم يغرس سيفه فيها ويحملها إلى الطباخ الذي رفض تقديم العشاء له. يقول له: "اشوِ لي هذه". منذ تلك اللحظة، بالطبع، رحب القوزاق به بينهم. قد يرتدي اليهودي الصغير نظارة، لكنه رفيق جيد في العمق وقد أثبت أن لديه عزيمة.

كان بيريزوفسكي هو «إوزتي الأولى». كانت خلفيتي من المسرح، وكان أبي مثقفًا، وكان عليّ أن أثبت للقوزاق أنني لست ضعيفًا. كان انتزاع محطة بوريس التلفزيونية سهلاً بما يكفي. لم يكن بيريزوفسكي يمتلك حصة الأغلبية في (ORT)، بل 49 بالمائة فقط. والباقي ملك للدولة. كل ما كان علي فعله هو الاتصال بالرئيس التنفيذي للمحطة وإخباره بأنه سيتلقى تعليماته من الكرملين من الآن فصاعدًا، وليس من «لوغوفاز».

- "ألم يكن ذلك وحشيًا بعض الشيء؟".
- "حسنًا، كما يقول المثل القديم: رحمة الجلاد تكمن في خفة ضربته".

صحيح أن بوريس لم يتقبل الأمر بصدر رحب. توقف المسؤولون التنفيذيون في (ORT) عن تلقي مكالماته بين عشية وضحاها. وطُرد مراسله النجم فورًا. حتى الحسناوات اللواتي عملن كمضيفات في نادي «نوفوكوزنيتسكايا» لم يعد بإمكانهن الظهور على الهواء. جن جنون بيريزوفسكي. وبدأ يطلق سيلاً من الشتائم القاسية على الجميع دون استثناء. ولأن بوتين لم يكن يرد على مكالماته، كان يتصل بي ليصب جام غضبه، ناسبًا كل نوع من الآثام إليّ، بما في ذلك بعض ما لم أرتكبه.

كان هذا كله طبيعيًا تمامًا. أي شخص كان ليفعل الشيء نفسه مكانه. لكن بيريزوفسكي لم يكن "أي شخص". ولهذا السبب، وبدلاً من قبول الهزيمة، ارتكب خطأً قاتلاً: دعا إلى مؤتمر صحفي للتنديد بإساءة الإدارة لاستخدام السلطة، محذرًا من أن روسيا تتحول إلى دولة استبدادية. وقف أمام الكاميرات ليرغي ويزبد حول حرية الصحافة وانتهاك حقوق الإنسان كما لو كان سولجينيتسين. لكن الجمهور رآه على حقيقته؛ سمسارًا عديم الضمير يتخبط للتشبث بالسلطة التي فقدها بسبب الصعود السياسي للقيصر.

كان بيريزوفسكي ذكيًا للغاية، لكنه لم يدرس التاريخ. وإلا لعرف أن قواعد السلطة، بخلاف قوانين الطبيعة، قابلة للتغيير. حدث صعود الأوليغارشية خلال نوع من «الفاصل الإقطاعي» بعد سقوط النظام السوفيتي. أصبح بوريس والآخرون أعمدة لنظام يعتمد فيه الكرملين بشكل كبير عليهم، وعلى أموالهم وصحفهم ومحطاتهم التلفزيونية. عندما قرر الأوليغارشيون دعم بوتين، ظنوا أنهم يختارون ممثلاً جديدًا، لا أنهم يغيرون النظام بأكمله.

اعتبروا انتخاب القيصر حدثًا متواضعًا، في حين كان بداية لحقبة جديدة. حقبة سيعاد فيها تعريف دورهم.

أي شخص يعرف روسيا يدرك أن السلطة في بلادنا تخضع دوريًا لانزياحات تكتونية. قبل وقوعها، قد تحاول تغيير مسارها. لكن بعدها، تصطف كل الأجزاء المتشابكة للمجتمع وفقًا لمنطق صامت لا يرحم. والتمرد على هذه التحولات لا يقل عبثًا عن معارضة دوران الأرض حول الشمس.

كان بيريزوفسكي وبقية الأوليغارشيين يحبون تقديم أنفسهم كأعمدة للديمقراطية، وتوقعوا أن يخرج الناس إلى المتاريس للدفاع عنهم. لكنهم بالغوا في تقدير شعبيتهم. نحن، من ناحية أخرى، كانت لدينا فكرة جيدة عن الأمر. إذا نظرت إلى أرسطو، سترى أنه وفقًا له، فإن أول إجراء يتخذه الغوغائي عند وصوله للسلطة هو نفي جميع الأوليغارشيين. كان الناس ينظرون إلى بوريس وأمثاله كمنتفعين استنزفوا كميات هائلة من الثروة المتراكمة للاتحاد السوفيتي باستخدام تدابير وحشية. ثم، بمجرد أن كدسوا جبال أموالهم، وخلعوا ستراتهم الواقية من الرصاص وارتدوا بدلات مفصلة، أعلنوا أن زمن الوحشية قد ولى، وأن اللعب الآن يجب أن يكون نظيفًا ووفق قواعد مجلس اللوردات. إنه أمر منطقي حقًا أن يختار الكثير منهم لندن منفى لهم. وإلى هناك توجه بيريزوفسكي عندما أدرك أخيرًا مدى فداحة سوء تقديره للموقف.

ذهبت لرؤيته في دار «لوغوفاز» في زيارة أخيرة قبل رحيله بوقت قصير. كان القيصر قد طلب مني إخباره بأنه لا يزال يعتبره صديقًا. قال لي:

- "تأكد من أنه يفهم ضرورة بقائه بعيدًا عن السياسة من الآن فصاعدًا. إذا فعل ذلك، يمكنه البقاء بهدوء في موسكو لإدارة أعماله، هذا لا يعنيني. أو يمكنه الإبحار إلى الجانب الآخر من العالم. لكن إذا دس أنفه في السياسة، فسيجدنا دائمًا نقطع الطريق عليه".

قلة من الأشياء تبعث على الحزن أكثر من مقر سلطة مهجور، حيث تحضر أشباح الماضي بقوة أكبر من الرجال من لحم ودم الذين ما زالوا عالقين فيه. عندما ذهبت إلى دار «لوغوفاز»، كان بيريزوفسكي وحيدًا تقريبًا. نقلت رسالة القيصر بألطف العبارات التي تمكنت من صياغتها، لكنه مع ذلك لم يتقبلها بصدر رحب. حاول في البداية كبح جماح نفسه، ولكن مع تقدم الحديث، أطلق العنان للغضب الذي كان يعتمل في داخله لشهور.

- "بوتين «تشيكيست» (أي: رجل مخابرات) يا فاديا، تشيكيست من أسوأ نوع، من النوع الذي لا يدخن ولا يشرب. هؤلاء هم الأسوأ لأن رذائلهم مخفية. سيضع روسيا في الأصفاد. كل ما فعلناه في السنوات القليلة الماضية لنصبح دولة طبيعية سيذهب أدراج الرياح. وأنت أيضًا يا فاديا، عاجلاً أم آجلاً. ولكن، إذا فكرت في الأمر، أنت بالفعل ترتدي طوقًا، أنت كلب التشيكيست المدلل. تمامًا مثل أبيك. إنه في دمك، تلك القابلية للخضوع. تسمون أنفسكم أرستقراطيين؟ أنتم أقنان حتى النخاع، وكنتم أقناناً لأجيال!".

مرت كلماته عليّ دون أن تترك أثرًا، كمجرى سيل جبلي فوق صخرة. خطر لي بشكل عابر أن كوستين كان ليظنه محقًا. مؤسف أن بوريس لم يقرأ للرجل قط، كان ليجده مفيدًا. اندفع بوريس في حديثه، مناقضًا نفسه وهو يسترسل:

- "لكنكم لن تفلتوا بفعلتكم يا فاديا. فكر في الأوروبيين، في الأمريكيين، لن يسمحوا بذلك. لقد تذوق الروس طعم الديمقراطية الآن. ستكون هناك حرب أهلية...".

جعلني ذكره للحرب الأهلية أضحك. فكما قال دبلوماسي فرنسي ذات مرة: ميزة الحرب الأهلية عن غيرها هي أنه يمكنك العودة إلى المنزل لتناول الطعام.

– "صحيح يا فاديا، اضحك". كان بوريس يزداد اضطرابًا. "أنتم تؤسسون لنظام أسوأ حتى من الاتحاد السوفيتي. على الأقل في تلك الأيام، كان كلاب حراسة الـ «كي جي بي» (KGB) يُلجمون من قبل الأشخاص في الحزب الشيوعي. الآن لم يعد الحزب موجودًا، والتشيكيست في السلطة. من سيكبح غطرستهم، جشعهم، وغباءهم العميق؟ هل ستفعل ذلك أنت يا فاديا؟ أم أصدقاؤك المسرحيون؟ الـ «كي جي بي» بدون الحزب الشيوعي ليس سوى عصابة من المحتالين!".

منعت نفسي من تذكير بيريزوفسكي بلقائنا الأول مع بوتين في «لوبيانكا». كانت غفلته هي التي قادتنا لتجنيد خليفة ليلتسين في الزوايا المظلمة لذلك السجن المشؤوم. لم تكن إهاناته تزعجني بشكل خاص، لكن افتقاره التام لحسن النية بدأ يثير أعصابي.

– "على الأقل لدينا الصحافة والإعلام"، قال بوريس. "لقد اعتادوا على الحرية. لن يدعوكم تسلبونها منهم، صدقني".

قاطعته:

– "انتظر دقيقة. ألم تكن أنت من كان يخبرنا أن الصحفي يمكن شراؤه وبيعه بحفنة من الفكة؟ وأنه خادم منزلي مُنح إذنًا بالجلوس معك؟ وأنه إذا قرأت له افتتاحية أو اثنتين، سينتفخ كالطاووس ويتملقك للأبد؟ أم أنني مخطئ يا بوريس، هل كان شخصًا آخر يخبرنا بذلك؟".

لم يكن يجدر بي قول ذلك، أعلم. لكن للصبر حدودًا. صمت بوريس فجأة وكأنه رأى شبحًا. كان في الواقع انعكاس صورته، شبح «بيريزوفسكيي» الماضي. وهو ما كان يعرفه. لم يكن هناك طائل من الخوض في الأمر.

نظر إليّ بأسى، وقد بدت عليه الشيخوخة فجأة. لقد ولى موسمه ولن يعود. يمكنه الاحتفاظ بماله، نعم. لكنه سيكون أحد هؤلاء الأثرياء الذين

يتظاهر الناس بالاستماع إليهم فقط لأنهم يدفعون الفاتورة في نهاية الوجبة. لن يكون لآرائه أي تأثير يذكر على مجريات الأحداث.

- "أحسنت يا فاديا، لقد أصبحت واحدًا منهم"، قال هامسًا. "هل احتفظت ببعض التسجيلات لاستخدامها ضدي؟ لا بد أن سيتشين قد أسمعها للقيصر بالفعل، هل ستفعل ذلك أنت أيضًا؟ كل شيء يسير لصالحك، على الأقل حتى الآن. لكنك لست مثلهم، ولن تكون أبدًا". انخفض صوت بيريزوفسكي إلى فحيح مفعم بالكراهية. "إنهم حيوانات برية يا فاديا. خرجوا من العدم، يشقون طريقهم بهراوات الحرب. لا قواعد، لا حدود. إنهم جياع، وجوعهم متأصل منذ القدم. لقد عانوا من الذل، قرون من الذل. يجب أن يحصلوا على كل شيء فورًا، لأنهم يعلمون أن العجلة تدور. لكن ماذا تعرف أنت عن ذلك؟ بالنسبة لأناس مثلك، العجلة لا تدور".

- "ربما يا بوريس، لا أعلم. ما أعلمه هو أن الروس كانوا دائمًا يشقون طريقهم مُشهرين الفؤوس".

رمقني بيريزوفسكي بنظرة قلقة. لقد انتهى العرض، وكان يعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر. الشيء الوحيد المتبقي لفعله هو النهوض والمغادرة. كان ثمة وقار حزين في الطريقة التي أدى بها الممثل العجوز انحناءته الأخيرة. كانت تلك أفكاري، على أية حال، وأنا أغادر دار «لوغوفاز» للمرة الأخيرة.

(15)

السياسة مهنة غريبة الأطوار. إذا اتخذتها مسارًا، عليك الحفاظ على روابط وثيقة مع قاعدتك. أن تتابع ما تريده ربات البيوت، وعمال السكك الحديدية، وأصحاب المشاريع الصغيرة. ثم، حين تصل إلى القمة، يُقذف بك فجأة إلى المسرح العالمي. كبار اللاعبين في العالم يغدون فجأة أقرانك. وهم يمتلكون بالفعل شلتهم الصغيرة، لأنهم موجودون منذ فترة، أتيحت لهم الفرصة ليتعرفوا على بعضهم البعض، ليتعلموا أصول اللعبة. أنت، في المقابل، مجرد مبتدئ، دُفعت إلى المسرح لأداء عرض مفاجئ. قد تكون مُهابًا أو محترمًا في بلدك، لكن هنا أنت مجرد وافد جديد. عليك أن تبدأ من الصفر وتتعلم كل شيء من جديد، من طريقة المشي إلى كيفية رد التحية. قمم مجموعة الثماني (G8)، جمعيات الأمم المتحدة، منتديات دافوس؛ لكل منها طقوسها. أصدقاؤك الجدد ودودون بما يكفي، وكل منهم يبدو حريصًا على مد يد العون. لكن لا تنخدع. فكل منهم قد أعد خطة للنيل منك.

بينما كان بيريزوفسكي يطير إلى لندن، كنا نتجه في الاتجاه المعاكس: أولاً إلى طوكيو، ثم إلى نيويورك. في مطار جون كينيدي، استقبلنا سفيرنا لدى الأمم المتحدة عند سلم الطائرة، مع سرب من سيارات الليموزين والسيارات رباعية الدفع السوداء، تتقدمها سيارة شرطة. في الطريق إلى المدينة، تحركنا ببطء السلحفاة، نتوقف عند كل إشارة حمراء. كانت صافرة الإنذار تطلق أحيانًا

حين ينحرف سائق شارد نحو موكبنا، لكن لم يكن هناك أي استعراض لتلك التراتبية المتعجرفة التي تسم السلطة في موسكو. وحين وصلنا إلى فندق «والدورف أستوريا»، أدركنا أن الفندق يستضيف عدة وفود أخرى غير وفدنا. كان مكتب البروتوكول في الكرملين قد حجز لنا عشرين غرفة، لكن فوق رؤوسنا، احتل السعوديون الطوابق الثلاثة العليا في أبهة باذخة.

أسبوع الجمعية العامة للأمم المتحدة هو "أورجيا" للسلطة، ولكنه أيضًا درس في التواضع. الرجال الذين اعتادوا تلبية رغباتهم فورًا عليهم إعادة تعلم الفضائل التي تأتي من الانتظار. مواكب السيارات المصفحة والحراس الشخصيين تتسبب في اختناقات مرورية لا تنتهي في الجادة الثانية؛ الوفود المشحونة بالتستوستيرون تتصادم في الممرات المزدحمة للمبنى الزجاجي؛ ورؤساء الدول الذين اعتادوا الصالونات الأنيقة يجدون أنفسهم يتكومون خلف حواجز مؤقتة لإجراء مفاوضات حاسمة. ومع كل هذا، بالطبع، يجد الأمريكيون دائمًا طريقة ليجعلوك تدرك تفوقهم. ذات يوم، ونحن نهم بمغادرة الفندق لموعد في شبكة (CNN)، أوقفنا عميل للخدمة السرية.

- "إنه التجميد"، شرح لنا. "عندما يتحرك الرئيس، يجب على الجميع أن يتجمدوا في أماكنهم".

لا أزال أذكر تعبير وجه القيصر وهو ينتظر على الرصيف حتى يحصل وفدنا على الإذن بالتحرك مجددًا. ولكن حين وصلنا إلى محطة التلفزيون، استقبلنا نوع من مؤدي السيرك بدا وجهه مألوفًا. قميص وردي، وحمالات بنطلون سوداء. وبوقوفه بجانب لاري كينغ، بدا القيصر وكأنه يرتدي ملابس المناولة الأولى.

سأله الرجل أثناء البث:

- "إذن، كيف هو شعور أن تكون جاسوسًا؟".

أجاب بوتين:

- "لا يختلف كثيرًا عن كونك صحفيًا. أنت تجمع المعلومات، وتصيغ ملخصًا، وتقدمه لشخص آخر سيستخدمه لاتخاذ القرارات".

- "إذن، استمتعت بالقيام بذلك؟".

- "بشكل عام، نعم. العمل في المعلومات أتاح لي توسيع رؤيتي وتطوير عدد من المهارات في التعامل مع الناس. تعلمت التمييز بين ما هو أولوية وما هو أقل أهمية، وبهذا المعنى كان الأمر مفيدًا لي للغاية".

- "عظيم! سنعود مع الرئيس بوتين في برنامج «لاري كينغ لايف» بعد هذا الفاصل، لا تذهبوا بعيدًا!".

في ذلك الوقت، كنا لا نزال نأخذ الأمور بجدية تامة، لكن نيويورك أشبه بكرنفال لدرجة أننا سمحنا لأنفسنا بالاسترخاء قليلاً. لطالما تخيلت مانهاتن كشبكة لعبة لوحية حيث يروح اللاعبون ويجيئون بالمترو، أو التاكسي الأصفر، أو السيارات السوداء الفارهة، كل حسب رتبته. المدينة قاحلة من الحكمة، محكوم عليها بالتكرار اللانهائي، لكنها تنفجر بالطاقة. لم يكن لموكبنا أي من جلالة مواكب موسكو، لكنه ترك انطباعًا رغم ذلك. كنا ننتقل من افتتاح معرض فني إلى عشاء فاخر. وفي كل مكان، كنا نُستقبل بتلك الودية الأمريكية الغامرة، التي تخفي دائمًا تقريبًا أثرًا من التعالي.

سارت القمة مع الرئيس كلينتون وفق النسق العام ذاته. تكرم الرئيس بالقدوم إلى «والدورف» لمقابلتنا. أدى دور السياسي المخضرم المحنك؛ مصافحته الأسطورية، حيث تطوق كلتا يديه يدك كأفعى البواء العاصرة، وصوته الأبح، وابتسامته العريضة لمزارع من الغرب الأوسط سيجلس بجوار النار بعد حلول الظلام ليقص عليك حكايات من حياته. لكننا كنا نعلم أن هذا المظهر الريفي يخفي آلية معقدة ولا ترحم. كلينتون الطالب المتفوق في

ييل وأكسفورد، كلينتون أصغر حاكم ولاية في تاريخ الولايات المتحدة، كلينتون الحيوان السياسي الذي تمكن من النجاة من كل فضيحة سياسية وانتصر دائمًا على خصومه في النهاية. وفوق كل ذلك، كلينتون الذي أشرف بيد من حديد على تفكيك الإمبراطورية السوفيتية، واستعاد نصف أوروبا دون التنازل عن أي شيء في المقابل، ووسع الناتو حتى حدودنا تقريبًا، وترك النسور تمزق ما تبقى من نظامنا الصناعي قطعة قطعة.

ومع ذلك، ارتكب خطأً في حديثه الافتتاحي مع بوتين. سأل القيصر عن أخبار يلتسين، صديقه القديم بوريس. ما لم يدركه هو أنه كان ينكأ جرح ذكرى إذلال لم يستطع أي منا تجاوزه تمامًا. الروس، كما قلت من قبل، اعتادوا تقديم التضحيات، لكنهم اعتادوا أيضًا نيل الاحترام. طوال تاريخنا، كان حكام روسيا يعاملون كشخصيات عالمية عظيمة، ولم يتعالَ عليهم أحد قط. عندما التقى روزفلت بستالين، أو في العقود اللاحقة، حين التقى نيكسون ببريجنيف أو ريغان بغورباتشوف، كانت قوتان عظيمتان تقفان وجهًا لوجه، ولم يكن ليخطر ببال أحد خلاف ذلك. بعد سقوط جدار برلين، أصبح كل ذلك أكثر تعقيدًا، رغم أن احترام الشكليات البسيط كان يمكن أن ينقذنا. لكن يلتسين وقع في فخ أريحية كلينتون، أريحية «الرفيق القديم» والضرب على الظهر، مقتنعًا بأنه وجد صديقًا. أو على الأقل حليفًا يكن له نوايا طيبة وسيساعده على إيقاف روسيا على قدميها. لذا خفض دفاعاته. وبعد قبوله مصافحة، ثم تربيتة على الظهر، وجد نفسه عالقًا في تسلسل الأحداث المريع الذي كُوي في شبكية عين كل روسي كوصمة عار.

حاول أن تتخيل المشهد: يوم خريفي، مرة أخرى في نيويورك. رئيسا روسيا والولايات المتحدة انتهيا للتو من إبرام اتفاقية ثنائية في مكتبة فرانكلين د. روزفلت، وهما يقفان الآن في الخارج لمؤتمر صحفي مشترك. أعمدة كلاسيكية جديدة، أعلام وطنية، حرس رئاسي بملابس التشريفات، وعند أسفل

المنصة، يقطينتان تكريمًا لذلك الاحتفال الهمجي الذي نجح الأمريكيون، كعادتهم، في فرضه على بقية العالم. يتحدث كلينتون بإيجاز، ثم يسلم الميكروفون ليلتسين، الذي، وبوضوح تام، لم يكن في كامل وعيه، فيبدأ في الخطابة بالجمهور. وبينما يدوي صوت رئيسنا، ينفجر كلينتون ضاحكًا. الأمر غير معتاد، لكنه ليس جللاً. حتى أقوى رجل في العالم يضطر للضحك أحيانًا.

المشكلة أن كلينتون لا يتوقف. لا يستطيع تمالك نفسه. الدب الروسي العجوز، المترنح والمثير للسخرية، يجعل الرئيس الأمريكي يتلوى من الضحك، ينثني على نفسه من القهقهة. الدموع في عيني كلينتون، وجهه تحول إلى أحمر قاني، ونوبة ضحكه خرجت عن السيطرة. ونحن الروس، مسمرين أمام التلفزيون، نتوسل بصمت إلى كلينتون ليتوقف. نحن نعرف يلتسين، عاداته، وسقطاته. لكنه رئيس الاتحاد الروسي، بحق السماء، أكبر دولة على الكوكب، وقوة نووية عظمى! لكن لا، كلينتون لا يستطيع الكف. الآن هو يترنح أيضًا، ويوجه ليلتسين ضربات قوية على الظهر. يلتسين، حتى في حالته الثملة، يبدأ في الظهور بمظهر المغبون بعض الشيء. أمة بأكملها، مائة وخمسون مليون روسي، يُجرون إلى قاع الخزي تحت وطأة ضحك الرئيس الأمريكي.

هذا هو المشهد الذي ومض في ذهن القيصر حين سأله كلينتون عن بوريس العجوز. وعلى الفور، أشعر كلينتون أن الأمور ستكون مختلفة معه. لا مزيد من الضرب على الظهر والعواء من الضحك. خاب أمل كلينتون بوضوح. كان يظن أن كل الرؤساء الروس في المستقبل سيكونون «بوابي فنادق» مطيعين، يحرسون أكبر احتياطيات الغاز الطبيعي على الكوكب لصالح الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات. وللمرة الأولى، غادر كلينتون ومستشاروه بابتسامة أصغر مما وصلوا بها. لكن ماذا كانوا يتوقعون؟

قال القيصر في رحلة العودة:

- "لو وصل أكلة لحوم البشر إلى السلطة في موسكو، لاعترفت بهم الولايات المتحدة فورًا كحكومة شرعية، طالما أنهم لا يتعارضون مع المصالح الأمريكية ويواصلون معاملة أمريكا كـ «الزعيم». مشكلتهم أنهم يظنون أنهم انتصروا في الحرب الباردة. لكن الاتحاد السوفيتي لم يخسرها. الحرب الباردة توقفت لأن الشعب الروسي أطاح بنظام كان يضطهده. لم نُهزم، بل حررنا أنفسنا من دكتاتورية. وهذان أمران مختلفان. الغرب ساعد أيضًا في نشر الديمقراطية في أوروبا الشرقية، لكن لا ينبغي أن ينسوا أن الروس هم من رجحوا الكفة حقًا. نحن من أسقطنا جدار برلين، وليس هم. نحن حللنا حلف وارسو. ومددنا يدنا لهم كعلامة سلام، لا استسلام. سيكون من الجيد لو تذكروا ذلك من وقت لآخر".

(16)

عقب عودتنا من الولايات المتحدة، قررتُ أن أقضي ليلة صاخبة في المدينة. ورغم أن وقت فراغي بات شحيحاً، كنت أتردد بين الحين والآخر على الملاذات التي يرتادها مجتمع الفن في موسكو، وهي أماكن كنت قد تجنبتها في الغالب منذ بدأت العمل مع "القيصر". ومع أن تلك "اللازمات" العصبية التي يتصنعونها لإضفاء الأهمية على أنفسهم كانت تثير حنقي، إلا أنني وجدت في بهجة الفنانين المتكلفة متنفساً مرحباً به من اليقظة المفترسة التي لا ترحم لزملائي في الكرملين.

كان من أبرز الشخصيات في تلك الجموع رجل يتقمص كل تكلف الكُتّاب العظام دون أن يكلف نفسه عناء كتابة مؤلَّف يرقى لتلك المكانة. كان هذا ليمونوف، إدوارد ليمونوف. بعد سنوات قضاها في أمريكا وباريس، عاد إلى موسكو حاملاً أفكاراً قتالية. زرع في داخله نقمة شرسة تجاه الغرب، أججتها الإهانات التي تجرعها هناك، والتي كانت في معظمها مادية بحتة. في مطلع التسعينيات، أسس "الحزب القومي البلشفي". لم يكن واضحاً تماماً ما إذا كانت تلك عملية سياسية أم عرضاً فنياً أدائياً، لكن الهدف منها بلا شك كان خلق أقصى قدر من الفوضى. ولأنه تجرد منذ زمن بعيد من مزايا الاحترام المزعجة التي كنت أنا وغيري لا نزال نتشبث بها، كان لإدوارد مدخل إلى طيف لا نهائي من الملذات الأكثر كثافة، يتقاسمها مع دائرته المقربة بأسخياء "باشا"

شرقي. كان محاطاً دوماً بطاقم غير متوقع من الشخصيات التي يطلق عليها "طلائعي الثورية".

قال لي:

- "اضحك كما يحلو لك يا فاديا، لكنني أصنع جيشاً. المشكلة ليست في الجنود، فهم متوفرون بكثرة؛ الناس يائسون للغاية. كلا، المشكلة تكمن في العثور على المفوضين السياسيين، القادرين على إنتاج الدعاية ومخاطبة الجماهير. في هذه المرحلة من النضال، هم السلاح الاستراتيجي، ناشرو الأيديولوجيا، ومضاعفو الثورة القومية البلشفية. لكن لا تقلق يا فاديا، حين نتولى السلطة، سنسمح لك بالاحتفاظ بمكتبك الصغير في الكرملين؛ فمحترف الدعاية الأصيل يظل عملة نادرة ومفيدة دائماً..."

في تلك الأمسية، اقترح إدوارد أن نلتقي في "317"، وهي حانة أيرلندية زائفة قرب "البيت الأبيض" اتخذها مقراً له. وللوصول إليها، كان عليك أن تشق طريقك وسط عشرات الدراجات النارية المصطفة بالخارج. كانت الأجواء تشبه تماماً عالم "ماد ماكس"، حيث يتزاحم سائقو الدراجات الفاشيون الجدد جنباً إلى جنب مع المثقفين الفوضويين، وأصحاب قصات "البانك"، والقلة من النساء اللواتي تجرأن على المغامرة بالدخول.

حين وصلت، كان ليمونوف جالساً بالفعل إلى طاولة في الزاوية، وأمامه زجاجة "فودكا" نصف فارغة - بداية واعدة للأمسية.

بادرني قائلاً، وكعادته يحب استهلل الحديث بطريقة درامية:

- "هل تعرف ما الذي دشن بداية النهاية يا فاديا؟"

- "لا يا إدوارد. نّورني أرجوك".

- "ريشيليو يا فاديا. كان الكاردينال في رواية (الفرسان الثلاثة)، لكنه وجد في الواقع، هل تعلم ذلك؟"

- "نعم يا إدوارد، اسمح لي بتذكيرك أنك لا تخاطب أحد (حليقي الرؤوس) ذوي الأدمغة الميتة من اتباعك".

- "حسناً، تمام. على أية حال، هو من جرم المبارزة. أصدر قانوناً يمنع ذكرين بالغين من تحدي بعضهما في قتال بالسيوف، هل تتخيل؟ لم تقم للرجل الغربي قائمة بعدها. ومن تلك النقطة، لم تكن المسافة للوصول إلى إجازة الأبوة المدفوعة سوى خطوة صغيرة".

كان ليمونوف يعتبر إجازة الأبوة المدفوعة، التي طُبقت لتوها في عدة دول أوروبية، انحطاطاً مهيناً لمكانة الرجل، ورمزاً لتحويله إلى حيوان أليف.

تابع قائلاً:

- "يشاهدون التلفاز، يركنون السيارة، يعملون في وظائف غير متطلبة لكنها مملة حد الموت. تمر بضعة عقود، يحصلون على قرض أو اثنين، يأخذون إجازة على الشاطئ، ثم تنتهي حياتهم قبل أن يدركوا ذلك حتى. إهدار كامل للعمر، وتلك هي الجريمة الوحيدة التي لا تُغتفر".

كنت قد سمعت حجج إدوارد مراراً من قبل. هي ذاتها التي يكررها في كتبه، ومقابلاته، وخطاباته لأعضاء طليعته الثورية. لكن في تلك الليلة، كان فضولياً بشأن رحلتنا إلى نيويورك، التي قرأ عنها في الصحف.

سألني:

- "كيف كانت جولتكم في الولايات؟"

حاولت التملص من الحديث، إذ لم أرغب في مناقشة الشؤون الدولية مع إدوارد.

أجبت:

- "أوه، أنت تعرف كيف هي الحال هناك. في الواقع، الأمر ممتع جداً دائماً".

- "نعم، نيويورك ممتعة. طالما أنك تتجنب الأمريكيين".

ضحكتُ، لكنه كان جاداً كعادته. فرغم أنه يغزل المفارقات باستمرار، لم يكن ليمونوف يمزح قط. كانت تلك إحدى خصاله.

سأل:

- "هل سبق وحضرت أحد تلك العشائات؟ كل الرجال خريجو برينستون أو ييل، وكل النساء من فاسار أو براون. أطفالهم جميعاً في نفس العمر ويرتادون المدارس ذاتها. الرجال يعملون في بنك بوسط المدينة، والنساء يتسوقن في (بارنيز). كلهم يملكون منزلاً صيفياً في هامبتونز وآخر شتوياً في بالم بيتش. إذا علقتَ في إحدى تلك الطاولات، فالسيانيد هو الخيار الوحيد المتاح. حين كنت أصغر سناً، كان بإمكاني على الأقل محاولة سحر إحدى الزوجات الشقراوات. الآن السيانيد هو ملاذي الوحيد. لكن لحسن الحظ، لم أعد أدعى لتلك العشائات".

- "ما باليد حيلة يا صديقي العجوز، إنه السحر الخفي للبرجوازية. الأمر سيان في كل مكان".

- "لا يا فاديا، أمريكا دمرت البرجوازية".

فجأة، ارتدى المنظر الرئيسي للحزب القومي البلشفي قناع حزن عميق، نادباً اختفاء البرجوازية الأنجلوساكسونية.

استطرد:

- "البرجوازية كانت تملك قيماً على الأقل، بينما هؤلاء القوم لا يؤمنون إلا بالأرقام. والمضحك أنهم لا يعرفون بعضهم البعض حتى، هم نتاج يانصيب يبدأ من جديد مع كل جيل - أذكياء وطموحون، يعبدون العمل والبيانات

الدقيقة، لكنهم مملون كجرذان ميتة. المشكلة ليست في إمبريالية الولايات المتحدة. لست غاضباً مما فعلوه بـ ألليندي أو أي من ألاعيبهم الأخرى. ممارسة السلطة، حتى العنيفة منها، جزء لا يتجزأ من أي إمبراطورية، وفي نهاية المطاف، أمريكا ليست أسوأ من سابقاتها، بمن فيهم قياصرتنا البيض والحمر. المشكلة تكمن في محتوى الثقافة الأمريكية؛ انحدار عن الحضارة جعل العظمة الحقيقية بعيدة المنال لضمان وجبة (هابي ميل) للجميع".

توقف إدوارد للحظة ليقضم شطيرة "الهامبرغر" التي طلبها، دون أن يقطع ذلك حبل أفكاره قيد أنملة.

- "المثير للاهتمام أن أناساً مثلك يظنون أنه نموذج يحتذى به. لكن الحقيقة هي أن الأمريكيين (موتى أحياء). لا توجد خطيئة أكبر من تضييع حياتك سدى يا فاديا. ليس لديهم أدنى فكرة أن الغاية من الوجود البشري قد تكون شيئاً آخر غير العيش لأطول فترة ممكنة في أكبر قدر ممكن من الراحة. عندما رأيت أن يلتسن يسير في هذا الطريق، وأنه يريد تحويل روسيا إلى نسخة رخيصة من التكية الأمريكية، حينها قررت تأسيس الحزب القومي البلشفي. وهل تعلم لِمَ أسميته كذلك؟ لأقض مضاجعكم، لأحشر في اسم واحد كل ما تظنون أنه شر، كل الأفكار التي تهدد المستهلك الصغير السعيد الذي اختزلتم الإنسان فيه".

قاطعته:

- "الشغف يجعل الإنسان يعيش، والحكمة تجعله يستمر فقط".

رمقني ليمونوف بنظرة حادة. لم يكن يحب أن يقاطعه أحد، وبالأخص باقتباس أدبي يسخّف بصيرته.

قال:

- "تلك هي الفكرة بالضبط. لقد جمع الحزب القومي البلشفي بين الستالينيين السابقين والتروتسكيين السابقين، بين المثليين وحليقي الرؤوس، الفوضويين، والبانك، وفناني المفاهيمية، والمتعصبين الدينيين، البوذيين والمسيحيين الأرثوذكس. حين عقدنا مؤتمرنا الأول، كان الجزء الأصعب هو معرفة كيفية إجلاس الجميع بحيث لا يهشم بعضهم جماجم بعض. حين أنظر للوراء، لا أزال لا أعرف كيف تدبرنا الأمر..."

انفجر إدوارد ضاحكاً. ثم، وبثبات اكتسبه من رشفة "فودكا"، عاد للجدية.

- "لم تكن الأيديولوجيا هي التي جمعتهم تحت خيمة واحدة يا فاديا، بل نمط الحياة. أتظن أن برنامجنا السياسي أثار اهتمامهم ولو قليلاً؟ ما يريده هؤلاء الشباب هو التحرر من التفاهة، الهروب من الضجر. هناك شرارة من البطولة في كل منهم تنتظر فقط أن تُغذى. (روما الثالثة)، روسيا القيصرية، ستالينغراد، لا يهم! الشيء الرئيسي هو استحضار العظمة. لتجنب الانقراض، يحتاج كل شعب للاعتقاد بأنه يملك مفتاح خلاص العالم، وأنه وجد ليكون في مقدمة الصفوف - قبل كل الأمم الأخرى! العالم الغربي يريد أن يرانا جاثين على ركبنا. لقد أحبوا غورباتشوف ويلتسن. وسيتظاهرون بحبك أنت أيضاً يا فاديا، طالما حافظت على وضعية الخادم. وفي الأثناء، سيسلبون كل ما لم يُسمّر في الأرض".

حرصت في تلك الليلة ألا أخبر ليمونوف أن تفكيره تقاطع، جزئياً على الأقل، مع ما علمتنا إياه تجاربنا في الولايات المتحدة. في الواقع، كان ذلك يقلقني. لطالما اعتبرت إدوارد معتلاً اجتماعياً عبقرياً، لكنه يفتقر لأي حس سياسي. ظل يطرق على نفس الأفكار لسنوات ليسلي أصدقاءه. ولصدم المشاعر البرجوازية، ولجذب الانتباه لنفسه، وجعل الجميلات الصغيرات، اللواتي كن

دائماً ممثلات تمثيلاً جيداً في حاشيته، يفتحن عيونهن دهشة كاتساع الأطباق - بدا ذلك دائماً الهدف الوحيد من خطبه العصماء.

الآن، ومع ذلك، بدأت أستشف معنى مغايراً من نوبات غضبه. لم يصل الأمر لدرجة أن أقول إنه محق، بعيداً عن ذلك. لكن للمرة الأولى، ضربتني حججه بحقيقتها. لم تكن نتاج تحليل دقيق، لكنها مع ذلك بصيرة لا ينبغي الاستهانة بها، رغم كل تهريج ليمونوف. ربما لم يكن التقليد المحموم للغرب الذي ألقينا أنفسنا فيه خلال أواخر التسعينيات هو الطريق الصحيح. وربما قد حانت اللحظة لسلوك مسار مختلف.

(17)

كانت تلك الساعة من الليل التي يتسلل فيها الموت إلى العالم، وشعرتُ، وأنا أمشي في ممرات الكرملين الطويلة البيضاء، أنني في المكان الوحيد في روسيا الذي لم يغرق في ظلام دامس. "قصر مجلس الشيوخ"، الذي يضم مكتب بوتين، يفتقر إلى تلك العظمة الجليدية التي تميز قصر القياصرة. السلطة هناك لا تنزلق فوق مرايا الصالونات عديمة الفائدة لتتلاشى، بل تتكثف وتفعل فعلها. لهذا السبب جعله لينين مقراً لحكومته، ومنذ ذلك الحين، ومصير أضخم دولة على وجه الأرض يتقرر في هذه الغرف الصغيرة ذات الأثاث المقتضب.

عند وصولي إلى الغرفة الأمامية للرئيس، أومأتُ بتحيتي المعتادة لصور القياصرة وتمثال الساموراي الياباني الذي اختاره بوتين لتعزيز الحضور الجسدي لشباب حرسه الأمني. أشار لي رئيس الأركان بالدخول؛ كان الرئيس بانتظاري.

حين أغلق الباب خلفي، وجدته جالساً إلى طاولة عمله بدلاً من الأريكة التي يختارها عادة لإجراء محادثاتنا الخاصة. علامة سيئة. الثريا البرونزية الضخمة كانت مطفأة على غير العادة. وحده مكتب القيصر كان مضاءً بمصباح صغير، خالقاً جواً من التأمل الدراسي. جلست في أحد المقعدين غير المريحين المواجهين لمكتبه.

كان القيصر يقرأ وثيقة، وظل صامتاً لعدة دقائق. ثم، ودون أن يرفع عينيه عن الورقة أمامه، نطق:

- "أين نسب تأييدي يا فاديا؟"

- "عند ستين بالمائة تقريباً، سيدي الرئيس".

- "صحيح. وهل تعرف من يتقدم عليّ؟"

- "لا أحد يا سيدي. أقرب منافسيك يحظى بحوالي اثني عشر بالمائة".

- "غير صحيح يا فاديا. فكر مرة أخرى، هناك زعيم روسي أكثر شعبية مني".

لم تكن لدي أدنى فكرة عمن يتحدث.

تابع قائلاً:

- "ستالين أكثر شعبية مني في هذه اللحظة. لو تنافسنا رأساً لرأس في انتخابات، فإن (الأب الصغير) لروسيا سيسحقني!"

اكتسى وجه القيصر بتلك الصلابة الصخرية التي تعلمت تمييزها. أحجمت عن إبداء أي تعليق.

استطرد:

- "أنتم المثقفون تظنون أن السبب هو نسيان الناس. تظنون أنهم لا يذكرون التطهيرات، والمجازر. ولهذا تستمرون في نشر كتاب تلو الآخر، ومقال تلو المقال، عن أحداث 1937، وعن (الغولاق)، وعن ضحايا الستالينية. تظنون أن ستالين محبوب رغم المجازر. حسناً، أنتم مخطئون؛ إنه محبوب بسبب المجازر. لأنه على الأقل عرف كيف يتعامل مع اللصوص والخونة".

صمت القيصر برهة.

- "هل تعرف ماذا فعل ستالين حين حدث ارتفاع في حوادث القطارات السوفيتية؟"

- "لا".

- "أخذ فون ميك، المسؤول عن السكك الحديدية، وأعدمه بتهمة التخريب. لم يحل ذلك مشكلة السكك الحديدية، بل ربما جعلها أسوأ. لكنه وفر منفذاً للغضب. الشيء نفسه حدث كلما قصر النظام. حين شح اللحم، اعتقل ستالين مفوض الشعب للزراعة، تشيرنوف. وحين حاكموه، يا للعجب، اعترف تشيرنوف بأنه أمر بذبح آلاف الأبقار والخنازير لزعزعة استقرار الحكومة وإثارة التمرد. ثم حدث نقص في الزبدة والبيض. فأمر ستالين باعتقال زيلينسكي، الرجل المسؤول عن توزيع المنتجات الاستهلاكية. ولم يستغرق الأمر طويلاً ليعترف زيلينسكي بأنه خلط المسامير والزجاج المطحون في إمدادات الزبدة وأتلف خمسين شاحنة محملة بالبيض. سادت موجة من السخط عبر البلاد، ممزوجة بالارتياح: كل شيء يمكن تفسيره! وتذكر يا فاديا، (التخريب) تفسير مقنع أكثر بكثير من (عدم الكفاءة). بمجرد العثور على الجاني، يمكنك معاقبته. العدالة أخذت مجراها. شخص ما اضطر للدفع، والنظام قد استُعيد. تلك هي النقطة الجوهرية".

توقف القيصر مرة أخرى، بطريقة كنت سأصفها في ظروف أخرى بأنها مسرحية. ثم تابع بصوت محايد:

- "أصدرت أوامري باعتقال صديقك القديم خودوركوفسكي فجر الغد. سنرسل الكاميرات أيضاً - بتلك الطريقة سيرى الجميع أنه لا أحد، لا أحد على الإطلاق، فوق الغضب المقدس للشعب الروسي".

ذهلت. على مدى السنوات القليلة الماضية، أصبح ميخائيل أغنى رجل أعمال في البلاد. لم يكن بالضرورة أكثر نزاهة من البقية، لكنه تمتع بصورة "الرجل المستقيم" وهالة تشبه رواد "سيليكون فالي" - قمصان قطنية،

نظارات بإطار سلكي، مؤسسة مساعدات إنسانية غير ربحية، وخطب رنانة مفعمة بالمثل النبيلة. صحفكم وتلفزيونكم عشقوه، وحولوه إلى نوع من أيقونة للرأسمالية الروسية الجديدة. فكرة إلقائه في السجن كأي مجرم عادي كانت غير قابلة للتصور عملياً. لكن، والحق يقال، لم يصل القيصر إلى ما وصل إليه عبر الالتزام بحدود "المعقول".

لم أفكر لدقيقة واحدة أن أمر القيصر يملك أي فرصة للإلغاء. الرجل الذي ينظر إليّ من عبر المكتب لم يطلب مشورتي، بل أبلغني بقراره وحسب. كانت وظيفتي إدارة التبعات. وسائل الإعلام، حتى في روسيا، ستصور الأمر كفضيحة. كان بإمكاننا تخفيف وطأة الاعتقال، وتقديمه كنوع من الإجراء الإداري، لكن ذلك لم يكن ليحل شيئاً. عند هذه النقطة، كان الأجدر بنا المضي قدماً وبقوة. إذا كان ميخائيل سيغدو منفذاً لغضب الشعب الروسي، فيجب أن يكون إذلاله كاملاً. كفانا صوراً للفتى الذهبي المالي، المحسن المبتسم للأرامل والأيتام. كنت سأحرص على أن الصور الوحيدة المتداولة من الآن فصاعداً هي تلك التي تظهر خودوركوفسكي بزي السجن وخلف القضبان. يجب أن تكون الرسالة واضحة: ستنتقل من غلاف مجلة "فوربس" مباشرة إلى السجن إذا أراد القيصر ذلك. الطرد العلني لميخائيل سيكون تحذيراً للأوليغارشية الآخرين، ومشهدية تُقدم للشعب الروسي لتهدئة سخطه.

قد تظنون أن لدي دافعاً شخصياً في تنفيذ هذا الأمر، وأنني استمتعت بإذلال منافسي القديم، لكنني أؤكد لكم أن ذلك غير صحيح. في اللحظة التي تختار فيها الانتقام لظلم تعرضت له، تصبح رهينة له. كنت قد حررت نفسي منذ زمن طويل من أي تفكير في ميخائيل وكسينيا، لدرجة أن حتى خبر زواجهما لم يعكر صفو هدوئي. كان من غير السار اضطراري لإعادة فتح ذلك الفصل، لكن الاعتراض لم يكن ليحمل أي معنى. لا شيء أصعب من اتخاذ

القرار، لكن بمجرد اتخاذه، يجب تنحية كل شيء جانباً إلا ما سيؤدي إلى تحقيقه.

اعتُقل خودوركوفسكي فجراً، لحظة هبوط طائرته في المدينة السيبيرية التي ذهب إليها لإجراء بعض الأعمال المنسية الآن. صور الملياردير مكبل اليدين تحت حراسة القوات الخاصة جابت العالم. وكان لها أثر فوري في تذكير الناس بأن المال لا يحميك من كل شيء. هذا أمر محرم تماماً بالنسبة لكم أيها الغربيون. يمكن اعتقال سياسي، لمَ لا؛ أما ملياردير، فهذا غير معقول، لأن مجتمعكم قائم على مبدأ أنه لا شيء يعلو فوق المال. المضحك أنكم تستمرون في تسمية أثرياء روسيا "أوليغارشية"، بينما الحقيقة هي أن الأوليغارشية الحقيقية الوحيدة موجودة في الغرب. هناك حيث يقف المليارديرات فوق القانون وفوق الشعب، وهناك يشترون المسؤولين الحكوميين ويكتبون القوانين بدلاً منهم. في منطقتكم من العالم، فكرة رؤية بيل غيتس، أو روبرت مردوخ، أو مارك زوكربيرغ في الأصفاد هي ضرب من الخيال. بينما في روسيا، الملياردير حر تماماً في إنفاق ماله، لكن ليس في التأثير على السياسة. إرادة الشعب الروسي - والقيصر تجسيدها - تُحسب ولها وزن يفوق أي مصلحة خاصة.

بحدوثه قبل ستة أسابيع فقط من الانتخابات، كان اعتقال خودوركوفسكي بمثابة اللحن الرئيسي لحملة القيصر "اللاحملة". اقتصر دوري على إعادة صياغة سقوط ميخائيل ليناسب التلفزيون الجيد. لم يكن الأمر صعباً. رأس رجل قوي يتدحرج على الأرض مشهد تقدره الجماهير دائماً. حين يُعدم أحد الكبار، تجد الجموع عزاءً لتفاهتها الخاصة. قد لا أكون ناجحاً جداً، يقول رجل الشارع، لكنني على الأقل لست هناك على منصة المشنقة. الإعدامات العلنية كانت محط تقدير عالٍ في كل العصور. تذكر سجلات الثورة الفرنسية أنه في المرة الأولى التي استُخدمت فيها المقصلة، اشتكى الباريسيون

من عدم قدرتهم على الرؤية، وطالبوا بعودة فأس الجلاد. لكن حين أدركوا مدى فعالية المقصلة ومدى الرعب الذي تثيره في المحكوم عليه، بدأوا يرون جاذبية التكنولوجيا الجديدة. دعونا نواجه الأمر: الشعوب أكثر تعطشاً للدماء من أي دكتاتور؛ وتدخل الزعيم الصارم ولكن العادل وحده من يمكنه تلطيف غضبهم.

كانت الانتخابات، التي أجريت في أوائل ديسمبر، نصراً عظيماً. في اليوم التالي، اعترف القيصر على التلفزيون بأنه ظل مستيقظاً طوال الليل. ليس لمتابعة نتائج الانتخابات، التي لم يساوره شك بشأنها قط، بل لأن كلبته من فصيلة "لابرادور"، كوني، كانت تلد جراءها الأوائل. لم يكن لدي كلب، لذا كنت في المنزل ليلة الانتخابات، وحيداً مع إبريق من "الفودكا" وكومة من كتب التاريخ.

بعد محادثتي الأخيرة مع القيصر، بدأت أرى دوري بشكل مختلف. كنت قد انكببت على قراءة سجلات المحاكمات الستالينية في الثلاثينيات وبدأت أدرك أنها كانت بالفعل إنتاجات هوليوودية ضخمة الميزانية - "شوبيز" على الطراز السوفيتي. المدعي العام والقضاة يعملون لشهور على السيناريو، الذي يُستدعى المتهمون بعد ذلك لتمثيله، مع ممارسة المنتجين ضغوطاً عليهم بشتى الطرق. البعض لديه عائلة ليحميها، والبعض الآخر سر يبقيه طي الكتمان، بينما قد يكون آخرون ببساطة عرضة للتهديدات أو الألم الجسدي. في النهاية، يوافق الجميع على لعب دورهم، ويمكن للعرض أن يبدأ.

لا تفلت أي تفصيلة من انتباه المنتجين، فالمزج بين الواقع والخيال يجب أن يكون متقناً. الجمهور، أولئك المسموح لهم بحضور المحاكمة شخصياً، وبشكل أخص الملايين الذين بقوا في منازلهم وتابعوا المحاكمة عبر الراديو وصفحات "برافدا"، عاشوا نفس طيف المشاعر التي يختبرها المرء عند مشاهدة ملحمة من ملاحم "مترو غولدوين ماير" - الخوف، واللوعة، والرعب

الذي نشعر به عند مواجهة "الشر المطلق"، يعقبه الصفاء العميق المتأتي من حل الصراع وانتصار "الخير".

لا حدود للقدرة الإبداعية لحكومة مستعدة للتصرف بالتصميم اللازم، طالما أنها تحترم القواعد الأساسية المتعلقة بكل بناء سردي. الحد لا يفرضه احترام الحقيقة، بل احترام الرواية المختلقة. القوة الدافعة الأولية في كل هذا تظل الغضب. أنتم أيها الغربيون الصالحون تظنون أن الغضب يمكن استيعابه، وأن كل ما يتطلبه الأمر هو نمو اقتصادي وتقدم تكنولوجي، مع توصيل منزلي بأسعار معقولة وسياحة جماعية، لتبديد سخط الشعب؛ ذلك الغضب الصامت والمقدس للشعوب، الذي تضرب جذوره عميقاً في أصول البشرية ذاتها. هذا غير صحيح. سيظل هناك دائماً أناس خائبون، محبطون، يقفون في الجانب الخاسر في كل حقبة وتحت كل حكومة. فهم ستالين أن الغضب معطىً هيكلي. في أوقات مختلفة، يزداد أو ينقص، لكنه لا يختفي أبداً. إنه أحد التيارات التحتية التي تحكم المجتمع. لذا فالمسألة ليست كيفية إيقافه بل كيفية إدارته. إذا أردت ألا يفيض عن ضفافه ويدمر كل شيء في طريقه، عليك باستمرار توفير قنوات للتصريف. مواقف يمكن للغضب أن ينفلت فيها دون تعريض النظام بأكمله للخطر. قمع المعارضة تكتيك فج. أما إدارة تدفق الغضب بحيث لا يتراكم، فهي أصعب، لكنها أيضاً أكثر فعالية بكثير. ولسنوات عديدة، في الأساس، كانت تلك وظيفتي.

(18)

بعد اعتقال خودوركوفسكي، واكتساح بوتين في إعادة الانتخاب، شهدت الحكومة الروسية تحولًا جذريًا. لم ينتهِ الصراع على السلطة، ولا حتى قيد أنملة؛ بل انتقل من الساحة العامة إلى غرفة انتظار القيصر. ومنذ تلك اللحظة، عاد البلاط ليحدد مصير الدولة من جديد. وعاد جبين السيادة، كما كان في زمن نيكولاي الأول، المصدر الأوحد لكل أفراح الحاشية وأحزانها.

إذا سنحت لك الفرصة لزيارة حديقة حيوان، راقب الأسود والقرود. حين تلعب، فهذا يعني أن التراتبية واضحة وأن القائد ممسك بزمام الأمور بإحكام. أما في الحالة المعاكسة، فينزوي كل حيوان في ركنه، متوترًا وخائفًا. ومن خلال إعادة تأسيس «عمودية السلطة»، عزف بوتين الألحان التي أطلقت رقصة الحاشية - وهو تمرين في الخفة والبراعة تعود قواعده إلى أعماق الزمن، ويحدده إيقاع صعود المشاركين وهبوطهم. البعض يمتلك مكاتب قريبة من مكتب القيصر، والبعض الآخر على خط هاتفه المباشر. البعض يُضم إلى الوفود في زيارات الدول الأجنبية، بينما يذهب آخرون إلى سوتشي لقضاء العطلة. البعض يجد نفسه بمقعد في الحكومة، وآخرون لا يُجدد تعيينهم لقيادة شركة عامة. لا يمكن التغاضي عن أي إشارة مهما صغرت: ترتيب الجلوس في عشاء رسمي، وقت الانتظار في غرفة استقبال الرئيس، عدد العملاء في فريق الحراسة الشخصية.

تتكون السلطة من تفاصيل دقيقة. لا شيء يفلت من الاهتمام المهووس لرجل الحاشية، لأنه يعلم أن جوهر التراتبية يكمن في التفاصيل. وأن أدنى فقدان للسيطرة قد يحدث صدعًا في الصرح كله. الهواة فقط هم من يهملون هذه الإشارات، ويستبعدونها باعتبارها لا تستحق اهتمامهم. أما المحترف فيعرف أنه لا توجد تفصيلة أصغر من أن تُحسب.

للكرملين أبراج عديدة، والذبذبات تحدث باستمرار؛ لذا فإن من يريد البقاء في اللعبة عليه قياس هذه الذبذبات بدقة جهاز رصد الزلازل في «معهد موسكو الجيوفيزيائي». إنها مهمة شاقة تتطلب انتباهًا متواصلًا. كل لقاء، سواء كان علنيًا أو خاصًا، يعمل كمقياس لنبض اللحظة الراهنة، وللتحقق من أن موازين القوى لم تتغير. هل تعرف شريط أسعار الأسهم الذي يمر باستمرار فوق قاعة التداول؟ هذا هو حال بلاط الكرملين. غير أن الأسعار، بدلًا من أن تُعرض على شاشة، تُقرأ على جباه رجال الحاشية وشفاههم. كل عشاء، وكل محادثة، تصبح قائمة أسعار في البورصة: من صعد سهمه، ومن هبط. وكل لاعب له مصلحة في اللعبة يدرك أن الكرملين لا يمنح السعادة، لكنه يجعل من المستحيل أن تكون سعيدًا في أي مكان آخر.

من جانبي، ولا أنكر ذلك، استقرتُ في نظام الكرملين الجديد بسهولة، كما يليق بشخص يجري في عروقه دم ثلاثة قرون من الانحناء والمداهنة. والحق يقال إن هناك آخرين، ورغم افتقارهم لميراثي الجيني، تمكنوا من التفوق عليّ رغم ذلك. لنأخذ سيتشين، على سبيل المثال، سكرتير بوتين. لقد ذكرته من قبل؛ كان شخصًا يفتح الأبواب، ويجري المكالمات الهاتفية، ولفترة طويلة - مثل كثيرين من نوعه - استمد قوته من كون الناس يسيئون تقديره. كان الناس يرونه هناك، بحقيبته الدبلوماسية الصغيرة، يحدق في الأرض كلما كان القيصر قريبًا، فيفترضون أنه خليط من ضارب على الآلة الكاتبة وكبير خدم شخصي. ولكن في غضون أربع سنوات في الكرملين، أصبح

رجل الحاشية النموذجي، واثقًا من نفسه ومسيطرًا؛ العالم ملكه ما دام القيصر في مكان آخر. ولكن ما إن يرمقه القيصر بنظرة، حتى يعود حملًا يرتجف.

على متن الرحلات الحكومية، وحين يخلع الجميع ستراتهم ليكونوا أكثر راحة، كان يُبقي ربطة عنقه معقودة كعلامة احترام للقيصر. قبل لقاء بوتين، عمل لصالح الاستخبارات السوفيتية (KGB) في موزمبيق. الله وحده يعلم ما الذي فعله هناك، لكنه كان يعود من حين لآخر. كان النزول من طائرة شحن «أنتونوف» على مدرج أفريقي برفقة حراسة من القوات الخاصة ورسالة من القيصر للديكتاتور المحلي بمثابة عطلة له. خلال النهار، تحدد قذائف الهاون مرور الساعات. وفي الليل، تتناول العشاء بجوار المسبح بينما تعزف أوركسترا موسيقى الكوكتيل. يشبه الأمر الذهاب إلى كابري أو سان تروبيه بالنسبة للشخص العادي.

كان نهجه في الطبيعة البشرية بدائيًا لدرجة أن الرجال الأكثر تعقيدًا وجدوا صعوبة في فهمه. كانوا يقولون له: "الوضع أكثر تعقيدًا من ذلك". فيرد سيتشين بكلمة واحدة: "هراء". وكانت الحقائق تثبت صحة رأيه دائمًا تقريبًا.

في أحد الأيام، اكتشفت أنه يحمل شهادة في فقه اللغة، وراودتني فكرة سخيفة بأننا قد نشترك في اهتمامات ما. وحين سنحت الفرصة، حاولت سؤاله عن مؤلفيه المفضلين. كنا في مكتبه، فقال بنبرة رتيبة:

- "لم أقرأ كتابًا منذ اليوم الذي نلت فيه شهادتي. فقط هذه."

وأشار إلى كومة من المذكرات الخالية من العناوين، كتبتها الأجهزة الأمنية.

في كل صفقة، ثمة مهام لا يرغب أحد في أدائها لكن الجميع بحاجة لإنجازها؛ وهنا يأتي دور سيتشين. والآن وقد أصبح خودوركوفسكي في السجن،

ظهرت مشكلة التصرف في شركتة، يوكوس. أراد الليبراليون في الحكومة السماح لميخائيل بالاحتفاظ بها، لكن كان من الواضح أن غرض القيصر يتجاوز معاقبة فرد واحد: كان لا بد من تفكيك النظام برمته. كما كانت يوكوس الشركة الروسية الأولى. الأكثر إثارة للإعجاب. والأكثر ثراءً. غنيمة حرب تسيل لها لعاب أشرس حيوانات الكرملين.

التهمها سيتشين في لقمة واحدة. مصادرة بأمر قضائي، ومزاد علني بمزايد واحد، وانتهى الأمر بشركة يوكوس في محفظة تكتل عام عُين إيغور رئيسًا له قبل بضعة أشهر. غضبت صحفكم واعتبرت الأمر سرقة. لكن القصة أكثر تعقيدًا قليلًا. سيتشين هو "سيلوفيك"، أي "رجل قوي" تخرج من الأجهزة الأمنية. لطالما كان هؤلاء حاسمين في روسيا، الرجال الأقوياء: جنودًا، وجواسيس، ورجال شرطة. وسيتشين، لقربه من القيصر، أصبح مرجعهم.

الآن، من الواضح أنكم في الغرب، تعيشون بنفاق، وتظنون أن القوة، والبأس، والشدة، أمور عتيقة بعض الشيء. أنتم تؤمنون بالقواعد، بمحاميكم الذين يتراسلون بالبريد المسجل ويتقاضون أتعابًا بملايين الدولارات. تعشقون التجمعات السنوية في دافوس، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، والمهندسين المعماريين النجوم الذين يبنون ناطحات السحاب في روتردام وبكين، والطهاة الذين يفتحون مطاعم الذواقة في بالي وزيرمات. فكرة ارتداء الزي العسكري أو حمل السلاح تجعلكم غير مرتاحين؛ لقد أصبحت علامة المرؤوس، أو بواب الفندق، أو موظف الشباك في شركة تأجير السيارات. لذا، عندما يتعلق الأمر بزي جندي أو شرطي، فمكانه المتحف، شيء ينظر إليه الأطفال في الرحلات المدرسية.

ومع ذلك، كنت مثلكم. قضيت وقتًا طويلًا جدًا في قراءة مجلاتكم واحتساء الكابتشينو. بدا لي تفكيك يوكوس عملًا همجيًا، ارتدادًا للعادات القديمة التي حاولنا تركها خلفنا. الله يعلم أنني لم أكن مولعًا

بخودوركوفسكي، لكن فكرة أن يحل محله "شيكيست" (رجل استخبارات) كانت فكرة تبعث القشعريرة.

في إحدى الليالي، استدعاني بوتين إلى مكتبه. كان ذلك خلال الأيام الحرجة التي كان علينا فيها اتخاذ قرار بشأن مصير الشركة. كان القيصر قد عاد لتوه من قمة في الخارج، وكان متوترًا ومنهكًا لدرجة أنه لم يستطع إجبار نفسه على الجلوس، بل راح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بعصبية.

قال:

- "إنها القصة نفسها دائمًا. يعاملونني وكأنني رئيس فنلندا. بل أسوأ، لأن فنلندا على الأقل بلد متحضر، بينما روسيا لا تزال نصف متوحشة، متشرد سكران يتربص عند الباب. ربما هم على حق. لقد تصرفنا كالشحاذين في البداية، نوزع ابتسامات عريضة على الجميع ونتأكد من أنهم رأوا وعاء التبرعات."

صمت القيصر للحظة، ثم تابع بنبرة أكثر هدوءًا:

- "عندما كنت أنشأ في لينينغراد، كان هناك الكثير من المشردين في الشوارع. اعتاد أطفال الحي ركلهم. لمجرد التسلية. وكلما احتج المشردون أكثر، زاد ركلهم. لكن كان هناك رجل واحد تركوه وشأنه. لم يكن الأضخم جثة، بل كان في حالة يرثى لها في الواقع، أظن أن اسمه كان ستيبان. لكن هل تعلم ما الذي كان مختلفًا فيه؟ كان مجنونًا، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته تمامًا. إذا اقتربت منه، حتى لتقول مرحبًا، قد يكسر زجاجة فوق رأسك، هكذا ببساطة، ودون سبب. روى الناس الكثير من القصص الغريبة عنه، قالوا إن لديه قوى معينة، وإنه جعل أناسًا يختفون. كنا نراه من بعيد، وعندما يبدأ في الابتسام كان ذلك يخيفنا أكثر مما لو صرخ. كنا نهرب بأقصى سرعة، وحتى كبار الفتوات في الحي كانوا يسلكون طريقًا بديلًا لتجنب الاصطدام بـ(ستيبا

المجنون). عندما تكون معدمًا ومسحوقًا، فإن السلاح الوحيد الذي تملكه لحماية كرامتك هو القدرة على زرع الخوف."

قلت له:

- "المشكلة يا سيدي الرئيس، هي أننا عندما نزرع الخوف في نفوس خصومنا، نزرع الخوف أيضًا في الأسواق. وهذا شيء لا يمكننا فعله."

ارتجف بوتين، ولأول مرة منذ عرفته، شعرت بوميض من الكراهية موجه إليّ.

قال:

- "افهم شيئًا واحدًا جيدًا يا فاديا، التجار لم يحكموا روسيا قط. هل تعلم لماذا؟ لأنهم لا يستطيعون توفير الأمرين اللذين يطلبهما الروس من الدولة: النظام الداخلي والقوة الخارجية. مرتين فقط، ولفترتين وجيزتين، حكم التجار بلادنا: مرة لبضعة أشهر بعد الثورة الروسية عام 1917، قبل أن يتدخل البلاشفة، ومرة لبضعة سنوات بعد سقوط جدار برلين، خلال عهد يلتسين. وماذا حدث؟ الفوضى. انفجار للعنف، شريعة الغابة، ذئاب تخرج من الغابات وتجوب مدننا لتفترس السكان العزل."

جعلت نبرة القيصر الجليدية الصورة التي يرسمها أكثر رعبًا.

تابع قائلًا:

- "صديقك خودوركوفسكي يرتدي ملابس مثل رواد أعمال (وادي السيليكون)، لكنه ذئب من السهوب. لم يخترع شيئًا قط، ولم يبدع شيئًا قط. لقد ساعد نفسه فقط في اقتطاع قطعة من الدولة الروسية، مستغلًا ضعف وفساد الأشخاص الذين كان ينبغي عليهم حمايتها. هل تعلم كم دفع مقابل امتيازات النفط عام 1995؟ ثلاثمائة مليون دولار. وكم كانت قيمتها السوقية بعد عامين؟ تسعة مليارات. يا له من رائد أعمال مذهل، أليس كذلك؟ يا له

من عبقري! إنهم جميعًا سواء، هؤلاء الأوليغارشية. كلهم عباقرة. والآن يأتون إلينا ويعظوننا عن احترام القانون. ويمولون خصومنا لأننا غير مهذبين، ولا نستمع إليهم بما يكفي. ربما يستبدلونني بعد قليل بشخص يحمل شهادة من هارفارد، دمية تجعل مظهرهم جيدًا في مؤتمر دافوس، ما رأيك؟"

لم أفكر في شيء بالطبع.

وبينما كان يزيح العبء عن صدره، ارتفعت معنويات القيصر. ذهب وجلس خلف مكتبه وأشار لي بالجلوس على الكرسي المقابل له.

- "علينا استعادة سيادتنا يا فاديا. والطريقة الوحيدة لذلك هي تعبئة كل مواردنا. ناتجنا المحلي الإجمالي بحجم ناتج فنلندا؟ ربما. لكننا لسنا فنلندا، نحن أكبر دولة على وجه الأرض. والأغنى. كل ما في الأمر أننا سمحنا لثروتنا، الثروة الجماعية التي هي حق أصيل للشعب الروسي، بأن تسرقها عصابة من قطاع الطرق. في السنوات الأخيرة، خلقت روسيا أرستقراطية (أوفشور)، أناس يكدسون مواردها لكن قلوبهم ومحافظ نقودهم في مكان آخر. سنستعيد السيطرة على مصدر ثروة بلادنا يا فاديا: الغاز، النفط، الغابات، المناجم، وسنستخدم هذه الثروات لتعزيز مصالح وعظمة الشعب الروسي، لا مصالح رجل عصابات يمتلك فيلا في كوستا ديل سول."

واستطرد قائلًا:

- "ولا يتعلق الأمر بالاقتصاد فحسب. انظر إلى الجيش. لم يعرف يلتسين ماذا يفعل بالمؤسسة العسكرية. كان خائفًا منها جزئيًا، ومزدريًا لها جزئيًا، لذا تجنب التعامل معها وتركها تتعفن بعيدًا عن الأضواء، وواجهات المتاجر، وناطحات السحاب في روسيا الجديدة. هكذا أصبحنا نوعًا من دول أمريكا الجنوبية، بجنرالات يتصرفون كرجال العصابات وينخرطون في السياسة، وجنود يموتون جوعًا ويبيعون أنفسهم مقابل علبة سجائر. ما نفعله الآن هو إعادة

الجيش إلى عمودية السلطة، جنبًا إلى جنب مع الأجهزة الأمنية. لطالما كانت القوة في قلب الدولة الروسية، وسبب وجودها. لكن واجبنا ليس مجرد استعادة عمودية السلطة، بل نحتاج لخلق نخبة جديدة، نخبة وطنية مستعدة للذهاب إلى أي مدى للدفاع عن استقلال روسيا."

في ذلك الوقت، كنت لا أزال أقبل ما يقوله القيصر حرفيًا. لم يكن لدي أدنى فكرة عن الرغبة العميقة في الانتقام المختبئة خلف كلماته، ولا عن استحالة ملء الفراغ الهائل الذي كانت تخفيه. لكن في تلك الليلة أدركت أن الحرب ضد الأوليغارشية كانت مجرد بداية. لم تكن المسألة مجرد استعادة السيطرة على بضع شركات وقعت في الأيدي الخطأ. كان علينا تعبئة كل مواردنا، كل عناصر قوة روسيا، لاستعادة مكاننا على المسرح العالمي. «الديمقراطية السيادية»، كان هذا هدفنا. ولتحقيقه، كنا بحاجة لرجال من فولاذ، رجال يمكنهم أداء الوظيفة البدائية لأي دولة: أن يكونوا سلاحًا للدفاع والهجوم. وهؤلاء الرجال كانوا الـ«سيلوفيكي»، رجال الأجهزة الأمنية. وكان بوتين واحدًا منهم. الأقوى، والأكثر دهاءً. والأشد بأسًا. لكنه واحد منهم. كان يعرفهم، ويثق بهم دون غيرهم. وضعهم في مراكز السلطة - في المناصب الحكومية العليا بالطبع، ولكن أيضًا على رأس الشركات الخاصة، التي استعادها تدريجيًا من أيدي انتهازيي التسعينيات. الطاقة، المواد الخام، النقل، الاتصالات. في كل قطاع، استُبدلت الأوليغارشية بالرجال الأقوياء، السيلوفيكي. وهكذا أصبحت الدولة مرة أخرى مصدر كل شيء في روسيا.

ستقول لي إن ما نتج عن ذلك هو نظام فاسد؟ نظام يكون فيه الوزراء هم أيضًا رؤساء تنفيذيون، كما يود أولئك المدونون إثباته، وهم جالسون هناك في موسكو بسراويل الجينز التي يبلغ ثمنها ثلاثمائة دولار، يلوموننا على فيلاتنا، وقواربنا، وطائراتنا الخاصة؟ ولكن أليس صحيحًا أيضًا أنه عندما كان

وينستون تشرشل اللورد الأول للأميرالية، كان يستخدم يخت البحرية الملكية «الساحرة»، حيث كان يستضيف أصدقاءه المليونيرات ردًا لجميل ضيافتهم له في سويسرا أو على الـ«كوت دازور»؟ خلال الحرب العالمية الأولى، كان دوق ويستمنستر يقرضه سيارته الرولز رويس، وعندما سافر إلى الولايات المتحدة، عرض عليه أصدقاؤه الصناعيون عربات قطاراتهم الخاصة. في كاليفورنيا، أقام في «سان سيميون»، منزل ويليام راندولف هيرست، أو في جناح بفندق «بيلتمور»، مدفوع التكاليف من قبل الله يعلم من. هل منع أي من هذا تشرشل من أن يكون أحد الشخصيات الرئيسية في القرن العشرين؟ بالطبع لا، بل العكس هو الصحيح. لماذا يجب على رجل الدولة أن يعيش كموظف بريد؟

فكرة أن الرجال في القطاع العام يجب أن يعيشوا مثل المغفلين الفقراء هي فكرة غير أخلاقية بعمق. الحكومة بحاجة للحفاظ على مكانتها. لا يمكن لخدمها أن يكونوا نكرات فشلوا في القطاع الخاص، أناسًا يظهرون وأيديهم ممدودة يطلبون الصدقة. مساهمتنا العظيمة كانت خلق نخبة جديدة تجمع بين قدر كبير من السلطة وقدر كبير من المال. رجال أقوياء يمكنهم الجلوس على أي طاولة، غير مقيدين بالعقد التي تصيب سياسييكم الرثين ورجال أعمالكم العاجزين. أناس مكتملون، يمكنهم استخدام النطاق الكامل للأدوات التي تؤثر في الواقع: السلطة، المال، وحتى العنف عند الضرورة. رؤساؤكم التنفيذيون الزائفون لا يمكنهم الصمود أمام نخبة كهذه، تبدو وكأنها نبتت من عصر سابق، من عصر النبلاء العظماء في روما القديمة، زمن مؤسسي الإمبراطوريات التي امتدت عبر العالم.

السلطة لا تفسد المرء بالضرورة، بل قد تحسنه أيضًا، طالما كان قادرًا على التعامل معها. كل قائد يطلب الولاء قبل كل شيء، لكن الكثيرين يرتكبون خطأ البحث عنه لدى رجال ضعفاء أو متوسطي الكفاءة. فكرة مريعة: هؤلاء

هم دائمًا أول من يخون. الضعفاء لا يملكون رفاهية أن يكونوا صادقين. أو مخلصين. يدرك القيصر أن الولاء سمة توجد لدى القادرين على تنميتها - الأقوياء، أولئك الواثقون من أنفسهم بما يكفي لرعايتها. ومع ذلك، من الواضح أن الصراع على السلطة في روسيا، مقارنة بأماكن أخرى، وحشي وغير تقليدي. أي شيء يمكن أن يحدث في أي لحظة. القواعد شرسة، لأن الرهانات نفسها كذلك.

(19)

هبطتُ في نيس في صباح خريفي. كانت رائحة الهواء مزيجًا من الملح وراتنج الصنوبر. كان هناك رجلان ضخمان يرتديان ملابس من "برادا" ينتظران على المدرج ليأخذاني إلى قصر "لا غاروب". ما أسموه قصرًا كان في الواقع فيلا قبيحة بناها بارون إنجليزي في مطلع القرن العشرين، وتدهورت حالتها لاحقًا على يد سلسلة من الملاك اللاحقين. كانت المنطقة في الأصل فردوسًا، لكن أنتيب تحولت تدريجيًا إلى ما يشبه منتجعًا فاخرًا من فئة الثلاث نجوم، ورغم أن الفيلات في شبه الجزيرة قد تستحق نصف نجمة إضافية أو نحو ذلك، إلا أنها لم تنجُ تمامًا من برنامج القبح العام الذي أصبح بيريزوفسكي مؤخرًا متحولاً حماسيًا إليه.

كان بوريس، السخي بملايينه، قد اشترى عدة منازل مجاورة وضمها في عقار واحد ضخم. استقبلني في الفناء الأمامي، وبدا في حالة مزاجية جيدة، مرتديًا ملابس تشبه ملابس ممول في إجازة، سروال كاكي وقميص مخطط. كان ينبعث منه شعور بكآبة مفرطة الإثارة. قال وهو يأخذني في جولة بالعقار:

- "هذا الشاطئ هو المكان الذي اعتاد بيكاسو الرسم فيه على الرمال. وكول بورتر ألف أغنية «الحب للبيع» في هذه الغرفة".

وبينما كان يتحدث، كانت ثقافة العشرينيات تتحول إلى نقاط بيع لصفقة عقارية.

بمجرد أن استقر بنا المقام في مكتبه بالطابق الثاني، عرضت سبب زيارتي. أفادت تقارير أجهزتنا الاستخباراتية بوجود شائعة - في الواقع هي أكثر بكثير من مجرد شائعة - بأن بيريزوفسكي كان أحد الداعمين الرئيسيين للمعارضة الأوكرانية، وهو الأمر الذي بدأ يثير مخاوف جدية لدى القيصر. فكرة أن روسيا تفقد السيطرة على ما كان لقرون جزءًا لا يتجزأ من أراضيها كانت تدفعه للجنون حرفيًا. قال لي:

- "اذهب لرؤية ابن العاهرة ذلك، أخبره أنه تمادى كثيرًا، وحاول إقناعه بالمنطق".

كنت أحاول فعل ذلك بالضبط، لكن كالعادة، لم أكن أحقق نجاحًا كبيرًا. كانت إسهابات بوريس ذات طابع دائري، تعود دائمًا تقريبًا إلى نقطة انطلاقها.

- "هل تعلم ما هي المشكلة يا فاديا؟"

- "بالطبع أعلم يا بوريس، المشكلة هي أن بوتين جاسوس".

- "لا استمع يا فاديا، إنه ليس جاسوسًا. رئيسك عمل في مكافحة التجسس. هذا ليس الشيء نفسه على الإطلاق! هل تعرف الفرق؟ الجواسيس يبحثون عن معلومات دقيقة، هذه وظيفتهم. لكن الأشخاص في مكافحة التجسس، وظيفتهم أن يكونوا مصابين بجنون الارتياب. أن يروا مؤامرات وخونة في كل مكان، وأن يخترعوها إذا لزم الأمر. هذا هو تدريبهم. الارتياب واجب مهني. في طريقة تفكير القيصر، لا يحدث شيء تلقائيًا أبدًا. هناك دائمًا تلاعب. مع الاحتجاجات أو غضب الناس، لا شيء أبدًا كما يبدو. يجب دائمًا أن يكون هناك شخص خلف الكواليس يحرك الخيوط، محرك دمى يسعى لتحقيق أجندته الخاصة. هكذا فسر رئيسك حادثة الغواصة، عندما كان الصحفيون يقومون بعملهم فقط وكان لدى الناس كل الأسباب ليكونوا

غاضبين. وهذا ما يعتقده الآن بشأن أوكرانيا. كما لو أن الأوكرانيين المساكين ليس لديهم أسبابهم الوجيهة للتمرد على المحتالين الذين يحكمونهم".

- "بالتأكيد لديهم أسباب وجيهة يا بوريس، لكن لديهم أيضًا الثلاثين مليون دولار التي أرسلتها لهم".

- "وماذا في ذلك؟ هذا يسمى سياسة يا فاديا. وتعرف ماذا أيضًا؟ هذا يسمى ديمقراطية. لكنك نسيت بالفعل ما تعنيه هذه الكلمة".

خلف النوافذ، خفف المشهد الباهت للريفيرا من حدة كلمات بيريزوفسكي.

قلت:

- "هل تعلم من هم الداعمون الرئيسيون للمعارضة الأوكرانية؟ هل أعددهم لك؟ هناك وكالة الاستخبارات المركزية، ووزارة الخارجية الأمريكية، والمؤسسات الأمريكية الكبرى، ومؤسسة المجتمع المفتوح لجورج سوروس. ثم هناك أنت، الرجل الذي حارب إلى جانبنا لإنقاذ روسيا من الكارثة، الذي رأى أنه يجب استعادة سلطة الكرملين".

- "وماذا في ذلك؟ أنتم من طردتموني. لست هنا باختياري، قد أذكرك بذلك. أنا أعيش في المنفى يا فاديا. لأنني إذا وطأت قدماي روسيا مرة أخرى، سينتهي بي المطاف في السجن مثل صديقك خودوركوفسكي. أنتم أخذتم كل ما أملك يا فاديا، فماذا يُفترض بي أن أفعل، أن أقول شكرًا؟".

نظرت حولي إلى طاولات الماهوجني، ورف الموقد من طراز لويس الخامس عشر، والشمعدانات البرونزية، ولفائف الأقنثة، والتماثيل الرخامية. كل ذلك كان غير مناسب قليلاً لهذا المكان، الذي كان في النهاية مجرد منزل شاطئي فاخر، لكن بيريزوفسكي لم يستوعب أبدًا مفهوم البساطة. تبع نظراتي وقال:

- "كل ذلك ملكي يا فاديا، كسبته بعرق جبيني. حتى لو أردت، لا يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك".

- "كن عادلاً يا بوريس. حتى الآن، بقي القيصر صديقًا لك، رغم خلافاتكما. ولهذا السبب تمكنت من بيع أسهم شركاتك في روسيا. كم حصلت؟ حوالي 1.3 مليار دولار، إذا كنت أتذكر؟".

- "أقل بكثير مما تستحق".

- "لكنها كافية على أي حال لضمان حياة مريحة لك ولأحفادك، على ما أظن".

- "لو كنت أريد حياة مريحة يا فاديا، لبقيت في الجامعة ودرّست الرياضيات".

للحظة، حام شبح بيريزوفسكي كأستاذ يشيب شعره ويرتدي سروالاً مخمليًا وسترة شتلاند في الهواء بيننا.

قلت بصبر:

- "ما أحاول إخبارك به يا بوريس، هو أنه من الحكمة ألا تستهين بما لديك. أي شخص آخر سيستغل ذلك بالكامل".

- "وإلا ماذا؟ ترسل قتلتك المأجورين ورائي؟ انظر حولك يا فاديا، لدي رجالي أيضًا. ورجالي أفضل من رجالك لأنني أدفع لهم عشرة أضعاف ما تدفعه".

- "لا تكن سوقيًا يا بوريس. لم آتِ إلى هنا لتهديدك. فقط لأناشد حسك الوطني. أنا أفهم استياءك، لكنني لا أصدق أنه أعماك لدرجة الانقلاب على بلدك".

رد بيريزوفسكي بحدة:

- "روسيا بوتين ليست بلدي. لم أعد أعرفها. كانت لدينا عيوبنا، لكن للمرة الأولى في التاريخ الروسي، نجحنا في بناء بلد حر، بلد يمكن للناس فيه فعل وقول ما يريدون. للمرة الأولى في أحد عشر قرنًا من التاريخ يا فاديا، فكر في ذلك. وفي غضون سنوات قليلة، مزقتم كل شيء، كل شيء. أعدتم روسيا إلى ما كانت عليه دائمًا: سجن عملاق".

- "لا ينبغي لأحد أن يشعر بالأسف الشديد على الروس. لديهم مائة وعشرون قناة تلفزيونية".

- "لكن تلك القنوات جميعها تحكي القصة نفسها يا فاديا، مثل أيام بريجنيف".

كنت على وشك الإجابة عندما قاطعنا خادم يرتدي ملابس بيضاء. كان الغداء جاهزًا. نزلنا للانضمام إلى مجموعة صغيرة من الأشخاص المجتمعين في غرفة الرسم.

قال بيريزوفسكي:

- "أصدقائي الأعزاء، اسمحوا لي أن أقدم لكم فاديم بارانوف، العقل المدبر الحقيقي لصديقي فلاديمير بوتين، قيصر كل الروس".

كانت فرصة المبالغة شيئًا لا يمكن لبوريس تفويته أبدًا. التفت ضيوف الغداء لينظروا إليّ باهتمام خفيف. كانت عيونهم متعبة كعيون أشخاص يتناولون الطعام عادة في أماكن مثل قصر لا غاروب. سيدة مسنة أنيقة. مطور عقاري في الخمسينيات من عمره ترك الزر السفلي على كم سترته مفتوحًا ليظهر أنها مفصلة خصيصًا. شابتان مزخرفتان كانتا تتحدثان في الغالب مع بعضهما البعض. ورجل أعمال نورديك يبدو كفؤًا كان من الواضح أنه غير مرتاح للأجواء المتوسطية.

كنت على وشك الاندفاع نحو صينية المشروبات، باعتبارها الترياق الوحيد لساعات الملل القاتل القادمة، عندما شعرت فجأة بنبضة قوية من الطاقة، مثل شعاع مشع، تنبعث من غرفة الطعام. التفت لاكتشاف مصدرها. خلف الأبواب الزجاجية المزدوجة المفتوحة على مصراعيها، وقفت مخلوقة مثالية، حضور متألق. كانت سمراء قليلاً، وترتدي سترة بيضاء تصل إلى ما فوق ركبتيها مباشرة. نظرت إليّ عيناها الرماديتان الشبيهتان بعيني سمك القرش دون أي أثر للعاطفة. كانت كسينيا. لم تفقد شيئًا من روعتها، التي بدت في الواقع معززة بمرور الزمن. بدا أن نوعًا من الفضيلة المحاربة تسكن ملامحها، لتحل محل التقلب الطفولي الذي عرفته. كسينيا في غرفة طعام بيريزوفسكي كانت تشع بجمال جيش مصطف في تشكيل قتالي. أومأنا لبعضنا البعض، دون ابتسامة. كل شيء، الماضي والحاضر، أمرنا بالتصرف كأعداء. ومع ذلك لم ألمح أي عداء من جانبها، ولم أشعر بأي ضغينة تجاهها. بدا بدلاً من ذلك وكأنني وجدت تعويذة مفقودة، تعويذة طواها النسيان منذ زمن طويل لكن مرور الزمن لم يغير من قوتها شيئًا.

كان شغلي الشاغل خلال الغداء هو ألا أنظر إليها. في البداية، لم يساعد الحديث على الإطلاق. كان الرجل الخمسيني الأسمر، الذي تبين في الواقع أنه وسيط عقاري عملاق في لندن، يقارن الخدمات التي تقدمها محطات الطائرات الخاصة في نيس بتلك الموجودة في كان. كانت إحدى الشابات تصف افتتاح معرض فني معاصر في معرض بمونت كارلو. شخص آخر كان ينتقد حقيقة أن فندق دو كاب يسمح الآن باستخدام بطاقات الائتمان. تركز انتباهي على جراد البحر الصغير الذي قُدم لنا، وقد كُسرت قشوره بالفعل لتجنيبنا أدنى إزعاج.

في مرحلة ما، وجه بيريزوفسكي الحديث نحو الموضوع المفضل لكل روسي: روسيا، والروس، وخصائصنا ومفارقاتنا المميزة. تحدث إلى ضيوفه بنبرة المزاح التي كان يستخدمها ذات مرة مع معارفه في دار لوغوفاز.

- "نحن لا ننتمي إلى نفس عرقكم، أود أن تعلموا ذلك. لدينا بشرة بيضاء، نعم، وبعض الأشياء الأخرى المشتركة، لكن الفرق في العقلية بين الروسي والغربي كبير كالفرق بين كائن فضائي وكائن أرضي. إذا سمحت لي يا بارونة، أود أن أحكي لك قصة عن شخصية من أوائل القرن الماضي، ربما يكون سلفًا لصديقنا فاديا".

عندها، اتجهت عيون ضيوف الغداء نحوي لفترة وجيزة قبل أن تعود مرة أخرى إلى مضيفنا.

- "كان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، هذا سيرجي، وعندما اندلعت ثورة أكتوبر ذهب شمالاً لمحاربة البلاشفة. بعد أن قضى الفصيل الأحمر على آخر مقاومة، فر إلى المنفى، أولاً إلى برلين، ثم إلى باريس، حيث أصبح على الفور ركيزة لمجتمع الروس البيض. كان يضم أمراء يشربون مع لصوص الخيول وقوزاقًا أصبحوا حراس ملهى ليلي - مجموعة هامشية، تعيش فوق إمكانياتها، مؤمنة بأن البلاشفة سيُطردون في النهاية وستعاد جميع القصور والعقارات إلى أصحابها الشرعيين. «إلى العام القادم في سانت بطرسبرغ!» كانوا يهتفون، وكؤوسهم مرفوعة، متظاهرين بعدم معرفة أن زمنهم قد ولى، إلى الأبد".

صدرت تنهيدة كبيرة من البارونة، التي كانت تنتمي بوضوح إلى تلك النبالة الهامشية في إنجلترا التي يمكن استئجار أعضائها بأسعار معقولة لملء تجمع عطلة نهاية الأسبوع أو مقعد شاغر في مجلس الإدارة.

استمر بيريزوفسكي:

- "كان سيرجي دائمًا الأول في الدعوة للحفلات وآخر من يغادر الطاولة - وهي صفة، كما تعلمون، يحترمها الروس كثيرًا. لكن بعد فترة، بدأت موارده المالية تظهر عليها علامات الإجهاد، ولم يبقَ لديه شيء تقريبًا. حتى ذات ليلة، أخذه صديق جانبًا وقال: «بالمال الذي تبقى لديك يا سيريوغا، هناك ما يكفي فقط لشراء رخصة تاكسي لنفسك. فكر في مستقبلك، وإلا سينتهي بك المطاف بالعيش تحت جسر». ماذا كان سيفعل أي منكم، أنتم الغربيون ذوو الحس السليم والتعليم الواسع؟".

كبح بوريس نفسه وحدق في ضيوفه حول طاولة الغداء.

- "سأخبركم بما كنتم ستفعلونه، كنتم ستخلعون أحذية الركوب بهدوء، وتشدون قبعة سائق التاكسي على جبينكم، وتستسلمون لمدى الحياة في القيام برحلات بين النجم ومحطة ليون، وهو المسار المنطقي الوحيد. لكن ماذا فعل سيرجي؟ فكر طويلاً. ضغط على كتف صديقه. نهض، وسار نحو مدير المطعم، وبالصوت الذي استخدمه لقيادة شحنة فوجه الأخيرة في أرخانغلسك، هتف: «شمبانيا للجميع!» هذا، ألا ترون، هو الروسي. الروسي هو شخص يشتري للجميع جولة أخيرة من الشمبانيا بمال رخصة التاكسي الخاصة به!".

أطلقت البارونة زقزقة تقديرية. كان هذا أقل ما يمكنها فعله، حيث يبدو أن سيد المنزل حكى القصة لصالحها. أما بالنسبة لي، فقد شككت في صحتها؛ بدا لي أنني أتذكر أن جوزيف كيسيل قد روى حكاية مماثلة في إحدى قصصه القصيرة المبكرة. كان لدي أيضًا شك في أن بيريزوفسكي قد نبشها من أجلي. إنه يقول: أنا روسي حقيقي، ولن أستبدل طرقي المجنونة أبدًا برخصة تاكسي.

- "لا أعتقد أنه شيء يدعو للفخر يا بوريس"، قالت كسينيا، متحدثة لأول مرة. "انظر إليهم جميعًا، يتسابقون في شوارع موسكو في سيارات مرسيدس الخاصة بهم، مع مواكب سيارات الدفع الرباعي، وأضوائهم الدوارة،

وأجهزة تشويش الهواتف المحمولة. ألا يبدو الأمر وكأنهم يمثلون؟ يؤدون تجربة أداء لدور في «مهمة مستحيلة» النسخة الروسية؟".

- "الجميع يمثلون دائمًا، يؤسفني قول ذلك".

- "لكن الروس فقط هم من يفعلون ذلك بشكل سيء للغاية"، ردت.

- "لا أعرف كيف تسير الأمور في روسيا"، قال المطور، الذي قرر فرض نفسه في المحادثة، "لكن في أفريقيا، على سبيل المثال، يمكن أن يكون هناك أيضًا جانب عملي. يعلم الشرطي أنه إذا كان لديك المال لشراء سيارة كبيرة، فلديك أيضًا المال لشراء رئيسه. لذلك يبقى بعيدًا عن مرسيدس 600".

نظرت إليه كسينيا كما لو كان ذرة طين سقطت من حذائها. قالت:

- "ذلك لم ينجح جيدًا في حالتنا. كان لدينا أسطول من سيارات المرسيدس، لكن الشرطة جاءت من أجلنا على أي حال".

صمت، ابتسامات إحراج. هذه المرة، تجنب الناس بعناية النظر إليّ. كنت أعلم من التجربة أن الشيء المهم عندما تتعرض للهجوم في المحادثة هو ألا تغير موقفك، أن تظل غير مبالٍ أثناء التحضير لهجوم مضاد. دون أن يرف لي جفن، اخترت تكتيك التحويل.

- "هناك يا بوريس، هل ترى؟ خلافًا لما تعتقده، روسيا ليست جمهورية موز!".

كانت كذبة وحشية، بالطبع. لكن من يملك الشجاعة لتكذيب كذبة عندما تصدر من فم السلطة؟ خاصة في تجمع اجتماعي حول طاولة غداء. حتى سيد المنزل لم يقدم أي رد. كان ذلك سيكون علامة ضعف، وقد تعلم بيريزوفسكي على مر السنين أن أي علامة ضعف لها ثمن. بعد تردد قصير، انطلق الحديث مرة أخرى في مسارات أكثر سلاسة. للحظة، خيل إليّ أنني رأيت لهبًا بعيدًا يرتفع في عيني كسينيا، ثم ينطفئ فجأة.

(20)

بعد أيام قليلة من رحلتي إلى الريفيرا، تدهور الوضع في أوكرانيا. رفض المتمردون، بدعم من الأمريكيين، قبول نتائج الانتخابات. احتلوا الساحة الرئيسية في كييف، حيث غنوا، ولوحوا بشرائطهم البرتقالية، وهتفوا بشعارات مؤيدة للغرب. فجأة، ظهرت لجان مراقبة دولية، ووفود من أعضاء الكونغرس الأمريكي، وبعثات دبلوماسية من الاتحاد الأوروبي من العدم، جميعهم متفقون على أن فوز المرشح الموالي لروسيا في الانتخابات كان مزورًا. لقد أجريت للتو انتخابات في أفغانستان والعراق، مع انفجار قنابل في الشوارع ومراكز اقتراع مليئة بالجنود الأمريكيين - ولكن لا مشكلة هناك، من الواضح أن كل شيء كان نزيهًا. ليس كذلك في أوكرانيا، بالطبع. يجب أن تكون هناك إعادة تصويت، لأن النتيجة جاءت خاطئة. لذلك أُجبرت الحكومة الأوكرانية على إجراء انتخابات ثانية، وهذه المرة فاز المرشح الموالي لأمريكا، الرجل الذي أراد جعل أوكرانيا عضوًا في الناتو. أوكرانيا - مسقط رأس خروتشوف وبريجنيف، مقر أسطولنا البحري - جزء من الناتو!

أطلقوا عليها اسم «الثورة البرتقالية». بالتحديد، ثورة! لقد كانت الاعتداء الأخير على ما تبقى من القوة الروسية. في العام السابق، حدث ذلك في جورجيا. هناك، أطلقوا عليها اسم «ثورة الورود»! في تلك الحالة أيضًا، كانت نتيجة الثورة، بفتياتها الجميلات ومبادئها النبيلة، هي تنصيب جاسوس لوكالة الاستخبارات المركزية لرئاسة الحكومة. لم تكن بحاجة إلى كرة بلورية

لتتخيل إلى أين سيتجهون بعد ذلك: روسيا. ثورة كبيرة ملونة في موسكو، رئيس جديد ربما يحمل درجة الماجستير من جامعة ييل في سيرته الذاتية، وسيكون انتصار الولايات المتحدة كاملاً. يمكن لبوش الابن أن يلعب دور البطولة في واحدة أخرى من تلك التنكرات التي كان يحبها كثيرًا. «المهمة أنجزت!» - ولكن هذه المرة قادمة إليك مباشرة من الساحة الحمراء.

بدأ الأقوياء جميعًا العمل على الفور. كانت تكتيكهم هو وضع التدابير المضادة المعتادة - طرد المتسللين الغربيين، وتحييد المحرضين، وإحكام السيطرة على وسائل الإعلام. كانت هذه بالتأكيد كلها تدابير مفيدة، لكنني شخصيًا شككت في مدى فعاليتها. في حالات من هذا النوع، يكون استخدام القوة دائمًا دليلاً على الإهمال، نابعًا من نقص الخيال، ونادرًا ما يحل المشاكل بطريقة دائمة.

كان نهجي الخاص مختلفًا. تذكرت شخصية غريبة قابلتها مرة أو مرتين عندما كنت أرى ليمونوف بانتظام. عملاق من الرجال، يزيد طوله عن ستة أقدام، يرتدي دائمًا الجلد الأسود، بشعر أسود فاحم ينسدل على كتفيه، كان يُعرف باسم ألكسندر زالدستانوف. في كل المظاهر، كان مجرد راكب دراجة نارية آخر في المعرض الواسع للشخصيات الغريبة التي أحب إدوارد وجودها حوله. لقد لفت انتباهي لأنه ذات مرة، عندما كنا نتناول العشاء مع ليمونوف و"مفوضيه الشعبيين"، بينما كان زملاؤه يحشون أفواههم بأفخاذ الخنزير المقلية، كان زالدستانوف ينتقي طبقًا من الروبيان المطهو على البخار مع سلطة الفاصوليا الخضراء والرمان. أوضح قائلاً: "كان والداي طبيبين في كيروفوغراد، ولدي شهادة طبية من معهد موسكو الطبي الثالث. كنت جراح تجميل".

في مرحلة معينة، أدرك أنه من الأمتع كسر الفكوك بدلاً من إعادة بنائها. لكنه احتفظ بحدة ورقة عنه افتقر إليها معظم رفاقه. في أواخر الثمانينيات،

أسس واحدًا من أوائل أندية الدراجات النارية في الاتحاد السوفيتي، مصممًا إياه على غرار "هيلز أنجلز". بدأت «ذئاب الليل» كقناطير، تجوب الشوارع على دراجاتهم القديمة من الحقبة السوفيتية، بحثًا عن قتالات، وكسر نوافذ المتاجر، والتهرب من الشرطة - متمردون نمطيون، ساذجون قليلاً من النوع الذي يعيش في ضواحينا في ذلك الوقت. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، حققوا قفزة نوعية وأصبحوا عصابة إجرامية تعيش على الابتزاز والاتجار بجميع أنواعه. قال لي زالدستانوف ذات مرة: "شعرت وكأنني أعيش في فيلم خيال علمي. لقد تلاشت الحضارة، وورثنا العالم. أو ما تبقى منه". ضمت العصابة سلافًا، وشيشانيين، وأوزبك، وداغستانيين، وسيبيريين - جميعهم يتشاركون شغفًا بالمحركات ذات السعة الكبيرة وذوقًا للمغامرة. كان لدى معظمهم وشم ضخم. نسور إمبراطورية، أيقونات للمسيح في المجد، صور ستالين. لم يكن التماسك يعني الكثير، ما يهم هو أن كل هذه الصور كانت رموزًا للعظمة الروسية. هذا ما جذبهم معًا حول ليمونوف.

كان إدوارد مثقفًا، وليس غبيًا على الإطلاق، وبالتالي بلا فائدة بحكم التعريف. لكن لم يكن ذلك حال ألكسندر. كان زالدستانوف وطنيًا حقيقيًا، رجل عمل وقائد عصابة. ربما حان الوقت للسماح لغضبه بالتنفيس بالكامل. وغضب جميع الفتيان الطيبين من حوله - الذين لم يزن أحد منهم، إذا كنت أتذكر، أقل من 235 رطلاً.

رتبت لقاءً معه في المكتب. ظهر زالدستانوف بسترته الجلدية، ولحية ثلاثة أيام، وتعبير خافت لا يبالي. لكنه كان رجلاً ذكيًا، لم يكن غير مبالٍ بالبيئة التي وجد نفسه فيها. لم يسبق له أن وطأت قدماه الكرملين فحسب، بل إن فكرة أنه قد يفعل ذلك يومًا ما لم تخطر بباله أبدًا. من الطريقة التي تحرك بها، والنظرات الخفية التي ألقاها من حوله، استنتجت أن راكب الدراجة النارية اعتبر هذا الاستدعاء حدثًا معجزيًا نوعًا ما.

لاحظت عدة مرات أن أشرس المتمردين هم من بين أكثر المتأثرين بأبهة وظروف السلطة. وكلما زاد تذمرهم عند البوابات، زاد نباحهم بفرح بمجرد دخولهم. على عكس الرجال البارزين، الذين غالبًا ما يخفون نبضات فوضوية خلف معرفتهم السهلة بالغرف المذهبة، يبهر المتمردون دائمًا، مثل الحيوانات البرية التي تقع في المصابيح الأمامية.

تظاهر زالدستانوف بالحفاظ على رباطة جأشه، لكنني شعرت أنني أستطيع قراءة عقله. قضينا الدقائق الأولى في الحديث عن الأيام البطولية للحزب البلشفي الوطني، متجنبين أي ذكر لإدوارد، الذي كان قد أنهى للتو عقوبته الأولى بالسجن لمدة عامين. لكن لم يكن هناك وقت نضيعه، وقررت إعطاءه الضربة القاضية.

قلت:

- "تم إبلاغ الرئيس باجتماعنا ويرسل لك تحياته".

عند هذا الخبر، بدا أن وزن راكب الدراجة النارية الذي يزيد عن ثلاثمائة رطل قد ارتفع للحظة فوق كرسيه. كان زالدستانوف يعيش إحدى نقاط حياته العالية.

- "لقد تابعت أنشطتك في السنوات القليلة الماضية، ويجب أن أخبرك أنني معجب جدًا يا ألكسندر. أنت استثنائي. تأخذ هؤلاء الشباب وتعطيهم منزلاً، انضباطًا. تحول هؤلاء الضالين، هؤلاء النفوس التائهة، إلى جنود قادرين على إنجاز أشياء غير عادية. أرى أنك أنشأت عملاً تجاريًا حقيقيًا، مع البار، والحفلات الموسيقية، وحتى التسويق!".

قال زالدستانوف بجدية:

- "عندما يأتون إلينا، يجدون الشيئين اللذين يبحثون عنهما: الأخوة والقوة".

- "بالضبط، الأخوة والقوة. وإذا كنت أقرأ هذا بشكل صحيح، فأنت لست مجرد عصابة دراجات نارية. أنتم حقًا مجموعة من الوطنيين الروس الحقيقيين".

أكد زالدستانوف: "الإيمان والوطن، فاديم أليكسييفيتش. نحن نتحول عن الشيطان ونتجه نحو الله، عكس التيار. نحن مستعدون لكسر الرؤوس، ولكن ليس من أجل كيلو كوكايين. لدينا قيم أخرى".

- "صحيح تمامًا، ألكسندر. الذئاب ليست مجرد مفترسات، إنها أيضًا حراس للغابة".

نظر إليّ راكب الدراجة النارية، مرتبكًا قليلاً. هل كنت أبالغ في ذلك؟ قررت الدخول في صلب الموضوع. سألت:

- "هل رأيت ما يحدث في أوكرانيا؟".

- "بالتأكيد، إنهم يقومون بثورة".

- "هذا غير دقيق تمامًا يا ألكسندر. الثورة تأتي من الأسفل، تعطي السلطة للشعب. ما حدث في أوكرانيا كان انقلابًا. ومن تظن أنه وصل إلى السلطة؟ الأمريكيون يا ألكسندر. الثورة البرتقالية لم تبدأ في ساحة الميدان، بدأت في لانغلي، فرجينيا. ولكن عليك أن تعطيها حقها، قامت وكالة الاستخبارات المركزية بعملها جيدًا، ليس كما في الماضي. في الأيام الخوالي، كانوا يدفعون للجنرالات. وإذا أطلقت انقلابًا عسكريًا في اللحظة المناسبة، كان الأمر في الحقيبة. فعلوا ذلك لسنوات، ونجح الأمر جيدًا. لكن في الوقت الحاضر الأمر أكثر تعقيدًا. هناك الإنترنت، الهواتف المحمولة، الكاميرات. لذا، خمن ماذا؟ غيروا كتاب اللعب الخاص بهم. في الواقع، قلبوه رأسًا على عقب: بدلاً من البدء من الأعلى، بدؤوا من الأسفل. لقد كانت حالة من احتضان السلطة لمناهضة السلطة. درسوا تقنيات أعدائهم. حرب العصابات، المسالمون، الحركة الشبابية. وفهموا كيف يعمل الأمر".

أو على الأقل كان هذا هو الاقتناع الراسخ للقيصر.

- "انظر إلى أوكرانيا يا ألكسندر. لقد أنشأوا منظمة شبابية، وأقاموا حفلات موسيقية في ساحة الميدان، وأنشأوا منظمة غير حكومية لمراقبة الانتخابات، ما يسمى، ووسائل إعلام ادعوا أنها مستقلة، على الرغم من أنها كانت خاضعة لسيطرة، كما حدث، من قبل أكثر الأوليغارشيين معاداة لروسيا. حتى الشريط البرتقالي. أراهن أنهم أجروا استطلاعًا لاختيار اللون. كل شيء محسوب، تمامًا كما عندما يطلقون منظفًا جديدًا. أو الأفضل من ذلك، مشروبًا جديدًا للمراهقين. لأن المكون الرئيسي هو الطاقة، إحباط الشباب، رغبتهم في تغيير العالم. يفهم الأمريكيون ذلك، ويحققون أقصى استفادة منه.

كان إدوارد محقًا بشكل أساسي. هناك سؤال وجودي يكمن وراء كل شيء، السؤال الذي يعذب كل شاب. ماذا يجب أن أفعل بحياتي؟ كيف يمكنني إحداث فرق؟ إنه ليس سؤالاً سياسيًا. ولكن هناك أوقات في التاريخ عندما، إذا لم يتمكن النظام من تقديم إجابة مرضية، فسيتم اكتساحه. من الطبيعي تمامًا أن يرغب أكثر الشباب مغامرة في فعل الأشياء، في البحث عن قضية. وعدو. ما يتعين علينا القيام به هو إعطاؤهم تلك القضية وذلك العدو - قبل أن يختاروا واحدًا بأنفسهم.

ولكن للأسف لسنا في وضع يسمح لنا بذلك. انظر حولك يا ألكسندر. لا شيء هنا سوى بيروقراطيين ببدلات وربطات عنق، سياسيين، ممثلي أحزاب. نحن نمثل هيكل السلطة، نحن مثل الرجل في ذلك الفيلم الذي يتحدث عنه إدوارد دائمًا، الشخص الذي يقول «بلاستيك!» لخريج الكلية الذي يسأله عما يجب أن يفعله بحياته. نحن الكبار، العدو".

- "في حين أنني...".

- "أنت بالغ أيضًا يا ألكسندر. لكنك سلكت طريقًا مختلفًا في الحياة. لم تقدم أي تنازلات. أنت تمثل الحرية، المغامرة. طاقتك الحيوية لا تزال سليمة. يكفي أن ينظر الشخص إليك ليعرف ذلك. يشعر الشباب بذلك مباشرة. وأنت تفهمهم. أنت تعرف ما يريدون. أنت تعرف كيف تتحدث إليهم وماذا تقول. يمكنك توجيههم حتى لا يقعوا في الفخ الذي نصبه لهم الأمريكيون. يمكنك قيادتهم نحو قيم حقيقية. الوطن. الإيمان".

- "ربما، لكن العمل بمفردك، كما تعلم...".

- "لن تكون وحيدًا يا ألكسندر. سيكون القيصر خلفك، وسيحميك. إنه ليس مثلنا، هنا في الكرملين. إنه ليس بيروقراطيًا، بدلة. القيصر مثلك. إنه ينتمي إلى رتبة الفاتحين. لقد خلق ليكون قائدك، قائد جميع الوطنيين الحقيقيين في هذه الأرض. ألم يوقف روسيا على قدميها؟ ولماذا تظن أن الأمريكيين يريدون التخلص منه؟ لأنهم يجدون روسيا محتملة فقط عندما تكون الدولة على ركبتيها، لا يمكنهم قبول أي شخص يتحدى سيادتهم. وأيضًا، إنه مثلك تمامًا. التمارين البدنية هي دينه، المنافسة. يمارس الجودو، يصطاد، يحب القيادة بسرعة عالية...".

- "هل تعتقد أنه سيأتي إلى أحد لقاءاتنا؟".

- "بالطبع، إنه يتوق لذلك! ولن يتطلب الأمر الكثير من الإقناع بمجرد أن يعلم أنكم جميعًا في جانبه، وأنكم تريدون مساعدته في القتال من أجل عظمة روسيا. لطالما نجحت بلادنا في صد الهجمات، من نابليون، من هتلر. الآن حان دورنا للقيام بواجبنا".

توقف زالدستانوف بحلول هذه النقطة عن الاستماع إليّ. بالفعل، رأى نفسه ممتطيًا دراجته، وشعره يطير، كتفًا بكتف مع القيصر، نوع من القوزاق ما بعد الذري.

قلت:

- "لكننا سنفعل أكثر من ذلك. سننظم النسخة الروسية من ساحة الميدان، تجمعًا لجميع الشباب الوطنيين في البلاد، مكانًا يمكنهم فيه رؤية بعضهم البعض وجهاً لوجه. وسنخوض المعركة ضد عدونا الحقيقي، الانحطاط الغربي وقيمه الزائفة، بكل ما جلبه من انقسام وإحباط!".

- "صحيح، ساحة الميدان الروسية، هذا ضخم...".

بدأ زالدستانوف يشعر بالإثارة. كان يدرك ببطء أن خطتي ستسمح له بالتوفيق بين أحلام المجد التي كان يحملها كشاب في العشرين من عمره والطموحات المالية المشروعة للرجل في الأربعينيات الذي أصبح عليه.

قلت:

- "سننظم تجمعات أخرى أيضًا، وحفلات موسيقية، ومعسكرات صيفية. ثم سنحتاج إلى مدارس للتدريب الخاص، وصحف، ومواقع إنترنت - كل ما يدخل في صنع جيل جديد من الوطنيين. يجب أن نقود هجومًا على تفاهة الحياة اليومية يا ألكسندر! نقدم لشبابنا بديلاً حقيقيًا للمادية الغربية. يجب أن تصبح روسيا مكانًا يمكنك فيه التنفيس عن غضبك ضد العالم وتظل خادمًا مخلصًا للقيصر. الشيئان ليسا متناقضين، بل العكس تمامًا".

قال زالدستانوف:

- "من الناحية العملية، ما تريد القيام به هو جعل الثورة مستحيلة".

على الرغم من انجرافه بالحماس، لم يفقد راكب الدراجة النارية شيئًا من الحس السليم القوي الذي اكتشفته فيه منذ البداية.

قلت:

- "دعنا نقول فقط إننا نريد إزالة الحاجة إليها. لماذا تبدأ ثورة إذا كان النظام يدمجها بالفعل؟".

(21)

مع أنني لم أقدم له قطرة "فودكا" واحدة، غادر زالدوستانوف الكرملين في ذلك اليوم وهو يترنح نشوةً. ما لم يكن يعرفه هو أنني، عقب لقائه مباشرة، كنت على موعد مع زعيم مجموعة من الشيوعيين الشباب الذين أثاروا إعجابي بحيويتهم المتوقدة. تلا ذلك اجتماع مع متحدثة باسم حركة إحياء أرثوذكسية كانت تثير الفضول، ثم جلست مع رئيس رابطة "ألتراس" مشجعي نادي "سبارتاك"، وبعده مع ممثل لإحدى أكثر الفرق شعبية في مشهد الموسيقى البديلة. وشيئاً فشيئاً، جندتهم جميعاً: سائقي الدراجات النارية، ومثيري الشغب (الهوليغانز)، الفوضويين وحليقي الرؤوس، الشيوعيين والمتعصبين الدينيين، اليمين المتطرف واليسار المتطرف، ومعظم من يقبعون في المنطقة الرمادية بينهما. جندت كل من كان من المحتمل أن يستجيب بطريقة مثيرة لتعطش الشباب الروسي للمعنى. فبعد ما حدث في أوكرانيا، لم يكن بوسعنا ترك قوى الغضب دون رقابة. إذا أردنا بناء نظام قوي بحق، لم يكفِ أن نحتكر السلطة، بل توجب علينا احتكار "التخريب" أيضاً.

مرة أخرى، عاد الأمر لاستخدام الواقع كمادة خام لابتكار نوع من الألعاب فائقة النظام. لم أفعل شيئاً طوال حياتي سوى سبر مرونة العالم، وميله الذي لا ينضب للمفارقة والتناقض. وكان المسرح السياسي الذي يتشكل الآن تحت إدارتي هو النتيجة الطبيعية لمسار طويل.

والحق يقال، لعب الجميع الأدوار التي وزعتها عليهم عن طيب خاطر، بل وأظهر بعضهم موهبة حقيقية. الفصائل الوحيدة التي لم أقترب منها كانت أساتذة الجامعات، والتكنوقراط المسؤولين عن كوارث التسعينيات، وحاملي لواء الصوابية السياسية، والتقدميين الذين يخوضون معارك من أجل مراحيض العابرين جنسياً. قررت أن أترك هؤلاء للمعارضة؛ فتلك هي بالضبط القاعدة الجماهيرية التي أردنا أن تلتصق بالمعارضة. وبمعنى ما، أصبح هؤلاء أفضل ممثليّ، يعملون لصالحنا دون حاجة لتجنيدهم. كان كثير منهم من أبناء موسكو "المدللين"، ذلك الصنف الذي يشعر بأنه في أرض غريبة بمجرد أن يتجاوز الطريق الدائري الخارجي للمدينة؛ أناس يعجزون عن تحريك أريكة من مكانها، فما بالك بحكم روسيا... كلما فتحوا أفواههم، زادوا من شعبيتنا ورسخوا أقدامنا. الاقتصاديون الذين يتباهون بشهادات الدكتوراه، والأوليغارشية الذين نجوا من التسعينيات، ومحترفو حقوق الإنسان، والنسويات، وأنصار البيئة، والنباتيون، ونشطاء حقوق المثليين؛ كانوا جميعاً "مناً وسلوى" هبطت علينا من السماء. وحين قامت تلك الفرقة النسائية بتدنيس "كاتدرائية المسيح المخلص"، وهتفت بعبارات بذيئة ضد بوتين والبطريرك الروسي، قفزت شعبيتنا في استطلاعات الرأي خمس نقاط كاملة.

ثم كان هناك غاري كاسباروف، بطل الشطرنج الذي أسس حزبه المعارض. التقيته مرة واحدة فقط، في إحدى تلك المناسبات الاجتماعية بموسكو التي يبدو أنها تجمع الشيء ونقيضه. لم يكن وسطاً أتردد عليه عادة، لكنك لا تتخيل مدى صعوبة التملص من دعوات مضيفة واسعة النفوذ. كانت أنستازيا تشيكوفا قد تربعت على عرش مجتمع موسكو لسنوات، جامعة بين الهالة الثقافية لكونها سليلة كاتب عظيم، وبين القوة الشرائية التي وفرها زوجها المصرفي. كانت تقيم في منزل صغير يعود لأوائل القرن العشرين، بناه تاجر حبوب لم يهنأ به طويلاً.

قادنا المدخل المبطن بقماش فيروزي إلى بابين ضخمين من خشب الماهوجني بمقابض نحاسية منحوتة على هيئة طيور. انفتح البابان على سلسلة من الصالونات المصممة على طراز "عصر الجاز"، حيث شكلت الطاولات الجانبية والأرائك وطاولات القهوة هندسة معقدة أبرزت ببراعة مجموعة تشيكوفا المذهلة من أحجار اليشم القديمة. ووسط الأسطح المصقولة للأثاث والمرايا التي تعكس الزهور، كان المرء يكاد يتوقع الاصطدام بـ زيلدا فيتزجيرالد، أو على الأقل كيكي دو مونبارناس. لكن في معظم الأحيان، كنت تنتهي بالحديث مع مصفف شعر عصري، أو في أفضل الأحوال، مراسل لصحيفة "نيويورك تايمز".

كانت هذه السهرات مصممة بدقة تحرمها من المتعة العفوية، لكن الناس كانوا يرتادونها رغم ذلك تأكيداً لشعورهم بأهميتهم الاجتماعية. وفي غياب البهجة الحقيقية، كانت عيون الضيوف تلمع برغبة جشعة في الحصول على المعلومة قبل الآخرين، ليدخلوا بذلك بعداً يحدث فيه كل شيء مبكراً قليلاً. هذا التقدم الطفيف على بقية العالم كان يمكن، بشيء من المهارة، تحويله إلى سلع ثمينة: مال، وسلطة، ونفوذ.

كانت سيدة المنزل تخطط لاستقبالاتها كما تُخطط الحملات العسكرية. متسلطة، كانت تجتاح نخبة موسكو الاجتماعية كريح جليدية متقلبة. وبينما كان هدفها الدائم هو النجاح الاجتماعي، كانت تحقق استراتيجيتها عبر حشد موارد متنوعة. رجال الأعمال يوفرون الأساس والمادة الخام لجمعات تشيكوفا، والأرستقراطيون يضفون الزينة. لكن لكي تنجح الحفلة حقاً، كان لا بد من إضافة مكونات أكثر ندرة: لمسة من العبقرية، ورشة من السحر الدولي، ومسحة من التمرد. وكان غاري كاسباروف يمتلك ميزة الجمع بين هذه الصفات الثلاث في شخص واحد. لاعب شطرنج ذو شهرة عالمية، دخل المعترك السياسي عبر تنظيم ما يسمى بـ "مسيرات المعارضة" في شوارع العاصمة، مما

أسبغ عليه فوراً هالة من "بطولة الصالونات". كانت السيدات المكللات بالجواهر، والمنتميات لتيار "الشيك الراديكالي" في موسكو، يتحلقن حوله وكأنه تشي جيفارا الجديد.

عند وصولي في تلك الليلة، وجدته محاطاً بجمهور مأخوذ به، وكان واضحاً أنه سكران بمجده الاجتماعي، وربما بشيء آخر أيضاً. وفي لحظة ما، نبهه أحدهم إلى وجودي.

قال:

- "آه، بارانوف، ها أنت ذا، ساحر الكرملين، راسبوتين بوتين. هل تعلم ما يقوله الناس عن (ديمقراطيتكم السيادية)؟ يقولون إن علاقتها بالديمقراطية كعلاقة الكرسي الكهربائي بالكرسي العادي".

انفجرت ضاحكاً:

- "حسناً، هذا يثبت على الأقل أن الروس لم يفقدوا حس الدعابة! ولكن بجدية يا كاسباروف، هل تعرف ما المقصود بالديمقراطية السيادية؟"

أجاب:

- "لست منظراً سياسياً، لكن بصفتي لاعب شطرنج، أقول إنها نقيض مباراة الشطرنج. في الشطرنج، القواعد ثابتة، لكن الفائز يتغير دائماً. أما في ديمقراطيتكم السيادية، فالقواعد تتغير، لكن الفائز هو نفسه دائماً".

كان البطل يملك حجة قوية، لا شك في ذلك. وتراقصت الشخصيات الاجتماعية حولنا كالمعجبات في حفل موسيقي.

قلت له:

- "ربما. أعلم أن السياسة ليست ملعبك، لكن أخبرني يا كاسباروف، ألم يبقَ الحزب الديمقراطي المسيحي في السلطة بألمانيا لعشرين عاماً بعد الحرب

العالمية الثانية؟ والحزب الليبرالي الديمقراطي في اليابان لأربعين عاماً؟ أنتم الليبراليون تظنون أن ثقافتنا السياسية في روسيا بالية ونتاج للجهل. تظنون أن عاداتنا وتقاليدنا الروسية عقبة في طريق التقدم. تريدون تقليد الغربيين، لكن يفوتكم الجوهر".

كان كاسباروف في تلك اللحظة يرمقني بنظرة عدائية صريحة.

تابعت قائلاً:

- "إذا أردت تذوق شيء حلو، عليك أن تأكل الحلوى لا غلافها. لتنال الحرية، عليك أن تقبض على جوهرها، لا شكلها الخارجي. أنتم ترددوان شعارات تعلمتموها في واشنطن أو برلين، وفي الأثناء تملأون شوارعنا بأغلفة الحلوى الفارغة. أنتم مثل سلالة البوربون، لا تنسون شيئاً ولا تتعلمون شيئاً؛ نلتم فرصتكم، وتركتم روسيا ممزقة. ومنذ أُبعدتم عن السلطة، وأنتم تحلمون بالعودة لإنهاء ما بدأتموه. أما نحن، فقد درسنا المسألة بعمق. تعلمنا ما لدى الغرب ليعلمه، وكيفناه مع واقع روسيا. الديمقراطية السيادية تتوافق مع أعمق أسس الثقافة السياسية الروسية. ولهذا السبب يقف الشعب في صفنا. أنتم، معشر المنظّرين، الوحيدون الذين لم تفهموا هذا".

- "لكنني لست منظّراً ولا أستاذاً!"

- "بالطبع لا. أنت بطل شطرنج".

التقط كاسباروف السخرية ولم ترق له. وبصفته ابناً باراً للقوقاز، زم شفتيه في إشارة تهديد.

قال:

- "لن تجد لعبة أعنف من الشطرنج".

ابتسمت له برفق وقلت:

- "ليس لديك أدنى فكرة عما تتحدث عنه يا بروفيسور. السياسة أعنف بما لا يقاس".

- "لكن السياسة ليست لعبة".

- "ليست لعبة للهواة، هذا صحيح. لكن بالنسبة للمحترفين، صدقني، هي اللعبة الوحيدة التي تستحق اللعب".

نظر إليّ كاسباروف وكأنني مجنون. وفي الوقت ذاته، خُيّل إليّ أنني رأيته يكبت رعشة سرت في جسده.

(22)

لطالما أحببتُ بارات الفنادق الكبرى. ففي أي مطعم مُدّعٍ، عليك أن تحجز مسبقاً وتتعرض لسخافات أحدث الطهاة النجوم؛ أما بار الفندق، حتى الأكثر أسطورية، فيقف دائماً متأهباً في انتظارك، أبوابه مشرعة لجمهور متنوع قد يضم سياحاً في مزاج رائق، ورجال أعمال تحوم حولهم شبهات متفاوتة، ونساء ذوات وضع غامض. الهواء الذي تتنفسه في هذه الأماكن محايد بامتياز، ولا شيء يشبه بار فندق كبير في لندن بقدر بار فندق كبير في لشبونة أو سنغافورة أو موسكو. الإضاءة الخافتة نفسها، المرايا المعتمة، الألواح الخشبية الزائفة. الموسيقى ذاتها، النوادل أنفسهم، وقائمة الطعام نفسها. قوتها تكمن في تقديم المزيج الصحيح من الراحة واللا مبالاة. أياً كانت المدينة التي تعلق فيها بلا دليل، ما عليك سوى التوجه في وقت ما من المساء إلى بار فندق كبير. هناك ستجد شعوراً بالرفاهية - شريطة أن تتجنب بصرامة الأماكن "العصرية"، وفنادق "البوتيك"، وغيرها من الفخاخ المشابهة.

في موسكو آنذاك، كانت بارات الفنادق واحاتي. لبضع ساعات، كان بإمكاني التظاهر بالنظر إلى الواقع الوحشي الذي انغمست فيه من الخارج، متبنياً منظور السائح أو رجل الأعمال الزائر. مجرد رؤية تلك الكائنات المستلقية على الأرائك بتعابيرها المرتاحة قليلاً، كان يمنحني شعوراً بالسكينة. وكأن الأبواب الدوارة في البهو تملك القدرة على منع المادة المظلمة للمدينة من الدخول، خالقة سويسرا صغيرة مصممة خصيصاً لي.

في فندق "ميتروبول"، لم يكن الأمر يتطلب عادة سوى رشفة أو اثنتين من الويسكي حتى أشعر بأنني انتقلت إلى ضفاف بحيرة جنيف المزدهرة والآمنة. لكن في هذه الليلة بالذات، وعلى غير العادة، كنت منشغلاً كلياً بالحاضر. كانت تجلس أمامي كسينيا، التي طلبت كأساً من الماء الفوار. كنت قد نجحت، بعد إلحاح، في إقناعها باللقاء، لكن هذا لم يعنِ بأي حال أنها مستعدة لإرضائي. كانت قد صقلت ببراعة ذلك الفن الأنثوي القائم على قول "لا" بينما الرأس يومئ بـ "نعم"، والابتسام بينما توجه إهانة، ومنح نفسها ومنعها في آن واحد دون الوقوع في التناقض أبداً. في حضورها، يشعر الرجل بنشوة النصر وبستحالة النصر معاً. ويدرك إلى أي مدى يرتبط الاثنان ببعضهما ارتباطاً لا انفصام فيه. وإلى أي مدى يشكلان أساس الرغبة، وربما الحب.

كان لدي إدراك مشوش بكل هذا في ذلك الوقت. كنت لا أزال أبحث عن شيء ما، لكنني لم أدرك كنهه إلا لاحقاً. في هذه الأمسية الأولى، حاولت معرفة ما كانت تفعله خلال السنوات القليلة الماضية.

قالت: "لاشيء".

كان ذلك صحيحاً. تذكرت الآن. كسينيا لم تكن تؤمن بالعمل. ولا ببذل أي جهد لصالح أي شيء سوى نفسها. فبينما كانت زوجات وشريكات الأوليغارشية يفتتحن معارض للفن المعاصر أو مؤسسات لإنقاذ الأيتام الروس أو فقمات القطب الشمالي، لم تفعل كسينيا شيئاً. كان كسلها، الذي لم تشبه شائبة مساومة، شكلاً من أشكال الحكمة. لم تشعر بأي حاجة لإلحاق أي نشاط بوجودها، مما جعلها تلقائياً أسمى من الجميع. لم تكمن قوتها فقط في الجمال الذي تستولي به على أي مكان تحل فيه، بل أيضاً في الجودة المذهلة لإيماءاتها. كانت كسينيا، بمفردها، مذهباً قائماً بذاته. ليست تلك المادة المجردة التي تظهر في الامتحانات الجامعية، بل فلسفة حقيقية، مسألة حياة

وموت، وهي الوحيدة التي تستحق الخوض فيها. كان فيها شيء يثير في الرجال حنيناً جارفاً للحيوات التي فشلوا في عيشها. ورغبة في إخبارها عنها. إخبارها بأي شيء كي لا يفقدوا اهتمامها. كان حضورها يفتح باباً لاحتمالية المعجزات. أو على الأقل يعطي ذلك الانطباع.

تحدثتُ إليها كما لم أتحدث منذ سنوات. ربما كما لم أتحدث لأحد قط، وبشعور أنني سأكون مفهوماً. من الوارد جداً أن هذا كان مجرد تقنية طورتها كسينيا، خدعة بصرية تجيد صنعها، انعكاس لسراب لا أكثر. لكنه كان كافياً لي. أخبرتها كيف أنني، قبل بضعة أيام، ركضت للحاق بمصعد في الكرملين وفجأة رأيت وجهي في المرآة. لكنه لم يكن أنا من يحدق بي من جدار المصعد، بل كان أبي. ظهر بشكل غير متوقع، لكنه بات يلاحق خطواتي الآن. أراه كل صباح أثناء الحلاقة؛ ينظر إليّ بدهشة ولمسة من السخرية. وجه أبي، الذي سكنته رغم محاولاتي العديدة لتجنبه. وتلك الجمجمة خلفه، التي بدأت تتضح معالمها الآن، تنتظر ساعتها، وتحفر بصمتها على ملامحي التي تزداد شحوباً. حدثتها عن تعبي. وللمرة الأولى، وأنا أتحدث إلى كسينيا، شعرت بمدى إنهاكي الحقيقي. لقد ركضت كثيراً ولفترة طويلة لدرجة أنني، في سن الأربعين، شعرت كرياضي أولمبي حان وقت تقاعده.

بعد لقائنا الأول، بدأنا نلتقي بانتظام في "ميتروبول". في الظاهر، كانت كسينيا تسمح لنفسها بأن تُقاد، متدرجة من كأس الماء في لقائنا الأول إلى كأس نبيذ "شابلي" في الثاني، ثم مرتقية لاحقاً إلى "فودكا مارتيني". لكن في الواقع، وهي جالسة أمامي، ساقاها متقاطعتان ونهداها الصغيران نافران، كانت تستعيد سطوتها تدريجياً. تبتسم عيناها، ثم تغدو جادتين. لم يتوقف ذكاؤها عن التطور للحظة طوال سنوات فراقنا. لقد استمدت غذاءها من كل شيء وعادت إليّ نقية ومتجددة. كانت كسينيا تبث شعوراً بالهدوء لم أعهده

فيها سابقاً، وكأن اضطرابها الداخلي وجد أخيراً ترياقه في الأحداث الفوضوية التي ميزت سنواتها الأخيرة. تأكدت شكوكها القديمة حول الحياة والناس، وكذلك قدرتها على فهمهم وإدارتهم. كان الحديث معها بمثابة إنهاء لمنفى طال أكثر من اللازم. طاردت أفكارنا بعضها البعض ولعبت كأطفال في ظهيرة مشمسة. حتى جاء اليوم الذي غامرنا فيه، عن غير قصد، بالخوض في أرض كنا قد تحاشيناها حتى ذلك الحين.

كان الليل قد انتصف حين انطلقتُ، مدفوعاً بتأثير الكحول، في سرد قصة راهب يسوعي إسباني من الماضي الغامض، كتب دليلاً لمساعدة "النفوس القوية والثابتة" على إيجاد طريقها. كانت أطروحته تقول إنه حتى لو اختفت الشهامة والكرم والوفاء من على وجه الأرض، فإنها ستظل موجودة في قلب الرجل الشهم.

مطت كسينيا شفتيها بامتعاض.

– "المجد، العاطفة... أنتم الرجال رومانسيون دائماً بهذا الشكل. نحن النساء لا نملك ترف ذلك، فنحن مسؤولات عن بقاء العالم".

جاء دوري لأبتسم. لطالما استمتعت بتأكيد أكثر أحكامي المسبقة تجذراً. أحد الجوانب الرئيسية لسحر المرأة الروسية هو شراستها. ومن بين العديد من النساء الروسيات اللواتي أتيحت لي فرصة لقائهن، كانت كسينيا بلا شك الأشرس. اخترقتني عيناها كالسهام.

– "لا تقل لي إنك مثل البقية يا فاديا. واحد من أولئك الرجال الذين لن يفهموا شيئاً أبداً".

لا، لا، لن أفهم أبداً، هذا يجب أن يكون واضحاً تماماً. حاشاي أن أدعي العكس. لكن كسينيا استطردت:

- "تلقون الخطب العصماء، لكنكم تخلطون كل شيء بعدها. تعتقدون في الأساس أن الزواج وسيلة لضمان جمهور لأنفسكم، ليكون هناك شخص بجانبكم دائماً يعجب بمآثركم".

لم أكن متأكداً ما إذا كانت تقصدني.

- "ليس أنت يا فاديا، أنت شاعر. شاعر تائه بين الذئاب. الحب مقدس لديك، هذا واضح، أذكره جيداً. (انظر، خلف الغابة حيث نمشي في خوف، وكأن هناك قلعة مضاءة، المساء يقترب)".

- "كم هذا جميل. ريلكه، كنت قد نسيته".

- "نعم، كم هو جميل! لو كان الأمر بيدك، لكنا لا نزال جالسين على الأريكة في شارع غاشيكا، ممسكين بأيدي بعضنا".

- "حسبما أذكر، لم نكتفِ بإمساك الأيدي على تلك الأريكة".

للحظة، رقت ملامح كسينيا، لكنها سرعان ما استعادت تماسكها.

- "الزواج هو نقيض الحب، أتعلم. إنه مثل الضرائب. بمعنى ما، هو شيء تفعله من أجل الآخرين".

قلت:

- "صحيح، من أجل بناء مستقبل الاشتراكية!"

لم أفهم لمَ كان عليها أن تلقي عليّ هذه المحاضرة. أو ربما فهمت. في كل الأحوال، لم أرغب في سماعها. لكن أحداً لم يوقف كسينيا قط بمجرد أن تعقد العزم على إثبات شيء ما.

قالت:

- "الزواج قانون، أساس كل مجتمع. أليس هذا ما يردده قيصرك دائماً حين يكون مع أصدقائك الأرثوذكس؟ ولهذا من السخف جداً تخيل بناء الزواج على شعور عابر".

- "لكن لا يزال بإمكاننا شرب نخب المشاعر العابرة، أليس كذلك؟"

ظلت جامدة على أريكتها المخملية السوداء، متجاهلة كأسي المرفوع.

- "في كل أنحاء العالم، ولعصور طويلة، تزوج الرجال والنساء لأسباب لا علاقة لها بالحب، ولم يدخلوا فيه بآمال حمقاء - ظانين، مثلاً، أن عقداً يمكن أن يقودهم للسعادة. وجدوا في الزواج الاستقرار الذي يحتاجونه لتكوين أسرة. أما كل شيء آخر، فكانوا يتدبرون أمرهم فيه، وهناك ألف طريقة... هل تعلم أنه في فرنسا القرن الثامن عشر، لم يكن الزوج والزوجة يُدعيان للعشاء معاً أبداً؟"

- "يعجبني أنك حافظتِ على بعض قيم شلتنا القديمة".

الحقيقة أن ذلك لم يعجبني على الإطلاق. أردت فقط أن تغير كسينيا الموضوع، لكن لم يكن هناك مفر.

- "أتدرى ما الغريب؟" قالت، "بين الفينة والأخرى، كان الزوج والزوجة يقعان في حب بعضهما. كان ذلك يُعتبر محرجاً قليلاً في ذلك الوقت، لكنه كان يحدث..."

- "لا، حقاً!"

- "يجب القول إنه عادة لم يكن يحدث. لكن الزواج كان ينجح لأن أسسه كانت صلبة. والحب كان شيئاً تجده في مكان آخر".

- "الزوج كان يجده، على أي حال..."

- "والزوجة أيضاً، على الأقل في المجتمعات الأكثر تطوراً. أتذكر كيف كان الأمر هنا في الحقبة السوفيتية؟ الأزواج والزوجات كانوا يذهبون في إجازات في أوقات مختلفة. كان ذلك متعمداً، كانت هناك أماكن عطلات مختلفة لكل منهم. لكي يحظى كلاهما بفرصة للاستفادة القصوى... الفكرة الحمقاء عن الزواج عن حب جاءت من روايات القرن التاسع عشر، ومن أفلام هوليوود. إلا أنك تكتشف بعد فوات الأوان أن الحب لا يدوم، أو أنه لم يوجد أصلاً، أو أن هناك حباً أعظم في الشارع المجاور".

لطالما سحرتني سخرية كسينيا العفوية. لكن في هذه الحالة، لم يكن الكلام منطقياً.

قلت لها:

- "عندما تركتني، لم تكوني تحبينني".

- "وكيف كان لي أن أفعل يا فاديا؟ كنت شاباً مدللاً، تلعب دور الفنان، وتختبئ. أنت تعرف خلفيتي يا فاديا، لقد جربت حياة (البوهيمية) بالفعل. لم تكن ما أريده. إنها لا تمنحك الحرية، بل تجعلك دائماً في حالة هروب. أمي اعتبرت نفسها متمردة، أرادت أن تكون حرة، لكن مع تقدمها في السن وجدت نفسها تعتمد على رجل وافق على رعايتها. حينها فهمت أن الحرية الحقيقية هي نتاج الامتثال. فقط من خلال الحفاظ على المظاهر يمكنك فعل ما تريد. كنت بحاجة للاستقرار. المادي، نعم. وأنواع أخرى أيضاً. ميشا كان يملك السيطرة".

- "نعم، حتى فقدها".

- "ذلك لأننا نعيش في بلد مجنون".

- "ربما. لكن في بلد طبيعي، كان ميشا ليصبح في أفضل الأحوال صانع مراهنات غير قانوني".

- "أختلف معك. ميشا كان لينجح في أي مكان. لكن هنا كان عليه اللعب وفق القواعد الروسية".

- "إلا أنه لم يفهم القواعد هنا قط. إذا اشتريت شيئاً بأربعة كوبيكات، وكنت قد اقترضت المال لشرائه أصلاً، فالشيء لا يخصك، لذا يمكن أخذه منك في أي وقت. ميشا خاصتك ظن أنه ستيف جوبز".

- "لا، حقاً، ما زلت غاضباً منه، بعد كل الضرر الذي ألحقه به جماعتك؟ ألا تظن أنه دفع ما يكفي بالفعل؟"

- "لا".

نظرت إليّ كسينيا بغرابة. للحظة ظننت أنها ستغادر. ثم كسا وجهها تلك النظرة ذات العذوبة المخيفة التي تفردت بها وحدها. لمعت عيناها ببريق طفلة في الرابعة.

- "هل كنت تريدني لتلك الدرجة؟"

- "كنت أحبك يا كسينيا".

- "والآن؟ في هذه اللحظة؟"

صمت.

- "لا أزال".

في الوقت الحاضر، لم تعد كسينيا طفلة. كانت امرأة في أوج قوتها، وابتسمت لي بابتسامة عميقة وواثقة لامرأة خبرت أربعين عاماً على الأرض. الحورية الغريبة والقاسية التي عرفتها يوماً قد كبرت دون أن تفقد شيئاً من سحرها. نظرت حولي. توقف عازف البيانو عن العزف. وذهب السياح للنوم. بقي نادلان، يبدوان قلقين. جالسين قبالة بعضنا، وجدنا أنا وكسينيا أنفسنا شاهدين على شيء عصي على الفهم، كجنديين في خندق للمرة الأولى، يعيشان

فجأة ما لم يكن لأي شيء أن يعدهما له. شيء كان قد بدأ قبل سنوات، وها هو يتحقق، بطريقة هادئة وغير متوقعة تماماً. ومع اعتيادي على نوع الأحداث التي تتصدر نشرات الأخبار وتجعل الناس يتحدثون في الشوارع، وجدت نفسي غير مستعد بالمرة لهذا الحدث. الحدث غير المحسوس الذي يغير كل شيء.

تذكرت حينها عدم جدوى الكلمات. قبل لحظة، لم تكن هناك حاجة لها، وفي اللحظة التالية، لم يكن لشيء أن يمنع ما حدث. غادرنا الفندق وبدأنا المشي. كل سحر موسكو الليلي حام حولنا. في الأعلى، السماء عميقة ونقية. دفعنا خطواتنا إلى الشوارع الضيقة التي تطوق حي تفيرسكايا. غرست خطواتنا في الثلج، آخذة مكان الكلمات. رافقتنا واجهات المنازل القديمة وأغصان الأشجار الصغيرة المغطاة برقاقات الثلج الكثيفة في صمت. أزال دفؤها كل حاجة للحذر. كنا ننظر إلى بعضنا من حين لآخر، باحثين عن التأكيد في عيون بعضنا البعض.

(23)

لم تكن فكرة استخدام كلب "اللابرادور" فكرتي. لكن عليك أن تعترف أنها كانت فكرة عبقرية، وإن كانت وحشية قليلًا، كمعظم حيل القيصر. كانت المستشارة قد استعدت لاجتماع طبيعي. ظهرت بملابسها التي لا تشوبها شائبة، بذلة بنطال سوداء وحذاء قصير اشتريته من متجر للتخفيضات كعادتها، وخالية الوفاض من أي أوراق. لأنها كانت تذاكر دائمًا قبل الموعد: الملفات الدقيقة التي يعدها فريقها، والملاحظات المعنونة من الوزارات المختلفة، والمذكرات المكتوبة على ورق عادي الصادرة عن أجهزة أمن الجمهورية الفيدرالية. كانت تقضي أيامًا وليالي كاملة في استيعاب البيانات والمفاضلة بين السيناريوهات الجيوسياسية، بنفس الدقة التي كانت تستخدمها في إجراء التجارب المعملية أيام كانت باحثة جامعية. ونتيجة لذلك، كانت المستشارة تصل دائمًا إلى الاجتماعات نشيطة وواثقة من نفسها، مستعدة لإملاء أوامرها على الجميع لأنها كانت تعلم أنها تستطيع ذلك، مدعومة بالقوة الهندسية لولايات ألمانيا وشركاتها الكبرى المتراصة خلفها.

لكن في ذلك اليوم، لم يكن هناك شيء ليعدها لما ستجده عند دخولها قاعة الاجتماعات: كوني. أنثى لابرادور القيصر الضخمة.

لتستوعب الموقف تمامًا، عليك أن تعرف أن المستشارة كانت تعاني من رهاب الكلاب. على مر السنين، روضت حيوانات مفترسة في حلبة السياسة

العالمية أكثر مما فعل مروضوا الأسود في السيرك مجتمعين. لكن كلبًا، أي كلب، حتى لو كان صغيرًا، كان يعيد إشعال ذلك الخوف البدائي الذي شعرت به في الثامنة من عمرها عندما كاد كلب "روت وايلر" يمزقها إربًا تحت أنظار والدها المذعور. وحدها المعجزة هي التي أنقذتها.

تخيل المشهد في الكرملين في ذلك اليوم. في الواقع، لست بحاجة حتى لتخيله، لأن الصور موجودة على الإنترنت. ميركل تبتسم بابتسامة زجاجية باهتة بينما تجول كوني حولها وفراؤها يلمع. المستشارة متخشبة في كرسيها بينما تقترب كوني بمرح، طالبة أن يربت عليها أحد. المستشارة على وشك الانهيار العصبي عندما تحشر كوني أنفها في حجرها، متشوقة لشم رائحة صديقتها الجديدة. والقيصر، الجالس بجوارها، يبتسم باسترخاء، مباعدًا بين ساقيه:

قال بوتين:

- "أنتِ متأكدة أن الكلب لا يضايقك يا مستشارة ميركل؟ يمكنني إخراجها، لكنها كلبة طيبة للغاية. أكره أن أفترق عنها."

اللابرادور. تلك هي اللحظة التي قرر فيها القيصر أن يخلع قفازاته ويبدأ اللعب بالطريقة التي تعلمها في فناء مدرسة بمدينة لينينغراد، حيث بالكاد تضع قدمك على الكرة قبل أن يركلك أحدهم بركبته تحت الحزام. كان عليك دائمًا أن تظهر أنك أكثر جنونًا من البقية قليلًا إذا لم تكن ترغب في أن يتنمر عليك المتنمرون. والسياسة رفيعة المستوى تشبه ذلك إلى حد ما. غرف استقبال مذهبة، وحرس شرف، ومواكب رسمية عبر شوارع مغلقة، ولكن بعد كل ذلك، تسري نفس القواعد الأساسية كما في فناء المدرسة، حيث يفرض المتنمرون القانون، والسبيل الوحيد لنيل الاحترام هو استخدام ركبتك.

في السنوات الأولى بعد وصوله إلى المشهد الدولي، بقي القيصر على الهامش قليلًا، متبنيًا الموقف الروسي الكلاسيكي لمن لا تكون أوراقه مكتملة

النظام أبدًا، والذي يضطر للخضوع للتدقيق المفصل من قبل قضاة قادمين من مناطق أكثر تحضرًا. إنها العقدة القديمة للهمجي القادم من التخوم الذي عليه التكفير عن خمسة قرون من الاغتصاب والنهب، والتي توجت بنهاية المطاف بكارثة الاشتراكية في العالم الحقيقي. في ذلك الوقت، كانت موسكو مليئة بالخبراء الأجانب النحيلين. كانوا يجتاحون الشركات الكبرى، والوزارات، وحتى الكرملين، بهواء حكام الأقاليم الرومان المرسلين إلى نقطة نائية من الإمبراطورية لإعادة فرض النظام. تولوا مسؤولية البنوك والمؤسسات والصحف، يوزعون نصائحهم وقراراتهم الموجزة بنبرة شخص يتحدث إلى طفل يعلم مسبقًا أنه سينتهي نهاية سيئة، رغم كل الجهود الشاقة لوالديه.

كنا معتادين على الاستماع إليهم. لأنه كان الشيء الوحيد الممكن فعله، لا بديل. لكن رغم أننا فعلنا ما قالوه، لم تتحسن الأمور. وبطريقة ما، استمر نفوذنا في التضاؤل. وكلما حاولنا كسب قبولهم، قل اعتبارهم لنا. ثم حتى ذلك لم يكن كافيًا. استدعى خنوعنا أقسى عقوبة. تدفق حلف الناتو إلى دول البلطيق، والقواعد العسكرية الأمريكية إلى آسيا الوسطى. لم تعد الرقابة على المؤسسات المالية كافية؛ الآن أرادوا الاستيلاء على السلطة مباشرة. إرسالنا إلى القبو واستبدالنا بعملاء من وكالة المخابرات المركزية (CIA) وصندوق النقد الدولي. أولًا في جورجيا، ثم في أوكرانيا، قلب إمبراطوريتنا المفقودة.

عند رؤية الغوغاء الغاضبة تحتل تبليسي، وكييف، وبيشكيك وتلغي نتائج الانتخابات بعنف - بتمويل من جورج سوروس، والكونغرس الأمريكي، والاتحاد الأوروبي - فهم القيصر أخيرًا. هو الهدف الحقيقي. إذا سمح لتخريب الثورات الملونة أن يمر دون تحدٍ، ستنتشر العدوى إلى روسيا وتخرجه من السلطة، لتنصب دمية غربية مكانه. كل الاستعداد الذي أظهره عند أقدام المنتصرين في الحرب الباردة، جالسًا كتلميذ روسي يتعلم آدابه، ذهب هباءً. لم يفعل سوى إقناع الزعماء الجدد بأنه لا داعي لأي وازع أخلاقي. الطريق إلى

موسكو كان مفتوحًا. النصر الشامل، الذي لم يحققه نابليون ولا هتلر، صار أخيرًا في متناول أيديهم.

عندها قرر القيصر إخراج كلبة اللابرادور الخاصة به. لم يكن التكتيك أصليًا تمامًا، حيث كانت السابقة قد وضعت بالفعل من قبل إمبراطور روماني. لكننا نحن الروس تفوقنا عليه بخطوة، لأن كاليغولا جعل حصانه قنصلًا فقط، بينما نحن قمنا بترقية الكلبة لتصبح وزيرة للشؤون الخارجية.

منذ ذلك الحين، تحسن الوضع بشكل ملحوظ. بدأ شركاؤنا يفكرون فينا بطريقة مختلفة، وخطوة بخطوة استعدنا الاحترام الذي فقدناه على المسرح الدولي. وتحت قيادة كوني، استعادت روسيا مكانتها كقوة عالمية كبرى. بدأ صوتنا يُسمع مرة أخرى، سواء في أوروبا أو الشرق الأوسط.

بالطبع، مواهب اللابرادور غير عادية. أولًا وقبل كل شيء، هي أنثى، مما يضعها تلقائيًا فوق زملائها الذكور. ثانيًا، هي سليلة مباشرة لكلب بريجنيف المفضل، ويقال إنها سميت تيمنًا بـ كوندليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة. لذا فالسياسة تجري في عروقها. لكن صفتها الأكثر حسمًا هي المفاجأة. فبينما يعكف زملاؤها البشر على وضع استراتيجيات حذرة، واستشارة تحليلات لا نهاية لها، ذهابًا وإيابًا دون الوصول لأي استنتاج، تأخذ كوني شمة سريعة وتنطلق للعمل. إنها ذات سيادة، لا تحتاج لإذن أحد للتصرف. تحت قيادتها، تعلمنا قبول الفوضى، وجعلناها حليفتنا. لا تذهبوا لتخيل استراتيجيات شاملة. يظن الناس أن مركز القوة يعمل بمنطق "ميكافيلي"، بينما هو في الحقيقة مرجل يغلي بالعواطف واللاعقلانية، فناء مدرسة، كما أقول، حيث تسود الشرور العشوائية وتنتصر دائمًا على العدالة، بل وحتى على المنطق البسيط المجرد. من بين جميع الرئيسيات، يمتلك الإنسان أكبر دماغ، صحيح، ولكن أيضًا أكبر عضو ذكري، أكبر حتى من الغوريلا. بالتأكيد هذا يعني شيئًا، أليس كذلك؟

كان لدى القادة السوفييت القدامى صفاتهم الجيدة، لكنهم اختاروا الاستقرار دائمًا على حساب عدم اليقين. أرادوا أن تكون الأمور منظمة، وقابلة للتنبؤ. وفي النهاية، لهذا السبب هزمهم الأمريكيون. لأنكم أنتم الغربيون أفضل في تلك اللعبة. رؤيتكم للعالم برمتها قائمة على تجنب الحوادث. وعلى تقليص مساحة عدم اليقين قدر الإمكان حتى يسود العقل. نحن، من ناحية أخرى، فهمنا أن الفوضى هي صديقتنا، وأنها في الواقع فرصتنا الوحيدة. مقارنة المرتزقة والقراصنة الإلكترونيين الذين وضعتهم كوني في الملعب بموظفي الـ (KGB) السابقين، كما يفعل محللوكم، أمر مثير للضحك. الأولون كانوا بيروقراطيين يمكن التنبؤ بهم، بينما مع الطاقم الحالي لا نعرف نحن حتى بالضبط ما سيفعلونه غدًا. لكننا راهنا عليهم. كان يكفي أن تريهم اللابرادور الطريق، وانطلقوا. هذا كل ما كانوا ينتظرونه.

(24)

لم أكن يومًا من محبي مدينة سانت بطرسبورغ، تلك المدينة المتجانسة، المتحجرة في الزمن، المفتقرة للطاقة الحيوية والأشكال المفاجئة باستمرار التي تجعل من موسكو مكانًا مثيرًا وغامضًا. في كل مرة أذهب إليها، ينتابني انطباع التجوال عبر ديكور مسرحي هجرته شخصياته، بقايا رهان ساذج وغريب الأطوار انحرف عن مساره، مكان نفي بحق إلى هامش التاريخ. القيصر، من ناحية أخرى، لا يشعر بالراحة التامة إلا عندما يكون هناك. في اللحظة التي يصل فيها إلى "بيتر"، يبدو أن عباءة ضبط النفس الهوسية التي تغلفه في موسكو تنزلق لأسفل عند قدميه، وتظهر شخصية أكثر لطفًا. هذا لا يعني أنه يصبح فجأة كتلة من الضحك والوداعة، لكن بوتين يسترخي في مسقط رأسه، وأحيانًا يتناول جعة أو كأس نبيذ. وفوق كل شيء، سانت بطرسبورغ هي المكان الذي يقيم فيه أصدقاؤه المقربون وعائلته.

عندما كنت أعمل لدى القيصر، كنت أسافر أحيانًا إلى هناك لرؤيته. لم أنتمِ قط لدائرته الحميمة من الأصدقاء. علاقتنا، حتى في أكثر مراحلها حدة، كانت تتمحور دائمًا حول العمل. كان هناك شيء راسخ بعمق في شخصياتنا - وربما أيضًا في أصولنا - منعنا من عبور العتبة التي تؤدي عادة إلى بُعد الصداقة. ولم يرغب أي منا في ذلك. كان لبوتين شلته الخاصة - أصدقاؤه، الفرقة الملونة والمتنوعة من ممارسي الجودو، والجواسيس، والسماسرة الذين شاركهم أجزاءً مظلمة معينة من حياته قبل أن يأتي إلى أضواء الكرملين

الساطعة. كان لدي كتبي، والآن عادت كسينيا إليّ، وهو ما كان أكثر من كافٍ لإشباع احتياجاتي العاطفية. ومع ذلك، طورنا أنا وهو تواطؤًا حقيقيًا على مر السنين، ولا أعتقد أنني مخطئ في القول إن القيصر استمتع برفقتي. كان يحب إشراكي في كل أنواع المواقف المختلفة كي يسمع وجهة نظري. كان يعلم أن ردي سيكون مختلفًا عن الآخرين وعادةً أكثر مباشرة. أظن أنه رآني كشخص يتمتع بحرية داخلية معينة، ورغم أن ذلك منعه من الوثوق بي تمامًا، إلا أنه قاده أيضًا لطلب مشورتي. كان الوقوف إلى جانبه امتيازًا عظيمًا لي. ليس من أجل المزايا التي منحها ذلك - المرايا الملونة التي تجتذب كبار المفترסים وطيور الرمم الصغيرة في السياسة - ولكن من أجل التجربة التي لا تضاهى لمتابعته يومًا بعد يوم، دراما إليزابيثية تلعب نفسها على مسرح العالم.

كان بوتين بلا شك البطل الرئيسي في ذلك الإنتاج، لكن الأدوار الثانوية شكلت قائمة شخصيات تليق بمسرحية "ريتشارد الثالث". هؤلاء كانوا أناسًا تحولوا من مشغلين ريفيين، يكتبون شيكات بدون رصيد ويتهربون من مكالمات مديري البنوك، ليصبحوا في غضون بضع سنوات نبلاء الإمبراطورية، يراكمون ثروات بمقياس لا يضاهيه إلا أمير من دول الخليج. هذا التحول، الذي حدث بسرعة كبيرة، جرف كل شيء في طريقه. لم ينجُ شيء من مشاعرهم أو ميولهم الأصلية من طوفان المليارات الذي أمطر على أصدقاء القيصر. لقد تغير كل واحد منهم حتى النخاع. لكن الميثاق الضمني مع بوتين كان التظاهر بأن شيئًا لم يحدث، والتصرف بنفس الطريقة القديمة المعهودة. بعد كل شيء، كان بسبب الماضي أن القيصر أغدق عليهم الذهب، وليس لأي مواهب استثنائية قد يمتلكونها - ولم يمتلك أي منهم شيئًا من ذلك. فبينما امتلك بوتين سمات غير مألوفة بررت صعوده، كانت مأثرتهم الوحيدة تكمن في أنهم عبروا طريقه في لحظة معينة وكسبوا تعاطفه، والأهم من ذلك، ثقته.

كان التمكن من البقاء في دائرة رضا القيصر الشرط الوحيد لاستمرار هطول المنّ والسلوى من السماء. وللقيام بذلك، كان الأمر يتطلب أكثر من مجرد تملق رجل الحاشية. كانوا أصدقاءه من الماضي، وتوقع بوتين، أو بدا أنه يتوقع، مستوى معينًا من الصدق، رغم أن كل واحد منهم كان يعلم أيضًا أن لذلك الصدق حدوده، التي يفرضها رأي القيصر المتضخم بشكل متزايد عن نفسه. عمليًا، كان هذا يعني تقديم نفس المديح الذي يقدمه الآخرون، ولكن مصاغًا في المزاح الخشن لصديق قديم. أدى هذا السير على الحبل المشدود إلى بعض المشاهد الغروتسكيّة، التي كنت أشهدها أحيانًا في بطرسبورغ. كان الأصدقاء القدامى يتبادلون النكات ويبدون وقاحات خفيفة دون أن يخالفوا القيصر أبدًا في أي نقطة جوهرية، يتنافسون جميعًا ليكونوا أول من يدعم كل فكرة من أفكاره.

كانت في إحدى تلك المناسبات حين التقيت بـ يفغيني بريغوجين. كنا أربعة أو خمسة في غرفة طعام خاصة بمطعم مدجج بالمرايا والثريات. قدمني بوتين إلى المالك، رجل أصلع، عادي المظهر. ابتسم بتواضع وحافظ على دوره طوال الوجبة، يصف الأطباق المختلفة، ويصب النبيذ الفرنسي الفاخر، ويجعل نفسه متاحًا للقيصر عمومًا، ملبيًا احتياجاته في الطعام بسرعة. كان يرتدي ربطة عنق فضية وكأنه في حفل زفاف، وتحدث إلينا بكياسة، ثم بحدة أكبر إلى طاقم الخدمة. وفقط في نهاية الوجبة دعاه بوتين للجلوس معنا. كان النقاش على الطاولة قد تحول، مع ارتفاع مستويات الكحول، إلى المزايا النسبية للعديد من وكالات المرافقة الأوروبية. لم يشارك القيصر، الذي لم يستفد من خدماتهم، في النقاش، لكنه تابعه بتعبير مستمتع - مراقبًا بعناية من قبل جميع الحاضرين، المستعدين لتغيير الموضوع فورًا إذا تطلب الأمر. انضم بريغوجين بسهولة، وتخلى عن أسلوب "رئيس الخدم" ليحل محله التشكيك المرح المناسب لأعضاء الدائرة السحرية لأصدقاء بوتين القدامى. بدأ بعدد من القصص الجريئة عن مغامراته الليلية في جزر "الباليار"، والتي نالت

تقديرًا كبيرًا، ثم حول النقاش إلى أحدث مشاريعه التجارية، عملية زراعية ضخمة اشتراها لتوّه على ضفاف البحر الأسود وينوي تحويلها إلى مزرعة جرجير.

قال نصف جاد ونصف مازح، بينما يغيظه رفاقه على الطاولة:

- "ليس لديكم أدنى فكرة عن مدى صعوبة العثور على جرجير لائق في روسيا."

لكن عند نقطة معينة، قاطعه القيصر ملتفتًا إليّ:

- "كما تلاحظ، يتمتع يفغيني بقدر كبير من روح المبادرة. وهو أيضًا مهتم جدًا بالشؤون الدولية، وأعتقد أنه يمكنه مد يد العون لنا في بعض القضايا التي كنا نفكر فيها مؤخرًا، أليس كذلك يا جينيا؟"

عندها، لمعت عينا صاحب المطعم. وتابع بوتين:

- "سيكون من الجيد أن تتحدثا أنتما الاثنان يا فاديا."

عليك أن تفهم: القيصر لا يقول شيئًا محددًا أبدًا، لكنه أيضًا لا يقول شيئًا عشوائيًا أبدًا. إذا تكبد عناء تقديم اقتراح، على سبيل المثال، بأن يجتمع مستشاره السياسي مع صاحب مطعم في سانت بطرسبورغ لمناقشة السياسة الخارجية الروسية، فمهما بدت الفكرة مجنونة، يجب أخذها على محمل الجد ووضعها موضع التنفيذ.

في تلك الليلة، دعاني بريغوجين لليوم التالي، دون أن يتجاوز أبدًا دور رجل العصابات المتنكر بزي رئيس خدم الذي كان يلعبه طوال الليل. لكن في صباح اليوم التالي، عندما مر بالفندق لاصطحبي، أدركت فورًا أنه أكثر من مجرد صاحب مطعم بسيط. رحلة قصيرة بالسيارة أوصلتنا إلى الميناء، حيث ظننت للحظة مروعة أنه يخطط لأخذي في أحد قوارب التنزه تلك التي تحاول جاهدة تقليد قوارب نهر السين في باريس. كان أحدهم قد أخبرني أن

لبريغوجين مصالح تجارية في هذا المجال أيضًا. لكن لحسن الحظ، ركبنا طائرة مروحية.

قال:

- "منزلي ليس بعيدًا، لكنني أعلم أنه ليس لديك الكثير من الوقت لتضيعه يا فاديم ألكسيفيتش. بهذه الطريقة، سيكون الأمر أسرع."

في تلك الساعة، ومن الأعلى، مع الواجهات الخرافية للقصور المطلة على القنوات، وانعكاسات القباب، وكل الجزر المتناثرة عبر نهر نيفا، كانت العاصمة القديمة تلمع كقناع موت من الرخام والماس تُرك ليتعفن تحت الشمس. ولمرافقة المنظر، بدأ بريغوجين يروي لي الملحمة البطولية لعلاقاته مع القيصر. كان بوتين، عندما كان نائب عمدة سانت بطرسبورغ في أوائل التسعينيات، هو من منح بريغوجين ومجموعة من شركائه ترخيص تشغيل أول كازينو في المدينة. لم يكن الأمر سهلًا بالتأكيد، بالنظر إلى تلك الأوقات ونوع النشاط، لكن كل شيء يشير إلى أن بريغوجين خرج من المشروع رابحًا. ومن هناك بدأ صعوده، الذي راقبه القيصر بحسن نية لا ينقطع.

كانت الرحلة قصيرة ولم تمنحني وقتًا للتعمق أكثر. بعد خمس دقائق بالكاد، بدأنا هبوطنا في كاميني أوستروف. كنت قد سمعت عن المكان، لكنني ظننت أنه مبالغة. قال الناس إن مجموعة من أصدقاء القيصر اشتروا لأنفسهم جزيرة في سانت بطرسبورغ حيث يعيشون كأرستقراطيين من الحقبة الإمبراطورية في قصور مغطاة بالجص والذهب، وأنهم يقيمون حفلات تنكرية يحضرونها بملابس رجال حاشية ألكسندر الثالث. ويبدو أن أحدهم صمم لنفسه شعار نبالة خاصًا، يزخر بالزنابق والأسود الواثبة. وبينما كنت أنظر لأسفل الآن إلى الفيلات المرممة بدقة للمسؤولين السابقين في الإمبراطورية الروسية - المسابح، والبيوت الرياضية، والمرائب العملاقة، والخندق المائي الذي يحيط بالجزيرة وأكشاك الحراسة، وسيارات الدفع الرباعي والمروحيات

- فهمت أنه، كما هو الحال غالبًا في روسيا، قد تجاوز الواقع مرة أخرى كل خيال.

- "أتعلم، أنا لست مثقفًا مثلك يا فاديم ألكسيفيتش. لكني تعلمت شيئًا أو اثنين في حياتي."

كان بريغوجين جالسًا بارتياح في كرسي بأسلوب لويس السادس عشر المزعوم ومساند ذراع ذهبية. انعكس الأثاث الاسكندنافي حوله، والأسود الواثبة، وشمعدانات "مورانو" في الرخام الأبيض والنوافذ الضخمة المطلة على نهر نيفا. لقد أحسن المصمم الأوزبكي صنعًا.

- "هل تعلم ما هو الكازينو، حقًا؟ إنه نصب تذكاري للاعقلانية الإنسان. لو كان البشر مخلوقات عقلانية، لما وجدت الكازينوهات. لماذا بحق السماء قد يوافق أي شخص على رمي أمواله في مكان تكون فيه كل الاحتمالات ضده؟ لكن الحمد لله أن البشر ليسوا مخلوقات عقلانية، وإلا لما حصلت على أي من هذا."

أشار بريغوجين بيده بشكل غامض نحو بعض اللوحات التي تحاكي أسلوب باسكيات وبيانو "ستاينواي" كبير أبيض اللون.

- "لا يوجد مسار أكثر حكمة من الرهان على حماقة الإنسان."

قلت:

- "هذا صحيح تمامًا."

- "هل تعلم لماذا يخسر بعض الناس ثرواتهم في الكازينو يا فاديم ألكسيفيتش؟ لماذا يندفعون بتهور في دوامة يعجزون عن الخروج منها؟ للشخصية دور بالطبع، فالأمر لا يحدث للجميع. لكن هؤلاء الناس ليسوا

وحوشًا. قد لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم، لكن ذلك يعود لخلل في أدمغتنا، خلل نتشارك فيه جميعًا."

توقف بريغوجين وأخرج محفظة من جيب صدر سترته، وسحب منها ورقة نقدية من فئة خمسة آلاف روبل.

- "انظر إلى هذه. وجرب التجربة يومًا ما مع رجل عشوائي في الشارع. اعرض عليه الاختيار بين هذه الورقة وبين فرصة خمسين بالمائة للحصول على ورقتين مثلها. ماذا سيفعل؟ سأخبرك: سيأخذ الورقة المضمونة. الآن جرب العكس. اطلب من أحد المارة إما أن يعطيك خمسة آلاف روبل أو أن يقرر بناءً على رمي عملة معدنية ما إذا كان سيعطيك ورقتين من فئة خمسة آلاف أو لا شيء على الإطلاق. هل تعلم ماذا سيفعل هذه المرة؟ بدلًا من دفع خمسة آلاف روبل فورًا، سيخاطر باحتمالية أن يدفع لك الضعف. أمر جنوني، أليس كذلك؟ نظريًا، الشخص الذي لديه فرصة للربح يمكنه تحمل المخاطرة، عكس الشخص الذي سيخسر المال. لكن الناس يفعلون العكس تمامًا. الرابحون أكثر حذرًا في خيارهم، بينما الخاسرون يراهنون بكل ما يملكون."

نظرت إلى بريغوجين الذي كان يبتسم بابتهاج. بدأت أستشعر إلى أين يتجه هذا الحديث.

- "دماغ الإنسان مليء بأهواء صغيرة كهذه. معرفتها ومعرفة كيفية الاستفادة منها هي عمل صاحب الكازينو. لكن هكذا تعمل السياسة أيضًا، أليس كذلك؟ طالما أنك آمن ولديك وظيفة ثابتة، وعائلة، ومنزل في الريف، وإجازات بجوار البحر، وآفاق تقاعد، وكل ذلك، فإن عقلك مرتاح. تتخذ خيارات عقلانية، ولا تريد المخاطرة. تختار ما تعرفه بالفعل. لكن لنفترض أن الأمور بدأت تتدهور. يتغير الوضع، يفقد الرجل وظيفته، يفقد منزله، ولا يعود قادرًا على التطلع للمستقبل. ماذا يفعل؟ هل يظل حذرًا؟ لا، يبدأ في وضع رهانات مجنونة! يفضل مخاطرة مجهولة على إبقاء الأمور كما هي.

عندها تصل إلى نقطة التحول: تصبح الفوضى أكثر جاذبية من النظام. لأنها على الأقل تقدم فرصة لشيء جديد، صحيح؟ في المسرح، يُسمى هذا (انعطافًا دراميًا للأحداث). وعندها تبدأ الأمور في أن تصبح مثيرة للاهتمام. الثورة الروسية عام 1917، والنازية - نبعتا من هذا النوع من المواقف بالضبط، أليس كذلك؟ لأن أغلبية الناس فضلوا الاندفاع نحو المجهول بدلًا من الاستمرار في العيش كما من قبل."

كان طاهي بطرسبورغ يحلق عاليًا قليلًا، لكن مقترحاته كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون غير مثيرة للاهتمام.

تابع قائلًا:

- "الآن، كما كنت أخبرك، أنا لست مثقفًا أو خبيرًا في العلاقات الخارجية، لكن لدي شعور بأننا وصلنا إلى تلك النقطة مرة أخرى. في الغرب، يعتقد الناس أن أطفالهم سيكون لديهم مستوى معيشي أقل مما كان لديهم. يرون تقدمًا هائلًا في الصين، والهند، والحمد لله، روسيا، بينما هم لا يحققون أي تقدم على الإطلاق. مع كل يوم يمر، تتضاءل قوتهم، وينزلق الوضع أكثر خارج سيطرتهم، ولم يعد المستقبل ملكًا لهم."

قلت:

- "إنهم مستعدون لاتخاذ خيارات مجنونة. علينا فقط مساعدتهم على فعل ذلك."

- "بالضبط يا فاديم ألكسيفيتش. لا نحتاج لإقناعهم أو إجبارهم بأي شكل، فقط مساعدة حركة جارية بالفعل. هذا شيء يفهمه القيصر جيدًا. مثلي، هو يحب الجودو، ويعلم أن مبدأها الأساسي هو استخدام قوة خصمك ضده."

توقف منطق بريغوجين هنا. لكي تؤتي الثمار، كل ما احتاجه هو تطبيق عملي. وكان لدي فكرة أو اثنتان حول ذلك مخبأة في جعبتي بالفعل.

التقينا مرة أخرى بعد عدة أسابيع، خارج مبنى عادي المظهر في ضواحي بطرسبورغ. زاد رذاذ الضواحي من بؤس المنطقة، لكن بريغوجين بدا في مزاج ممتاز.

- "هذا هو المكان الذي أخبرتك عنه يا فاديم ألكسيفيتش، سترى..."

صعدنا بالمصعد وخرجنا إلى مساحة كبيرة مليئة بأجهزة الكمبيوتر، جزء منها يشبه غرفة أخبار صحيفة يومية، والجزء الآخر يشبه غرفة تداول في بنك استثماري من الدرجة الثانية. باستثناء أن بريغوجين قام بتركيب آلتي قمار (سلوت ماشين) على طول أحد الجدران - تكريمًا لروح المكان، كما أسر لي. ولم لا؟ ففي النهاية، توجد طاولات تنس طاولة في مكاتب "غوغل"، أو هكذا سمعت.

استقبلنا شاب رياضي بابتسامة. كان يرتدي قميصًا بياقة وسترة مخملية، وكأنه على وشك قيادة ندوة دراسات عليا في جامعة جورج تاون.

قال بريغوجين، وهو فخور بوضوح باكتشافه:

- "أود أن تقابل أنطون. اخترته لقيادة قسم التحرير. يحمل الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة موسكو ويتحدث الإنجليزية والفرنسية والألمانية. يعرف عن السياسة الأوروبية أكثر مما يعرفه معظم ممثلي حكومتنا."

استمع أنطون بهدوء. لم تظهر تعبيراته لا فخرًا ولا تواضعًا زائفًا. بدأنا بالحديث عن كل شيء ولا شيء. ثم قررت اختباره في الوضع الداخلي لبعض الدول الأوروبية المجاورة لنا. لم يكن أنطون لامعًا فحسب، بل وجدته جذابًا للغاية. لم يكن لديه شيء من الغطرسة التي تصيب الكثيرين من جيله المحمي

بإفراط. في الواقع، كان يتمتع بصراحة هي دائمًا علامة على ذكاء متفوق حقًا. كان فهمه للوضع الدولي حادًا كسكين صيد. كان بإمكانه الدخول في التفاصيل دون أن يغفل أبدًا عن الصورة العامة.

راقبه بريغوجين مبتسمًا بسعادة. كان ربيبه يجعله فخورًا. بعد دقيقة أو دقيقتين، كنت قد اكتفيت. ودعت أنطون مصافحًا إياه، واقتدت بريغوجين جانبًا. كنت مصدومًا من غبائه.

- "ما الذي يدور في ذهنك يا يفغيني؟"

اكفهر وجه الطاهي.

- "هل هناك خطب ما يا فاديم ألكسيفيتش؟"

- "بم كنت تفكر بحق السماء؟ ظننت أنني أوضحت الأمر: نريد التأثير في السياسة في أوروبا والولايات المتحدة. المشاركة في النقاش، تقديم مساهمتنا فيه. وتأتيني بهذا الطفل؟"

أشار نحو أنطون:

- "لكنه جيد جدًا. إنه يعرف كل شيء."

- "بالضبط يا يفغيني، هذه هي المشكلة برمتها."

رفع بريغوجين حاجبيه بتعبير مبالغ فيه عن الحيرة لدرجة أنني انفجرت ضاحكًا.

- "فكر يا يفغيني. الغربيون لا يهتمون بالسياسة. إذا أردنا لفت انتباههم، علينا التحدث عن أي شيء عدا السياسة. لا نحتاج إلى أنطون هنا! ما نحتاجه هو شابات يقدمن نصائح تجميل، مهووسو ألعاب فيديو، منجمون، أشخاص من هذا القبيل، هل تفهم؟"

- "لكن عند مرحلة معينة، سنحتاج لتوصيل رسالتك، أليس كذلك؟ ستصدر توجيهات..."

- "من تظننا، (الكومنترن)؟ يؤسفني أن أقول لك هذا، لكن الاتحاد السوفيتي انتهى وولى، ولا توجد جنة للطبقة العاملة في الأفق. تلك الأوقات ذهبت بلا رجعة. لا يوجد خط حزبي يا يفغيني، يوجد فقط سلك معدني."

دفعتني نظرته المرتبكة للاستمرار.

- "عندما تريد كسر قطعة من سلك معدني، ماذا تفعل؟ تثنيها أولًا في اتجاه، ثم في الآخر. هذا ما سنفعله يا يفغيني. بينما تبني شبكاتك، ستجد قضايا يهتم بها الناس حقًا. لا أعرف ما هي، لكن (النقرات) ستخبرك. ربما هناك شخص ضد اللقاحات، وآخر ضد الصيادين، أو أنصار البيئة، أو السود، أو البيض. لا يهم. المهم هو أن هناك شيئًا يشعر كل شخص تجاهه بقوة، وشخصًا ما يثير غضبهم حقًا.

لا نحتاج لتحويل قناعات أحد يا يفغيني. نحتاج فقط لمعرفة ما يؤمنون به وإقناعهم به أكثر، هل بدأ الأمر يصبح منطقيًا؟ ضخ الأخبار، بث حجج حقيقية أو كاذبة، لا شيء من هذا له أي أهمية. لكن إغضابهم، جميعهم. جعلهم أكثر غضبًا وجنونًا. نشطاء حقوق الحيوان في جانب والصيادون في الآخر. جماعة (القوة السوداء)، وأنصار تفوق العرق الأبيض. نشطاء (مجتمع الميم) والنازيون الجدد. ليس لدينا تفضيلات يا يفغيني. الخط الوحيد الذي نتبعه هو خط السلك المعدني. نحنيه إلى جانب، ثم نحنيه إلى الآخر. حتى ينقطع."

نظر إليّ بريغوجين للحظة طويلة في صمت. كان يفكر.

- "حسنًا يا فاديا، فهمت. خط السلك المعدني. لكن ماذا سيحدث عندما يكتشفون أمرنا؟ لأنك تعلم أن ذلك سيحدث، أليس كذلك؟ كل شيء على

الإنترنت يمكن تتبعه. ونحن نلعب على أرضهم. سيدركون ذلك عاجلًا أم آجلًا. وسيمرغون سمعتنا في الوحل وأسوأ."

- "على العكس تمامًا يا يفغيني. ستكون تلك لحظة انتصارنا."

صمت.

- "ألا ترى ذلك؟ الإيماءة القصوى التي يقوم بها فنان عظيم هي كشف التناقض! هم يتوقعون منا دعم الموالين لروسيا والمجموعات المناهضة لأمريكا، صحيح؟ لكن ماذا سيفعلون عندما يدركون أننا ندعم أيضًا الأعداء السياسيين لهذه المجموعات؟ رجال التعديل الثاني الوطنيين الذين يريدون اصطحاب مسدساتهم نصف الآلية معهم حتى إلى الحمام. والنباتيون الذين يفضلون شرب السم على شرب كوب من الحليب. والشباب الذين يريدون إنقاذ العالم من كارثة بيئية. سأخبرك. سيجن جنونهم، لن يعرفوا ما الذي يحدث. لن يعرفوا من يصدقون أو ماذا يصدقون بعد الآن! الشيء الوحيد الذي سيفهمونه هو أننا دخلنا رؤوسهم ونعبث بشبكاتهم العصبية كما لو كانت آلات قمار!"

ظهرت ابتسامة أخيرًا على وجه بريغوجين. بدأ يفهم.

- "لهذا السبب فإن الهدف الرئيسي لهذا المكان هو أن يُكتشف يا يفغيني. أن يُقبض علينا. هل تظن حقًا أن مئة طفل في مكان مثل هذا يمكنهم تغيير التاريخ؟ بالطبع لا. مهما كانوا بارعين، لن يحدث ذلك. هم فقط سيمتطون صهوة الفوضى، ربما ينجحون في زيادتها قليلًا، لكن الغضب الذي سيسخرونه موجود بالفعل، والخوارزمية التي تتحكم فيه اخترعها الأمريكيون، وليس الروس. نحن فقط سننخسهم بمهاميزنا، هذا كل شيء. لكننا سنسمح بأن نُضبط متلبسين! وستكون تلك اللحظة الحاسمة. متهمونا هم من سيقولون إننا نتآمر ضد الديمقراطية، في أوروبا والولايات المتحدة. هم من

سيبنون أسطورة قوتنا. كل ما علينا فعله هو التصرف بريبة والخروج ببضع نفيات غير قابلة للتصديق تمامًا. سيكفي ذلك لتأكيد أسوأ كوابيسهم: (الروس هم الزعماء السريون للنظام العالمي الجديد!). وهذا الخيال المحموم سيزيد بدوره من الفوضى. ستتحول قوتنا من أسطورة إلى حقيقة. هذا هو الجميل في السياسة يا يفغيني: أي شيء يجعل الناس يؤمنون بالقوة يزيد تلك القوة في الواقع."

(25)

تحرك بيريزوفسكي بتثاقل ديناصور وسط الأضواء الفسفورية في فندق «كلاريدجز». التفتت زرافة ثملة ترتدي بدلة بنطال من «سيلين» لتتابعه بنظراتها. حتى الأمريكي، الذي كان يقضي فترة توقف عابرة هناك، بدا وأنه لاحظ التنافر الصارخ لهذا الحضور "ما قبل التاريخي" وسط كل هذا الماهوجني والكريستال المتلألئ. أو ربما عرفه؛ فقد تورط بوريس في فضائح واستفزازات كثيرة لدرجة أن وجهه بات مألوفًا بين المنازل الجورجية في حي «مايفير». كنا قد جرينا على عادة اللقاء كلما صادف مروري عبر لندن. ومنذ زمن طويل، لم تعد لدي رسائل أنقلها إليه. وربما لهذا السبب، أضحت المتعة البسيطة لقضاء بضع ساعات معًا هي السبب الوحيد لاجتماعنا. من جانبي على الأقل. وكما يحدث للأذكياء الذين يسقطون من علياء السلطة، أصبح بيريزوفسكي، إن لم يكن أكثر حكمة، فعلى الأقل صار أكثر استبصارًا. وأذكر أنني في تلك الليلة أثنيت على لغته الإنجليزية التي صارت لا تشوبها شائبة.

أجابني:

- "ماذا تتوقع؟ أسلافك تحدثوا الفرنسية ولاذوا بباريس، بينما الروسي المعاصر يتحدث الإنجليزية ويجد السلوى في لندن!".

ابتسم بمسحة من الحزن، ثم انتفض فجأة وكأنه يطرد فكرة ما.

- "لا تظن أن التعامل مع الإنجليز سهل دائمًا. في الأسبوع الماضي كنت في مكتب أحد المصرفيين لتوقيع عقد مع شقيق شيخ من الخليج. بدأنا في إبراز وثائقنا، وهل تعلم ماذا فعل موظف البنك هذا؟ طلب من الشيخ بطاقة هويته. نظر الشيخ حوله، والتفت إلى مساعديه؛ فهو لم يعتد حمل محفظة حين يخرج. حاولت التدخل، لكن المصرفي كان واحدًا من أولئك الأوغاد المتصلبين الذين تجدهم أحيانًا في هذه الأنحاء. خشيت أن يغضب الشيخ فجأة ويلغي الصفقة برمتها. لكن هل تعلم ماذا فعل؟ طلب من مساعده ورقة نقدية، ومدها للمصرفي. نظر إليه الرجل غير مصدق: «ماذا تفعل بحق السماء؟ هل تعرض عليّ بقشيشًا؟ قد تكون هذه عادة مقبولة في بلادك، لكن ليس في الحي المالي بلندن». فرد الشيخ: «انظر جيدًا. ما هو مطبوع على هذه الورقة النقدية هو وجهي. آمل أن تكون هذه وثيقة كافية لك». انفجر الجميع ضحكًا، وفي النهاية اضطر المصرفي الوغد للإذعان".

لحسن الحظ، لم تخفت موهبة بوريس في الترفيه عن "الجنود" وفي الوقت ذاته التغني بمديح نفسه. لكن لسوء الحظ، لم تتغير هواجسه أيضًا.

سألني:

- "كيف تجري الأمور مع ألعاب بوتين؟".

- "الاستعدادات للأولمبياد الشتوي تسير بشكل جيد، شكرًا لسؤالك. تكرم الرئيس بتكليفي بمسؤولية حفل الافتتاح. سيكون هناك عرض ضخم قبل بدء المنافسات الرياضية".

- "همم، يبدو جيدًا. آمل أن تكون قد خصصت أيضًا ميدالية لأكبر متملق. وميدالية للقتل، تمنح لأفضل قاتل في الاستخبارات العسكرية".

- "لا أدري، ربما يا بوريس. المهم هو أن تتقدم روسيا على الجميع".

- "لا ينبغي أن تكون هذه مشكلة، أنا واثق أنك ستجد حلاً، كما تفعل عادة".

صمت بيريزوفسكي برهة، ثم استأنف:

- "لن يتوقف أبدًا، أليس كذلك؟ أمثاله لا يستطيعون. إنها القاعدة الأولى: استمر في المضي قدمًا. لا تصحح شيئًا إذا كان قد نجح من قبل، وخصوصًا لا تعترف بأي أخطاء. في البداية لم أفهم، لكن توفر لي الوقت الآن للتفكير في الأمر. وقرأت أيضًا طنًا من الكتب عن الديكتاتوريين السابقين. خذ مثلاً، هل تعلم ما فعله موبوتو حين وصل للسلطة في الكونغو؟ غير اسم البلاد إلى زائير لأنه ظن أنها مفردة أصلية، وطريقة للتخلص من الماضي الاستعماري. ثم تبين أن «زائير» كلمة برتغالية. فماذا فعل؟ هل اعتذر وغير المسار؟ مستحيل! ألصق كلمة «زائير» على كل شيء آخر: على الأوراق النقدية، والسجائر، ومضخات الوقود، وحتى على الواقيات الذكرية على حد علمي... قيصرك هو نفسه تمامًا: مستبد، وزعيم قبلي!".

- "قد يكون كذلك يا بوريس، لكنها ليست همجية؛ هكذا تُلعب اللعبة. القاعدة الأولى للسلطة هي المضي قدمًا في أخطائك، وألا تظهر أدنى صدع في جدار الهيبة. كان موبوتو يعرف ذلك لأنه جاء من مكان كان الزعيم فيه يُقتل في الأيام الخوالي لمجرد سقوطه عن حصانه. وكانوا يخنقونه حتى الموت إذا مرض. يجب أن يكون الزعيم قويًا ليحمي شعبه. وفي اللحظة التي يظهر فيها أي ضعف، يُقتل ويحل محله آخر. الأمر سيان في كل مكان. لكن حسب موقعك، الزعيم المخلوع قد يُخوزق على وتد، أو يُرسل إلى أقاصي الأرض ليلقي خطابات مقابل مائة ألف دولار للمرة الواحدة".

اكتسى وجه بيريزوفسكي بتعبير تأملي، زاده عمقًا الظلال الداكنة والضوء الخافت في الحانة.

- "أنت محق يا فاديا، لكن تذكر أنه لا توجد نهايات سعيدة في السياسة. حتى «الملك الشمس»، في أواخر حياته، كان يصاب نوبات بكاء مريعة".

- "ماذا عساي أقول يا بوريس؟ الحياة مرض عضال".

- "بالضبط يا فاديا. ولهذا السبب تحديدًا عليك أن تدرك متى تحين لحظة التوقف عن الهراء. لطالما اعتقدت أن أحد القواسم المشتركة بين السياسة والمافيا هو أنك لا تتقاعد منهما. لا يمكنك الانسحاب من السياسة والبدء في فعل شيء آخر. ثم عثرت على قصة جوني توريو. هل تعرف قصته يا فاديا، قصة جوني توريو؟".

هززت رأسي نافيًا. كنت أستشعر مسبقًا نكهة هذه الأمثولة التي لا تحصى من أمثولات بيريزوفسكي، حتى وإن لم أكن أعلم حينها أنها ستكون الأخيرة.

- "كان زعيم نقابة المافيا في شيكاغو غداة الحرب العالمية الأولى، زعيمًا حقيقيًا، يحترمه الجميع. لكن أحد مرؤوسيه كان رجلاً يطمح لأخذ مكانه، رجل يدعى آل كابوني. وفي أحد أيام يناير عام 1924، حوالي الساعة الخامسة، سقط جوني توريو، رئيس مجلس مافيا شيكاغو، قبالة منزله وفيه خمسة ثقوب من الرصاص. أخذوه إلى المستشفى، فقال للشرطة: «أعرف من فعلها، لكنني لست واشيًا». وحين تعافى، استدعى آل كابوني، وأعطاه مفاتيح إمبراطوريته، وأخبره برغبته في العودة إلى إيطاليا. وكانت النتيجة أنه عاش خمسة عشر عامًا أخرى، وبفضل من الله، مات بسلام في منزله ببروكلين".

صمت بوريس للحظة، ثم أخرج رسالة من جيبه.

- "هذه الرسالة للقيصر. كتبتها من القلب. يمكنك قراءتها إن شئت".

كان الورق مصنوعًا يدويًا وملمسه كقطعة من القماش القطني. كانت مناشدة لرحمة القيصر المسيحية. "أناشدك باسم المسيح أن تعفو عني"، هكذا كتب بيريزوفسكي. ثم كانت هناك تلميحات تدر الدموع عن دنو أجله، وعن مرارة المنفى، وعن عجوز أحمق أدرك أخطاء ماضيه، يتوسل لسيادة الرئيس، الذي يثق تمامًا في نبل أخلاقه، أن يأذن له بقضاء ما تبقى من أيامه في أحضان الوطن الأم. لم ترقَ الرسالة لأسلوب زامياتين. كانت أقرب إلى التوسل، على الطراز النقي لتقليد علماني طويل. حتى وإن كان بوريس قد استسلم في إحدى الفقرات لإغراء اقتراح نفسه كمستشار "بناءً على خبرتي المتراكمة، إذا رأيت أنها قد تكون مفيدة يا فلاديمير فلاديميروفيتش".

- "هل تظن أنها ستجدي نفعًا؟".

سألني المحتال العجوز بحماسة، محاولًا رسم تعبير ساخر على وجهه، لكن ما قرأته في عينيه كان يأسًا لا قاع له. وددت لو قلت له: نعم، سيتأثر القيصر، وسنقف قريبًا جنبًا إلى جنب في المقصورة الرئاسية لاستعراض موكب الافتتاح في ألعاب سوتشي. لكن ما ومض في ذهني هو أن بيريزوفسكي، في غضون أيام، سينسى عروضه الجادة وسيعود ليجمح مرة أخرى، مقترحًا ومطالبًا بدور يلعبه. افتقدت طاقته. لم يكن قديسًا، لكن في كل ما أقدم عليه كان ثمة نوع من البهجة. ومنذ نفيه، ونفي الكثيرين من أمثاله، لم يتبقَ في موسكو سوى التجهم الصارم لرجال الأجهزة الأمنية (السيلافيكي). لكنني كنت أعلم أن القيصر لم يكن يتوق لعودته، بل على العكس تمامًا.

قرأ بوريس الإجابة في عيني، حتى وإن لم يكن مستعدًا لتقبلها.

- "حسنًا، خذها معك على أية حال. أظن أنها قد تنجح".

افترقنا تلك الليلة بعناق روسي، طال إلى الحد الذي بدأ يزعج الأجواء الراقية في «كلاريدجز». صعدت إلى غرفتي مثقلاً بشعور غريب بالهزيمة. في

التحليل الأخير، وافق الأسد العجوز على إسدال قبعة سائق التاكسي على عينيه. أثبت ذلك مرة أخرى أن الضعف الذي لا تعرفه قد يتربص في الظلال كزاحف في دغل، ويمكن أن يبرز في أي لحظة، حتى النهاية، حتى حين تظن أنك عشت حياتك دون أن تضطر لحني رقبتك أبدًا.

بعد يومين من لقائنا، وُجد بيريزوفسكي ميتًا في حمام منزله بأسكوت، مشنوقًا بوشاح الكشمير المفضل لديه.

(26)

"المشكلة ليست في أن الإنسان فانٍ، بل تكمن في أنه فانٍ بشكل غير متوقع".

في أي وقت آخر، كنت سأطير فرحًا لأن القيصر تكبد عناء نبش اقتباس لـ بولغاكوف من أجلي. لكن في ذلك اليوم لم أكن ميالًا لتقدير الاقتباسات الأدبية. وبالطبع، أدرك بوتين ذلك.

سألني:

- "هل تظن حقًا أننا فعلناها؟".

كان وجه القيصر صفحة من الغرانيت. ألقيت نظرة حولي. كنت أمقت الطابع الرسمي والكآبة التي تلف «نوفو-أوغاريوفو»، ومزيجه بين الحميمية الزائفة والذوق السيء الأصيل، وكأن مهمة تزيين مقر إقامة الرئيس في ضواحي موسكو قد أُوكلت في مرحلة ما إلى رئيس أمن الكرملين. وهو ما قد يكون حدث بالفعل. حتى في الظروف العادية، كانت المصابيح البرونزية القائمة والجدران المغطاة بالدمقس تصيبني بالحزن. وشعرت بذلك أكثر هذا الصباح، حيث كانت الصحف تضج بخبر موت بوريس، ومناشدته العقيمة تحرق جيب صدري كركاصة في جرح.

- "لا أظن شيئًا يا سيادة الرئيس".

- "وأنت محق تمامًا يا فاديا".

ترك القيصر بضع لحظات تمر لكي يتغلغل المعنى العميق لتحذيره خلف قشرتي الدماغية وصولاً إلى المناطق المركزية في عقلي. ثم استأنف بنبرة أكثر دنيوية:

- "على أية حال، الحقيقة هي أن بيريزوفسكي كان مفيدًا جدًا لنا. في كل مرة كان يفتح فيها فمه ليقول إنه سيعود بمجرد ألا أكون في السلطة، كان ذلك يصب في مصلحتنا. تذكر الناس التسعينيات، وكل تلك المعاناة، وتلك الفوضى. كان يكفي أن ينظروا إليه ليعرفوا حقيقته".

وحين التزمتُ صمتي العنيد، واصل بوتين:

- "بالطبع، صحيح أنه كان يساعد أعداء روسيا في كل مكان. في أوكرانيا، وفي لاتفيا، وفي جورجيا. من يدري ما الذي حدث حقًا؟ انظر يا فاديا، يظن أصحاب نظريات المؤامرة أنهم أذكياء للغاية، لكنهم في الواقع حمقى كبار. يودون لو كان لكل شيء معنى خفي، وهم يقللون بشكل منهجي من قوة الغباء، والإهمال، والصدفة. ومع ذلك، فليكن ما يريدون: إنهم لا يقصدون ذلك، لكن أصحاب نظريات المؤامرة يفيدوننا. إذا كنت، بدلاً من رؤية السلطة كما هي حقًا، بكل ضعفها البشري، تضفي عليها هالة من المعرفة المطلقة، وقدرة على تدبير المؤامرات من كل نوع، فأنت بذلك تسدي لها أكبر خدمة ممكنة، أليس كذلك؟ أنت تجعل الناس يظنون أنها أعظم مما هي عليه".

اقتبستُ من الأصل الفرنسي:

- "«بما أن هذه الألغاز تتجاوزنا، فلنتظاهر بأننا نحن من دبرها»".

كان القيصر يكره حين أتشدق باقتباسات أدبية، وهو لا يتحدث الفرنسية، لكنني لم أكن في مزاج لمسايرته ذلك الصباح. نظر إليّ للحظة في صمت، ثم قرر تجاوز الأمر.

- "كان الأمر سيان مع تلك القضايا الأخرى: العقيد، والمحامي، والصحفية الشهيرة. أنت تعلم تمامًا يا فاديا، لم نكن نحن. نحن لا نفعل شيئًا أبدًا. نحن فقط نخلق الظروف التي تتيح احتمالات شتى".

قد يكون ذلك صحيحًا تمامًا. لفترة طويلة، لم يصدر القيصر أوامر مباشرة، أو كان يفعل ذلك نادرًا. كان يكتفي برسم الحدود، ما هو مسموح وما هو ليس كذلك. ثم تتبع اللعبة منطقها الخاص، وصولاً إلى أقصى العواقب، التي تشكل أيضًا حقيقتها الأعمق. كان هذا بالضبط ما تحدثت عنه أنا وبيريزوفسكي قبل بضعة أيام - مصادفة لم تجعلني سخريتها أرغب في الابتسام بأي حال. بل كانت لتدفعني للبكاء، لو كنت قادرًا عليه. فكرة أن قاطع الطريق العجوز أراد في النهاية فقط أن ينهي حياته مثل جوني توريو أثرت فيّ أكثر مما كنت أظن. مسكين بوريا، كان يستحق ذلك بالتأكيد.

في المقابل، كان القيصر يقرأ رسالة بيريزوفسكي. وضعها جانبًا، رابط الجأش، وكأنه حجر في قاع نهر. أدركت حينها أن بوريس كان محقًا في هذه النقطة أيضًا؛ بوتين لم يكن ممثلاً عظيمًا، كما ظننت، بل جاسوسًا عظيمًا فقط. المهنة انفصامية بطبعها، وتتطلب بلا شك موهبة معينة كممثل. لكن الممثل الحقيقي منبسط، يجد متعة حقيقية في التواصل. أما الجاسوس، فعليه أن يعرف كيف يحجب عواطفه، هذا إن كانت لديه عواطف أصلاً. عمليًا، تخدم الموهبتان الجاسوس. عليه محاكاة تعاطف الممثل بينما يحتفظ بالانفصال الجليدي للجراح في غرفة العمليات. ولكن إن لم يكن بوتين ممثلاً عظيمًا، فأنا لم أكن مخرجًا عظيمًا أيضًا. شريك في الجريمة، في أفضل الأحوال.

في ذلك اليوم، وبدلاً من التوقف عند مصير بوريس، حول القيصر الحديث إلى الاستعدادات للألعاب الأولمبية في سوتشي. كان ذلك هوسه في تلك الفترة. من أجل إقناع اللجنة الأولمبية بعقد الألعاب الشتوية في مدينة شبه استوائية تفتقر لأي بنية تحتية أو مرافق نقل، حشد بوتين كل قوة روسيا المعاصرة وبعضًا من خيال التلاعب الذي ميز حياته السابقة. في مرحلة ما، جاءت مجموعة من المفتشين الأولمبيين للزيارة، ولأن سوتشي لم يكن بها مطار، تم تزييف واحد. طلاب يرتدون ملابس سياح حدقوا في لوحات تعرض أوقات مغادرة ووصول لرحلات غير موجودة. كان بوتمكين ليفخر بنا.

كلما اقتربنا من يوم الافتتاح، وجد القيصر صعوبة متزايدة في الحديث عن أي شيء آخر. كان من الواضح أنه يعتبر استضافة الألعاب ذروة عهده. ويجب أن أعترف أنني وجدت الأمر ساحرًا أن أشارك فيها بصفتي الشخص المسؤول عن حفل الافتتاح. كانت مسيرتي المهنية، عند هذه النقطة، تكمل دورتها. بدأت في المسرح وانتقلت منه إلى إخراج الواقع. لا يمكن لأحد أن يقول إنني لم أقم بعمل جيد. والآن طُلب مني أن أسقط على المسرح الواقع الذي ساعدت في خلقه. لكن هذه المرة ليس في مسرح طليعي صغير، بل في ساحة ضخمة، أمام جمهور يمتد عبر الكوكب بأسره.

كانت هذه هي المناسبة التي كنت أنتظرها. بتقمصي دور إله صغير، كنت قد سلكت طريقًا مسدودًا. ما أردته الآن هو الاستدارة والعودة، إعادة تأسيس علاقة مع كل ما وجدته جميلاً في العالم. إذن طُلب مني وضع روسيا على المسرح، العظمة المأساوية لتاريخها، والجمال المؤثر لأغانيها وكتاباتها؟ حسنًا، سأجعلها قصة شخصية، فرصة لإعادة حياكة الخيوط المقطوعة لعائلتي، التي كانت، في الواقع، الخيوط المقطوعة لكل عائلة روسية.

في جيلي، رأينا آباءنا يُذلون. كانوا رجالاً جادين، ذوي ضمائر حية، عملوا بجد طوال حياتهم، ثم، في سنواتهم الأخيرة، وجدوا أنفسهم تائهين مثل أحد

سكان أستراليا الأصليين وهو يحاول عبور طريق سريع. انطبق هذا على أبناء "النومنكلاتورا" (النخبة) بقدر انطباقه على أي شخص آخر. رأينا آباءنا، تلك الشخصيات القوية، نقاط مرجعيتنا، يتجولون بأعين شاخصة، مصدومين من انهيار كل ما آمنوا به. رأيناهم موضع سخرية وتشهير لمجرد أنهم قاموا بواجبهم. في الحقيقة، نحن من سخر منهم وشهر بهم. كنا جميعًا قد اهتززنا حتى النخاع من هول المشهد. نحن من تسببنا فيه، ونحن من اهتززنا به. بعدها، لم يكن ضمير أحد مرتاحًا. أما الآن، فقد أردنا إنصافهم. إنصافهم وإنصاف آبائهم، الذين أذلوهم هم أيضًا، لأن روسيا محكوم عليها دائمًا بتكرار نفسها.

على مر السنين، جمع القيصر بصبر خيوط التاريخ الروسي ليمنحه قدرًا من التماسك. روسيا ألكسندر نيفسكي، وروما الثالثة للبطاركة، وروسيا بطرس الأكبر، وروسيا ستالين، وروسيا اليوم. ظهرت عظمة بوتين الخاصة في هذا، لكنه استسلم لاحقًا لإغراء العثور في القوة الغاشمة على الخيط الرابط الذي كان يبحث عنه - تسلسل مظلم، وإن لم يخلُ من العظمة، من "أوبريتشنكي" إيفان الرهيب، مرورًا بالشرطة السرية للقيصر و"التشيكا" الستالينية، وصولاً إلى أمثال سيتشين وبريغوجين اليوم.

بالنظر إلى أصوله، ربما لم يكن بوسع القيصر فعل غير ذلك. لكن "السيلافيكي" لم يساهموا بشيء في جمال العالم، وقصصهم لم تكن مخصصة لتُروى بل لتُطمس. بين أيديهم، كل ما هو رائع أو مأساوي في التاريخ الروسي كان سيظهر في ضوء قاسٍ، كسلسلة غير منقطعة من الانتهاكات والتضحيات. ما طُلب منا الآن هو سرد ما ساهم به تاريخنا الروسي في مخزون الجمال العالمي. شيء لم يكن أمثال سيتشين وبريغوجين يعرفون عنه شيئًا. وبوتين نفسه، كما أعتقد، لم يكن ليعرف من أين يبدأ.

أنا، من ناحية أخرى، ظننت أنني أعرف. وبشكل أخص، كنت أعرف أين أبحث: في رفوف مكتبة جدي، في قصص صيده، في الروايات التي أعاد أبي قراءتها في الأشهر التي سبقت موته، وفي الأنساب المعقدة للمجانين والفنانين التي تشربناها أنا وكسينيا في شبابنا، حين كانت موسكو سرابًا متعدد الألوان.

قررت الاستعانة بأصدقائي من تلك الأيام. الكثير منهم لم يكونوا راغبين في الانخراط؛ البعض استشاط غضبًا من فكرة أن يحتويهم النظام، بينما آخرون، وإن كانوا راغبين بما يكفي في الاحتواء، رفضوا المساهمة في إنتاج ضخم قالوا إن كل الفرص متاحة ليكون ذوقه سيئًا للغاية. كانوا محقين، بطريقة ما. حجم الإنتاج أملى طريقة التعبير: كان يجب أن يكون "كيتش" (فنًا رديئًا مبتذلاً)، وهي اللغة الوحيدة التي يمكنها التواصل بموثوقية مع الجماهير، لأنها تبسط كل شيء وتتجنب الفروق الدقيقة. لكن لم يكن مكتوبًا في أي مكان أن "الكيتش" لا يمكن تخريبه وتحويله لخدمة غاياتي الخاصة.

بدأنا العمل. كانت الأموال غير محدودة. لم يكن القيصر ليبخل حين يتعلق الأمر بإسقاط عظمته على سطح الكرة الأرضية. اخترنا الأفضل في كل فئة واستمتعنا بجمع كل ذلك معًا. استلهم مصممو الأزياء ملابس شخصياتنا من التقاليد، ولكن أيضًا من رسومات مصمم أزياء ياباني. أخرج مصممو الرقصات الحقبة الستالينية بأسلوب فخم مستلهمين من البنائيين (Constructivists)، الذين كان "الأب الصغير" يمقتهم. الاستوديو الواسع المفتوح الذي جهزته لفريقنا الإبداعي - خارج أسوار الكرملين مباشرة، لأتمكن من الذهاب إلى هناك قدر الإمكان - ذكرني قليلاً بوقتي كمنتج تلفزيوني. بعض الوجوه التي ظهرت هناك كانت هي نفسها، لكنها أكبر بخمسة عشر عامًا. وحتى الآخرين، المجموعة الأصغر سنًا التي انضمت إلينا، كان لديهم جميعًا مظهر عائلي مألوف. من واقع خبرتي الطويلة، أصبحت بارعًا في التفرس في وجوه الأشخاص ذوي النظارات السميكة، والقمصان الباهتة، وساعات

الكوارتز من السبعينيات، بحثًا عن أصغر وميض من الذهب الحقيقي. كان لدى معاونينا الشباب جميعًا تلك الشرارة التي تميز الموهبة الحقيقية عن الكتلة البائسة من مبدعي حفلات الكوكتيل، رغم أنه قد يكون من الصعب من الخارج تمييزهم عن الشباب المدللين الذين يتجمعون في حانات وسط موسكو للتخطيط لتجمعات مفاجئة (فلاش موب) لدعم معارضي القيصر. كان شعرهم الأشعث وستراتهم المخملية الأرجوانية تتنافر مع القاطنين المعتادين لقاعات الكرملين. كنت أتفهم لماذا بدأ وزير الثقافة، حامل لواء القيم التقليدية الذي كُلف بالإشراف على الاستعدادات، في إظهار علامات التوتر. مثل معظم أعضاء بلاط بوتين الآخرين، كان دائمًا لا يوافق على أنشطتي، التي كانت تتقاطع أحيانًا مع أنشطته، وغالبًا ما كانت لتعطيلها. "كل هؤلاء المخربين من مختلف المشارب"، كان يفكر، "لا يمكن أن يقودوا لشيء جيد". و"هذا المدعو بارانوف"، كان يتساءل، "هل يتلاعب بهم حقًا أم أنه في الجوهر واحد منهم؟".

طالما كانت علاقتي بالقيصر محصنة، لم يكن بوسعه فعل الكثير، لكن الآن وقد بدأت تظهر عليها تصدعات - ولا شيء يفوت هوائيات رجال البلاط فائقة الحساسية - فقد تكون هذه اللحظة المناسبة للتدخل. حين علم أن بعضنا يطرح فكرة جعل جوقة الجيش الأحمر تؤدي أغنية لفرقة «دافت بانك»، قرر الوزير اللجوء إلى سيتشين. ولهذا السبب وجدت نفسي مرة أخرى في مكتب القيصر.

لم يضيع سيتشين، من موقعه المعتاد خلف القيصر الجالس إلى مكتبه، وقتًا للدخول في الموضوع.

- "فاديا يحول الحفل إلى مهزلة. لقد جمع كل شلته من موسكو، وهم يخططون للسخرية منا".

منذ البداية، كان إيغور دائمًا يرتدي افتقاره التام لروح الدعابة كوسام للموثوقية. أجابه القيصر بذهول:

- "وماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك يا إيغور؟ صديقنا فاديا بهلوان. بين المصرفيين هو فنان؛ وبين الفنانين هو مصرفي. لا يمكنك اللحاق به أبدًا لأنه دائمًا في مكان آخر".

نظر إليّ سيتشين بتعبير طبيب أسنان يوشك على إحداث ألم.

- "انتبه يا فاديا، لأنه عاجلاً أم آجلاً ستفقد أرجوحتك وتهوي متحطمًا على الأرض".

بطريقة ما، كان محقًا، لكنني لم أكن مستعدًا للاستسلام، ليس بعد.

- "عذرًا يا إيغور، لكن أليس لديك أي خونة للوطن لتخوزقهم؟ لأننا نحاول العمل على عرض هنا، حسنًا؟ أعظم عرض أُنتج على الإطلاق".

نظر إليّ سيتشين للحظة بذهول. مرت سنوات منذ تجرأ أحد على التحدث إليه بهذه الطريقة، باستثناء القيصر. كان متفاجئًا لدرجة أنه لم يتمكن حتى من الغضب.

بدا القيصر مستمتعًا. كان يحب دائمًا حين يتشاجر مرؤوسوه. التفت إليه مرة أخرى.

- "سيدي الرئيس، ثلاثة مليارات شخص سيشاهدون هذا العرض. معظمهم لا يعرفون شيئًا عن بلدنا. كل ما يعرفونه هو أنه في وقت ما كان هناك «الحمر»، والآن لم يعودوا موجودين. هذا هو كل ما في الأمر، دعنا لا نخدع أنفسنا. لدينا ساعتان لتعريفهم بروسيا الخاصة بنا. روسيا التي بنيناها، وروسيا التي نسعى إليها. يمكننا أن نريهم بلدًا متقدمًا، بلدًا بلا عقد، يستوعب العالم الخارجي ويعكسه، يؤثر في العالم ويتأثر به. روسيا منفتحة، واثقة من نفسها، تثير الرهبة بسبب قدرها العظيم لكنها يمكن أن

تجعلك تبتسم أيضًا، لأنك تحتاج قدرًا معينًا من الفكاهة للتعامل مع عالم اليوم. أو، بالطبع، يمكننا قضاء ساعتين في تسليتهم بالجدات بالأزياء التقليدية وجوقات إيغور العسكرية".

لدى بوتين عيوبه، لكنه بالتأكيد قادر على تقييم الناس كما هم، وبشكل أخص، كيف يمكن أن يكونوا مفيدين له في تحقيق غاياته. في أي مشروع آخر، كان ليقف في صف سيتشين، الأكثر جدارة بالثقة، والأكثر طاعة، والأكثر كفاءة. لكن لإقامة عرض سيراه العالم بأسره، كان لديه الحس السليم لاختياري. بلا شك ستكون هذه المرة الأخيرة، وسيتكفل سيتشين بذلك. لكن ما كان يهم في تلك اللحظة هو القدرة على إنهاء العمل.

خلال تلك الفترة، استغليت وجودي في حظوة القيصر لأسأل إن كان بإمكانه منحي شيئًا قريبًا إلى قلبي: حرية ميخائيل. كانت فكرة أن كسينيا عادت إليّ لأن ميخائيل خرج من المنافسة تعذبني. كنت بحاجة لمواجهته على قدم المساواة. كنت أعلم الآن أنني أستطيع فعل ذلك. لم أعد الطالب الأبدي الذي يختبئ خلف متراس من الكتب ليتجنب التعامل مع الحياة: توقفت عن الكذب على نفسي، وخرجت إلى العالم، قتلت إوزتي الأولى وكثيرًا غيرها؛ كنت في قمة أدائي. وكسينيا استشعرت ذلك. لهذا عادت إليّ. ولهذا ستبقى. كان إطلاق سراح ميخائيل من السجن هو الشيء الوحيد المطلوب لضمان ذلك.

كانت هناك حجج عديدة لصالح إطلاق سراحه. بعد المحاكمة الأولى، قضى وقته في معسكر «كراسنوكامنسك» وسط مشهد مريخي من التلال الحمراء المتربة على الحدود القصوى بين سيبيريا والصين. هناك قدم برهانًا على الشجاعة والكرامة. ربما كان ببساطة أشد اعتدادًا بنفسه من ألا يكون شجاعًا للغاية أيضًا. في إحدى المرات، أضرب عن الطعام للحصول على رعاية طبية لموظف سابق في شركته كان مسجونًا معه ومصابًا بفيروس نقص المناعة

البشرية. بعد عشرة أيام، اضطر المدعي العام للإذعان. وفي مرة أخرى، تمكن من الحصول على ظروف عمل أفضل لرفاقه في الزنزانة، الذين كانوا يقضون أيامهم في ورشة الخياطة بالمعسكر.

الآن، كانت والدته مريضة - أعطاها الأطباء عامًا واحدًا على الأكثر لتعيشه. إطلاق سراحه سيكون عملاً من أعمال الرحمة. وكان القيصر يعلم ذلك. الروس يحبون قادتهم قساة، لكنهم يستحسنون أيضًا عملاً من أعمال الرأفة بين الحين والآخر. ثم، كان الأمر أيضًا مسألة ثقة بالنفس للقيصر. بعد أن أمضى سنوات في ترسيخ سلطته المطلقة، ألم يشعر بالقوة الكافية لإظهار الشهامة تجاه خصم أثبت، في الواقع، أنه جدير بالاحترام؟

لم يكن بوسعي صياغة السؤال بهذه المصطلحات بالضبط، لكنني دبرت الأمور بحيث يرى بوتين المسألة بهذه الطريقة تقريبًا. كان لدي، بعد العمل معه لسنوات، فكرة غامضة عن كيفية التأثير في عمليات تفكيره. لم أكن أنجح دائمًا. لكن هذه المرة نجحت. وهكذا، قبل أيام قليلة من بدء الألعاب الأولمبية، أعلن القيصر إطلاق سراح خودوركوفسكي، تمامًا كما عفا قيصر ذات مرة عن كلاوديوس مارسيليوس.

هرعت كسينيا إلى بوابات السجن لتكون في الاستقبال حين يخرج ميخائيل. وضعته على طائرته، ورافقته إلى برلين، حيث يعيش والداه، وبقيت معه لعدة أيام لتتأكد من أنه مؤهل لاستئناف الحياة الطبيعية. ثم أعلنت أنها تتقدم بطلب للطلاق.

ربما كانت تلك المرة الأولى منذ عرفتها التي تتصرف فيها كسينيا تمامًا كما توقعت. كانت هذه امرأة مستعدة لإحراق مدينة بأكملها لتجنب لحظة ملل. ومع ذلك وجدت في قربها نوعًا من السلام لم أكن لأجده أبدًا في صحبة الطبائع الأكثر هدوءًا. قبل أن تختارني، خانتني كسينيا وجرحتني، كما خانت وجرحت عددًا لا يحصى من الرجال الآخرين. إذا كانت قد قررت إلقاء

أسلحتها، فلم يكن ذلك عن كلل أو جبن. بل على العكس، كان ذلك لأنها خاضت وكسبت معارك أكثر مما ينبغي.

لا يكفي في الحياة أن يتعرف شخصان على بعضهما البعض، يجب أن يحدث ذلك في اللحظة المناسبة، حين يكون كلاهما مستعدًا للاحتفاء بالشركة الصامتة التي ستوحدهما. كنا سعداء معًا، وسعداء أيضًا باحتمالات المستقبل المجهول أمامنا. أما الآن، فكل ما كان علينا فعله هو الاستمتاع بحفل الافتتاح. كان العرض يعد بأن يكون مذهلاً.

(27)

دخل الرجال المقنعون فجأة، يضربون الأرض بأقدامهم في مشية عسكرية على وقع الطبول القوي الذي تردد صداه في الظلام. وبحركات سريعة، شكلوا بمصابيحهم اليدوية صليباً معقوفاً وسط الملعب، ثم شرعوا في رشق رجال الشرطة بالحجارة وقنابل المولوتوف. دافع الشرطة عن أنفسهم قدر المستطاع، لكن الغلبة لم تكن لهم بوضوح. وحين وصلت المركبات المدرعة الأوكرانية، وأعلامها ترفرف بوضوح، تمت تصفية رجال الشرطة عن بكرة أبيهم. دوى صوت مألوف عبر مكبرات الصوت:

- «يا أذناب أوروبا المخلدين! يا عبيد أمريكا الروحيين! لقد حرفتم تاريخ آبائكم وبعتم قبور أجدادكم! أحرقتم أوكرانيا وخضبتموها بالدماء تنفيذاً لمخطط أدولف هتلر!»

وفي تلك الأثناء، ارتفعت في الهواء يدان ميكانيكيتان عملاقتان، مطليتان بألوان العلم الأمريكي، تحملان مجسماً لـ أوكرانيا تحيط به النيران.

- «أنتم تقدسون بلداً أجنبياً أكثر من وطنكم، ولهذا حُكم عليكم ألا تسمعوا إلا صوت سيدكم، وأن تخروا ساجدين أمامه إلى الأبد! لكنكم نسيتم أن تحسبوا حساب روسيا!»

عند هذه النقطة، اقتحم فيلق من الوطنيين الروس الساحة وبدأوا قتال النازيين والجنود الأوكرانيين. ومضات ضوئية، انفجارات، وأجساد تتهاوى على

الأرض. وسط الدخان والظلام، لم تكن نتيجة المعركة واضحة، حتى اقتحمت فرقة الذئاب الليلية (Night Wolves) الساحة بهدير دراجاتهم النارية، ملوحين بالعلم الروسي، بينما صدح النشيد الوطني عالياً. وحين انقشع الضباب، كان النازيون ملقين على الأرض في بركة من الدماء، وانطلق صوت القيصر المسجل عبر مكبرات الصوت:

- «لم يتورع القوميون، والنازيون الجدد، وكارهو روسيا، والمعادون للسامية عن فعل أي شيء للاستيلاء على السلطة. لقد لجأوا إلى الإرهاب، والاغتيال، وأعمال الشغب. لكن كيف ظنوا أننا سنتجاهل مواطني أوكرانيا حين استنجدوا بنا؟ لم يكن بوسعنا ذلك، ففي ذلك خيانة! لأن روسيا وأوكرانيا ليستا مجرد جارتين، كما قلنا مراراً، بل هما شعب واحد! كييف هي أم الأمة الروسية. كلانا ينحدر من "روس القديمة"، ولا يمكننا العيش دون بعضنا البعض. لقد أنجزنا الكثير معاً، لكن ما زال أمامنا الكثير، وتحديات جديدة يجب مواجهتها. أنا على يقين بأننا سنتغلب على كل العقبات، وسننجح لأننا متحدون! تحيا روسيا! يحيا الشعب الروسي!»

انتهى العرض بطوفان من قاذفات اللهب والأبخرة الصناعية، بينما اخترقت أشعة الليزر الظلال، وطغى ضجيج المراوح الصناعية الصمّ على موسيقى "الهيفي ميتال" المنبعثة من السماعات العملاقة حول حواف الملعب. هزت الرياح القادمة من الجبال الشرقية أعلام الانفصاليين ولافتة ضخمة كُتب عليها: «حيثما تجد الذئاب الليلية، تجد روسيا». وفي غمرة الحماس، أطلق أحد الحاضرين نيران "الكلاشينكوف" نحو السماء، بينما راقب معظم المتفرجين المشهد مذهولين، تعلو وجوههم نظرة الحيرة لأشخاص فقدوا حاسة السمع مؤقتاً.

عليّ أن أعترف أنني أنا أيضاً ذُهلت قليلاً. قبل بضعة أشهر، كان حفل افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الشتوية انتصاراً باهراً. استحضرت اللوحات

الفنية الحقب الرئيسية في تاريخ روسيا؛ ارتفعت قباب كاتدرائية القديس باسيل البصلية أمام أنظار المتفرجين المبهورين، ورقصت ناتاشا والأمير أندري في البلاط الإمبراطوري، وأطلق طفل أشقر، معلق في الفضاء على كرة أرضية زرقاء، بالون الشيوعية الأحمر أخيراً. رافقت ألحان "طائر النار" لـ سترافينسكي مرور الشعلة الأولمبية، وغنت جوقة الجيش الأحمر أغنية " Get Lucky". عدت إلى الفندق تلك الليلة وأنا أشعر أنني وجدت طريقي أخيراً إلى النور بعد رحلة طويلة. لبضع ساعات على الأقل، كنت قد خلقت عالماً من السحر.

لكن العرض الذي أشاهده الآن كان مختلفاً نوعاً ما. بدا وكأنه موقع تصوير لفيلم عن نهاية العالم. أضاءت شعلات الغاز المرتجفة مشهداً قمرياً تتناثر فيه هياكل السيارات المحطمة، وتتحرك بينها كائنات معدنية نصف بشرية، تنسحب ببطء من الملعب. وظهر في الخلفية مقر الذئاب الليلية في لوهانسك، تعلو جدرانه الأسلاك الشائكة.

- "إذن يا فاديا، ما رأيك، هل أعجبك العرض؟"

كان الصوت الهادر الذي أبرز اللحظات الرئيسية في العرض قبل لحظات يوجه حديثه لي الآن. كان زالدوستانوف قد انتقل إلى دونباس قبل فترة، ليكون في الخطوط الأمامية للحرب الوطنية من أجل شرق أوكرانيا. من الواضح أن القيصر لم يكن يستطيع إرسال قوات نظامية لغزو دولة ذات سيادة، لذا جمعنا جيشاً غريباً من المرتزقة والجنود بملابس مدنية. رسمياً، كان هؤلاء القوم الطيبون جميعاً متطوعين، من قدامى محاربي أفغانستان والشيشان، قرروا قضاء إجازتهم في الدفاع عن الأوكرانيين الناطقين بالروسية ضد نازيِّي "ساحة الميدان". ورغم افتقارهم لقبعات الفرو وتلك السترات السوداء المخصرة التي ميزت قوزاق القرن التاسع عشر، إلا أنهم كانوا لا يختلفون عنهم في شيء آخر.

تولى ألكسندر قيادتهم في دور الزعيم الكاريزمي. بدا مسمراً ورشيقاً على غير عادته، وخُيّل إليّ أنه في عنصره تماماً. لم يفاجئني ذلك. ففي لحظات الاضطراب، لطالما أنتجت روسيا رجالاً من هذا الطراز؛ مغامرين، وقادة عصابات صغيرة، وشخصيات تبرز من العدم لتتصدر تحولات التاريخ. وكان ألكسندر من طينتهم. العالم الذي أحبه كان عالماً بلا قواعد، مكاناً تحدث فيه الأشياء، وكفى. عبده أتباعه وكأن إله الحرب تجسد أمام أعينهم. تشاركوا جميعاً شعوراً بالنشوة لتمكنهم من حمل السلاح والحصول على كل ما حُرموا منه في أوقات السلم. كانت النظارات الشمسية أسلوبهم، وكذلك المركبات الصالحة لكل التضاريس والمنزوعة اللوحات، واللحى، والوشم، والموسيقى الصاخبة، والأسلحة شبه الآلية.

انضم إليّ زالدوستانوف، الذي نظم العرض للاحتفال بالنصر الوشيك لـ روسيا في شرق أوكرانيا، في الكواليس. جاملته مادحاً تقمصه لشخصية الإله "ثور". شكرني ألكسندر بتواضع. تحرك بدقة: إيماءة منه جعلت زجاجة "فودكا" تظهر في دلو ثلج بلاستيكي، بجانب طبق من الرنجة المدخنة وعدة شرائح سميكة من الخبز الأسود.

– "ألكسندر، يا صديقي العزيز، تعلم أنني توقعت لك دائماً أشياء عظيمة منذ التقينا مجدداً. لكن أن أجدك هكذا، حاكماً رومانياً..."

– "أنت تعرف المثل يا فاديا: (من كُتب عليه الشنق لا يموت غرقاً)".

تجرع سائق الدراجة كأساً من "الفودكا" دفعة واحدة، ثم تابع:

– "لكن ماذا عنك يا صديقي، أخبروني أنك تكاثرت. لقد حان الوقت!"

– "ليس بعد تماماً. في غضون أسابيع قليلة، إذا سارت الأمور على ما يرام. فتاة، إن شاء الله".

كان من الواضح أن لـ زالدوستانوف مصادر مطلعة في موسكو. ثم إن الروس بارعون بشكل استثنائي في إيجاد ذرائع لشرب الأنخاب.

- "هل لاحظت الأعلام؟ لم نعد نستخدم علم الاتحاد الروسي: نفكر في استبداله".

كنت قد لاحظت بالفعل أثناء العرض أن الدراجين كانوا يلوحون برايات إمبراطورية قديمة تحمل النسر ذا الرأسين، وهو أحد هواجس زالدوستانوف.

- "لم نعد جمهورية يا فاديا، لقد عدنا إمبراطورية مرة أخرى. نحن نغزو أراضي جديدة، ولدينا بالفعل قيصر يقودنا: جلالة الإمبراطور فلاديمير بوتين!"

شربنا نخباً آخر. وتابع زالدوستانوف:

- "أريد أن أشكرك على زيارتك يا فاديا. أردت حقاً التحدث إليك: أعتقد أن الوقت قد حان للتخطيط للمراحل القادمة".

كبتُّ ابتسامة. زالدوستانوف يريد التخطيط للمراحل القادمة: لا بد أن النسر ذا الرأسين قد نقد دماغه حتى أحدث فيه ثقوباً.

- "في هذه المرحلة، أعتقد أن لدينا خيارين. الأول والأفضل هو أن نفعل ما فعلناه في القرم. ننظم استفتاء، ثم في موجة من الحماس الشعبي، تصبح دونباس جزءاً من روسيا الأم مجدداً. يسجل القيصر فتحاً آخر يضاف إلى البقية، ونقترب خطوة أخرى من إعادة بناء الإمبراطورية الروسية..."

- "والثاني؟"

- "الخيار الثاني ليس بالجودة ذاتها. لكن إن تعذر الأمر بطريقة أخرى، نعلن استقلال جمهورية دونباس. تعترفون أنتم يا رفاق في موسكو بالدولة الجديدة، وكذلك قلة آخرون، ربما بيلاروسيا وتركمانستان. نشكل حكومة، وبرلماناً، ونضع رجالنا هناك، ثم ننسق الخطوات التالية بعد ذلك".

- "همم، أعتقد أننا سنضطر لاختيار احتمال ثالث يا ألكسندر".

نظر إليّ زالدوستانوف في حيرة.

تابعت:

- "عذراً، لكن يبدو أنك سبقت الأحداث".

- "عم تتحدث؟ أنا هنا على الأرض، وأخبرك فقط بما نحتاج لفعله لترسيخ نصرنا".

- "هذه هي النقطة بالضبط يا ألكسندر. نصرنا. أخشى أن هناك سوء فهم حول هذه النقطة".

نظر إليّ زالدوستانوف بعدائية مبهمة.

أكملت:

- "قادة الميليشيات المحلية لا يفهمون. إنهم يسعون وراء أهداف ساذجة، مثل النصر. لكنك لست بهذا الغباء يا ألكسندر، أليس كذلك؟ أنت تدرك أن الحرب عملية مستمرة، وأن أهدافها تمتد إلى ما هو أبعد بكثير من النجاح العسكري. الحقيقة هي أنه من المهم لنا ألا ننجح تماماً أبداً، وألا ندع غزوّنا يصبح نهائياً قط. ماذا ستفعل روسيا بمنطقتين جديدتين؟ استعدنا القرم لأنها كانت لنا، لكن دافعنا هنا مختلف. ما نهدف إليه ليس الغزو بل الفوضى. يجب أن يرى العالم أن (الثورة البرتقالية) أغرقت أوكرانيا في الفوضى. إذا ارتكبت خطأ الثقة بالغرب، فهذه هي النهاية دائماً. يتخلى عنك الغرب عند أول مطب في الطريق، وتُترك وحيداً تماماً للتعامل مع بلد مدمر".

وبلد تجتاحه جحافل البرابرة، كنت لأضيف ذلك. لكنني كنت لا أزال أحاول مراعاة مشاعر مضيفي.

- "هذه الحرب لا تدور في العالم الواقعي يا ألكسندر، بل في رؤوس الناس. أهمية أفعالك في ساحة المعركة لا تُقاس بعدد البلدات التي استوليت عليها، بل بعدد الأدمغة التي غزوتها. ليس هنا، بل في موسكو، وفي كييف، وفي

برلين. فكر في كل مواطنينا في روسيا الذين استعادوا، بفضلك، حساً بطولياً للحياة، وإيماناً بالصراع بين الخير والشر. فكر في مدى إعجابهم بالقيصر الذي يدافع عن قيمنا ضد نازيِّي أوكرانيا وانحلال الغرب. الشباب الروسي لم يعش فوضى التسعينيات، وكان لا بد لشخص ما أن يذكرهم بأن بوتين هو تجسيد الاستقرار وعظمة الوطن الأم. فكر أيضاً في الأوكرانيين الذين فهموا، بفضلك، أي خطأ ارتكبوه: كانوا يأملون أن تكون (الثورة البرتقالية) تذكرتهم إلى أوروبا، بينما أعادتهم فعلياً إلى العصور الوسطى، إلى الفوضى والعنف المستمر. وفكر في الغربيين الذين تعلموا، بفضلك، احترام روسيا والخوف منها مجدداً. ظنوا أن التاريخ قد انتهى، والآن يمكنهم أن يروا كم كانوا مخطئين. لم ننسَ معنى أن نكون رجالاً، أن نقاتل، أن نكون مستعدين للموت. نحن لا نخشى تلطيخ أيدينا. هناك فرق كبير بين العيش وبين محاولة عدم الموت. لقد نسوا ذلك، لكننا لم ننسَ. ونحن هنا لتذكيرهم يا ألكسندر".

- "وكل هذا بفضلك. بفضلك شخصياً وبفضل كل الأبطال الذين يخوضون الحرب في دونباس. لكن عليك أن تفهم أنكم ممثلون في دراما أكبر مما يحدث هنا، وتمتد أبعد بكثير من ساحة المعركة".

- "وإلى متى بالضبط؟"

رغم استخدامه للبلاغة لصالحه في كثير من الأحيان، أو ربما بسبب ذلك، كان زالدوستانوف دائماً محصناً ضد قوتها.

- "طالما ظل ذلك مفيداً لنا".

صمت زالدوستانوف للحظة.

- "تسميها دراما؟ تبدو لي أشبه بمهزلة يا فاديا. أتظن أنني لا أعرف ما يحدث؟ الناس هنا يتحدثون عن رحلاتك الصغيرة إلى كييف. نحن نعلم ما تحاول فعله. أنتم تستخدموننا كوسيلة لممارسة الضغط. تريدون لمنطقة

دونباس أن تظل جزءاً من أوكرانيا، لأنكم تستطيعون استخدامها لابتزاز الحكومة في كييف".

حاولت الحفاظ على رباطة جأشي، لكن فكرة أن يحشر هذا القرد أنفه في مسائل تتجاوز كفاءته بدأت تثير غضبي.

- "لن ينجح الأمر يا فاديا، ستفقدون السيطرة. رجالنا هنا لم يحملوا السلاح ليتركوك تلعب ألعابك السياسية الصغيرة في كييف. إنهم يقاتلون من أجل بلادهم، يريدون رؤية ولادة (نوفوروسيا). عندما يكتشفون أنكم تستخدمونهم كأوراق مساومة للتفاوض مع النازيين في كييف..."

- "نعم، ماذا سيحدث يا ألكسندر؟ أخبرني، لدي فضول لأعرف".

لم أستطع كبح جماح نفسي. لزم زالدوستانوف الصمت.

- "سأخبرك أنا: لا شيء على الإطلاق. يبدو أنك صدقت المسرحية التي عرضتها للتو. هل لي أن أسألك يا ألكسندر، من أين حصلت على المال لهذه (المهزلة)، كما اتفقنا على تسميتها؟"

عبس زالدوستانوف.

- "من موسكو".

- "والأسلحة، من أين تأتي؟"

- "من موسكو".

- "والعاهرات؟ حتى العاهرات يُرسلن إليك من موسكو حين نرى أنكم تستحقونهن. لذا، سيحدث أحد أمرين يا ألكسندر. إما أن تستمر في الاستمتاع بوضع الحظ السعيد الذي هبطت عليه بالمظلة، بفضلي بالمناسبة، أو أن تقرر أن الأمر، كلا، لم يعد يناسبك. وأنك أصبحت ألكسندر زالدوستانوف، شهيد (نوفوروسيا)، المناضل من أجل حرية الشعب. لكنني

أنصحك بالتفكير ملياً قبل أن تفعل، لأن الأمر لن يستغرق مني سوى دقائق لقطع الإمداد، وقد تتعقد الأمور بالنسبة لك بعد ذلك".

ملأ صمت متوتر، يشبه صمت صالات "الباكارات"، السقيفة التي كنا فيها. حدقت فينا صورة لـ ستالين وكاريكاتير لـ أوباما من على الجدران بلامبالاة مشتركة. كان زالدوستانوف يفكر، وعلى وجهه تكشيرة تركيز طفولية. ومن حين لآخر، كان يمرر يده بشرود على حزام الخراطيش الذي يرتديه للزينة. كان من الصعب معرفة ما إذا كان يتأمل كلماتي، أم يتحسس رصاصة تحمل اسمي، أم أنه ببساطة أثمل من أن يفعل أي شيء.

ثم نهض ببطء.

- "اتبعني يا فاديا".

خرج الدراج وقادني بصمت نحو بعض الأطلال بجوار الأرض الخالية التي اتخذتها الذئاب الليلية قاعدة لها. سرنا بمحاذاة صف من شاحنات القمامة البرتقالية التي حُولت إلى مركبات حربية، بعد تفريغ مقصوراتها الخلفية وتثبيت مدافع الهاون عليها. عن قرب، فقدت الأطلال مظهرها العام. كان بإمكانك تمييز بقايا أغراض منزلية وسط الركام: ثلاجة معوجة، مقبض باب، بعض الأقمشة الملونة. تسلق زالدوستانوف تلاً صغيراً ونبش الأرض بحذائه الضخم من ماركة "دكتور مارتنز" وكأنه يبحث عن شيء ما.

- "آه، دائماً ما تجد واحدة على الأقل"، قال وهو ينحني ليلتقط قطعة بلاستيكية وردية مغطاة بالتراب. "انظر إليها يا فاديا. لِمَ لا تأخذ هذه لابنتك؟"

في البداية، لم أتبين ماهية الشيء الذي يمده لي. وحين أخذته بيدي، أدركت أنها دمية. كانت بلا ذراع، وتساءلت عما إذا كانت قد فقدتها في الانفجار أم أن ذلك حدث قبل ذلك. هذا الشيء الصغير، المكسور والمتسخ، لا

بد أنه كان له اسم يوماً ما. ولا بد أن طفلة صغيرة قضت فترات ظهيرة كاملة تلعب بها.

لم أنبس ببنت شفة طوال رحلة الطيران العسكري التي أعادتني إلى موسكو. وحتى بعد عودتي إلى الكرملين، التزمت الصمت. إذا وُجه إليّ سؤال، أجبت، ولا شيء أكثر. لم تكن لدي رغبة في الجدال. كانت حججي وجيهة كعادتها، ومع ذلك، إلى هنا أوصلتني. كنت أنا صاحب الحلول العبقرية، ومع ذلك وجدت نفسي أشرح لقوزاقي مدجج بأحزمة الخراطيش أن عليه مواصلة القتال، ومواصلة قصف المستشفيات والمدارس، حتى لو لم تكن لديه رغبة في ذلك، وحتى لو لم يكن هناك سبب، لأن هذا ما تقتضيه الخطة الدقيقة التي ابتكرها عقلي الدقيق.

الأفضل أن أبقى صامتاً. والأفضل من ذلك أن أتوقف عن التفكير. بعد تجريدها من افتراضاتي، ظهرت الحقيقة كما هي. إمبراطورية القيصر ولدت من رحم الحرب، وكان منطقياً أن تعود في النهاية إلى الحرب. كانت الأساس الراسخ لسلطتنا، وخطيئتها الأصلية. وإذا فكرت في الأمر، هل تجاوزناها يوماً؟ لم يكن للأمور أن تكون مختلفة قط. عرفت هذا منذ البداية، واخترت مرافقة بوتين في هذا الطريق. لم أفعل ذلك عن قناعة ولا لمصلحة شخصية. فعلته بدافع الفضول. لأختبر نفسي. ولأنه، في النهاية، لم يكن لدي شيء أفضل لفعله. قلت لنفسي إنه دافع أفضل مما لدى معظم أتباعه الآخرين: الجشع، الإحباط، الحاجة للانتقام، التعصب، والرغبة في الهيمنة على الآخرين. ربما لن أغير العالم للأفضل، لكنني سأمنع الآخرين من التدخل وجعله أسوأ. لم تسر الأمور بهذه الطريقة تماماً.

كانت الحرب في أوكرانيا مثل كل شيء آخر. لم أكن أنا من أرادها. في الواقع، عبرت عن معارضتي الشديدة لها. لكن بعد ذلك، بعد أن اتخذ القيصر

قراره، فعلت كل ما في وسعي لإنجاح الحرب. بحكم العادة. وبدافع الكبرياء. ولأنني أستطيع. هكذا كان الحال منذ البداية. مع تفجيرات موسكو وحرب الشيشان. مع اعتقال خودوركوفسكي وسقوط بيريزوفسكي. لم أرد لأي من هذه الأشياء أن تحدث. لكنها جميعاً استفادت من جهودي التي لا تكل. لم أستطع تحمل فكرة الخسارة. وكنت محظوظاً، فقد فزت في أغلب الأحيان تقريباً.

والآن، أحمل أخيراً الجائزة التي أستحقها: دمية، ملطخة بالتراب والأنقاض، لن أعرف اسمها أبداً.

(28)

ظهر وجه سيتشين المربع تماماً في فتحة باب مكتبي.

- "هل لي أن أزعجك للحظة يا فاديم أليكسييفيتش؟"

إذا تجشم إيغور عناء المجيء لرؤيتي، فلا يمكن إلا أن يكون ذلك لنقل أخبار سيئة للغاية. سلك طريقاً ملتوياً، سائلاً عن رحلتي إلى دونباس، وكأن ثلاثة أجهزة استخبارات على الأقل لم تكن قد زودته بالتفاصيل بالفعل. ثم، وهو يثبت نظره عليّ بعيني طائر جارح ليلي:

- "بالمناسبة يا فاديم أليكسييفيتش، لقد سمعت عن الأمريكيين، أليس كذلك؟"

- "ما بال الأمريكيين؟"

- "يبدو أنهم أعدوا قائمة بأشخاص لن يُسمح لهم بعد الآن بوطء أرض الولايات المتحدة. واسمك مدرج فيها".

راقبني سيتشين بعناية، باحثاً عن أدنى بادرة ضيق.

- "أخشى أن عليك نسيان نيويورك في الوقت الحالي".

- "أوه، العقوبات بسبب أوكرانيا. إذن قرروا المضي قدماً في ذلك؟"

- "بدءاً من الاثنين".

بدا "التشيكيست" راضياً. حقيقة أن اسمي كان في القائمة صنعت يومه.

من الواضح أن الأمر كان مزعجاً بعض الشيء. لم تكن نيويورك فحسب. كانت هناك كاليفورنيا أيضاً، ومين، وبولدر في كولورادو. المنع من دخول الأراضي الأمريكية سيحشمني من ملذات لا يملك سيتشين أدنى فكرة عنها.

- "أوه، وسمعت شيئاً آخر أيضاً".

عند هذه النقطة، اكتسى وجه إيغور بتعبير شارد تعلمت تمييزه. كانت تلك النظرة التي يرتديها حين يبلغ أقصى درجات التركيز. كان على وشك أن يلحق بي الألم حقاً.

- "اسمك مدرج أيضاً في القائمة الأوروبية".

الوغد. لهذا تكبد عناء المجيء لإخباري شخصياً: أراد رؤية وجهي في اللحظة التي أعرف فيها أنني فقدت أوروبا. في الأساس، فكرت، هذا الرجل لا يعرف شيئاً عني سوى كيفية إيلامي.

بدأت كتلة صخرية عملاقة بالسقوط داخلي. قطعة من صخرة الأساس. انفصلت لتوها عن صدري وهي الآن تهوي عبر الفضاء. في الداخل. كانت تسقط في الظلام دون أن تلامس القاع أبداً. أوروبا. شيء لا يمكن تصوره. أنا، محروم من أوروبا، هل تفهمون؟ استنفرت كل ما أملك من قوة لأحرم سيتشين من أدنى شعور بالرضا.

- "لا بأس، كنت أخطط للبدء في استكشاف أماكن جديدة على أية حال. لكن ماذا عنك يا إيغور، وقلعتك في أومبريا؟"

كانت تلك القلعة قرة عينه.

فجأة تجرد وجه سيتشين من أي تعبير، علامة على شعوره بانفعال شديد.

- "باه، مجرد كومة حجارة قديمة، في الواقع. أنا أبني نسخة طبق الأصل منها حالياً، في القوقاز".

استدار "التشيكيست" على عقبيه. لقد أنجز مهمته. من جانبي، لم يكن لدي خيار كبير. رفعت سماعة الهاتف وأمليت بياناً للسكرتير الصحفي ليُنشر لحظة إعلان العقوبات: «أعتبر هذا أوسكاراً، تتويجاً لمسيرتي السياسية. إنه دليل على أنني خدمت بلادي بشرف».

ثم طلبت رقم المنزل الأرضي. لم تكن كسينيا تملك هاتفاً محمولاً، بالطبع، لكن لحسن الحظ لم تكن قد خرجت في ذلك الصباح. رتبت للقائها في المطار.

بعد بضع ساعات، هبطنا في مدينتي المفضلة لقضاء عطلة نهاية أسبوع أوروبية أخيرة. وبينما كنا نقود السيارة نحو الفندق، راقبنا الموكب المهيب للمباني ذات الطوب الأحمر التي تصطف على جانبي شوارع ستوكهولم. هنا، لا يتحول الثلج إلى وحل أسود كما في موسكو، بل يظل أبيض بشكل لا يمكن تفسيره، وكأن السويديين قد حلوا هذه المشكلة أيضاً، إلى جانب مشكلات أخرى كثيرة. كان الناس يمشون على الأرصفة كما تفعلون أنتم الأوروبيون، بلا عجلة ولا خوف. وحوالي الساعة الرابعة، حين استسلمت شمس الشتاء المتعبة أخيراً، أصبحت عظمة الواجهات المتعالية قليلاً والمطلة على سطح البحر المتجمد أكثر ودية، وقد لانت فجأة بفعل سحر ألف نافذة مضيئة تُضاء واحدة تلو الأخرى.

الإضاءة من الأسفل، فكرتُ، هذا هو الفرق الحقيقي. في روسيا، تكاد مصابيح الطاولة والمصابيح الأرضية تكون معدومة. عندما تتجول حتى في أرقى أحياء موسكو أو سانت بطرسبرغ، ما ستراه هو الأشعة التي لا ترحم للمصابيح السقفية تسطع من الأعلى. الإضاءة السقفية عملية. ما عليك سوى ضغط مفتاح واحد لتغمر الغرفة بأكملها بنفس الضوء الوحشي والموحد. وهي تعمل بشكل جيد مع التلفزيون، إذ لا يوجد انعكاس على الشاشة وتتناغم النغمة مع الوهج المزرق للجهاز.

أما المصابيح الصغيرة المنخفضة، من ناحية أخرى، فليست عملية. عليك إضاءتها واحدة تلو الأخرى، ويتطلب الأمر ثلاثاً أو أربعاً منها على الأقل لتوليد قدر من الضوء يعادل مصباحاً سقفياً واحداً. لكن تلاعب الظلال على الجدران والأثاث يخلق جواً مواتياً للمحادثة وقراءة الكتب القديمة، ولنيران الحطب وموسيقى الحجرة. وكلها أشياء، حتى في بلادكم، جرفتها شاشات الهواتف المحمولة. لكن المصابيح الفردية تحافظ على الوهم على الأقل. يمكنك النظر من الخارج إلى هذه الغرف المضاءة بنعومة، والمغمرة في ضوء مُصفى، وتصدق أن الناس الذين يعيشون هناك يقضون وقتهم في سرد القصص الخيالية - وهي رفاهية لم يسمح الروس لأنفسهم بها قط.

محاولة تخيل كيف ستكون الحياة في أحد هذه المنازل كانت دائماً انحرافاً يراودني. في غضون يومين، ستدخل العقوبات حيز التنفيذ، وسيتحول الخيال إلى استحالة. نفي معكوس، وهو أسوأ عقاب ممكن لشخص مثلي.

في تلك اللحظة، تذكرت بيريزوفسكي، وسنواته الأخيرة في لندن. لم يستطع أبداً تخليص نفسه من روسيا. لم يكن يهمه شيء حقاً سوى المتعة الحقيقية الوحيدة للحياة الروسية: النظر إلى الواقع وجهاً لوجه، دون فلترة، في الضوء الخام لمصباح سقفي. كنت سأستطيع التخلي عن روسيا، لو كنت مكانه. لو كنت أعيش في لندن. أو في أي مكان آخر في أوروبا، في هذا الصدد. كان بإمكاني العيش في أحد تلك المنازل في الضواحي، ببوابة حديدية صغيرة ودرجتين تؤديان إلى الباب الأمامي. كنت سأملأه بالكتب، وأعثر على المقهى الجيد القريب، وبار يمكنني شرب "الويسكي" فيه مساءً. كنت سأخرج في المشيّة نفسها كل يوم تقريباً، متذكراً روسيا من حين لآخر كأم تلتهم أطفالها. التهمت جدي وأبي، لكنها لم تكن لتلتهمين. كنت سأنجو منها، وأُنقذ. أو لا. كان الأوان قد فات بالنسبة لي على أية حال. لكن ابنتي ستُنقذ. روسيا لن تنال منها.

لم تسر الأمور على هذا النحو، وكان عليّ مواجهة الحقائق. حان الوقت لأتخلى عن وداعة أوروبا، وعن ضوء مصابيحها الخافت الذي يخفي قسوة العالم. كنت أعرف دائماً، في مكان ما في الأعماق، أن هذه اللحظة ستأتي. منذ التقت عيناي بعيني القيصر لأول مرة. لم يكن في نظرته شيء أوروبي، ولا شيء ناعم. مجرد تصميم، وحاجة لا تقبل المعارضة.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا في جناح صغير في فندقي المفضل، نوع من المنازل الريفية الجاثمة على جزيرة وسط ستوكهولم. تناولنا الإفطار على السطح الخشبي الصنوبري، مواجهين سطح البحر المعتم. في البعيد، منحتنا رافعات الشحن في الميناء التجاري لمحة عن عالم نشط ومضطرب، لم يصلنا منه سوى صدى غامض، غرق على أية حال في حزني وكسل كسينيا.

نظرتُ إلى حياتي وكأنني غواص حر. كنت أراها تلمع على السطح، لكنني لم أعد قادراً على التنفس. مرت عشرون سنة منذ تنفست آخر مرة. ليس لأن تلك السنوات مرت بسرعة. لا، كان لدي انطباع بأنني عشت ألف حياة. لكنني لم أتنفس، ولا للحظة واحدة. كنت أحبس أنفاسي. والآن بدأت أرى وجهتي بعيداً في المسافة. تلك النقطة النهائية حيث لا تعود هناك حاجة للاختيار، لأن كل الخيارات قد اتُخذت وما تبقى مجرد شكليات.

كنت قد خططت لقضاء اليوم في ندب حظي. ظننت أنني استحققت ذلك. لكنني لم أحسب حساب ذكاء كسينيا الشرس بجانبي. حتى الآن، وهي تميل لصالحي، كانت لا تزال تمثل تهديداً. لم تكن لتسمح لي أبداً بالكذب على نفسي.

كنا نمشي بمحاذاة البحر، في جزيرة "ديورغاردن". حين غادرنا الفندق قبل ساعة، كنا نتنزه متشابكي الأذرع، نتجاذب أطراف الحديث، لكن الصمت

استقر حولنا منذ ذلك الحين، وبات يغلف كل إيماءة من إيماءاتنا. وحدها أنفاسنا كانت معلقة في الهواء، والريح المحملة برائحة الغابات العميقة المكسوة بالثلج.

مشيت وحدي، غارقاً في أفكاري، وتبعتني كسينيا بضع خطوات إلى الوراء. أمامنا، بين أشجار البتولا، كان هناك منزل برتقالي اللون. بنوافذه الصغيرة ومداخنه الرمادية الضخمة، بدا نوعاً ما كمنزل الساحرة الطيبة. من لا يعيش هناك، قلت لنفسي، فقد فاتته الحياة بوضوح.

خلفي، سمعت فجأة صوت تلاطم الماء. التفت، متوقعاً نصف توقع أن أجد بجعة تسبح عكس الموج. بدلاً من ذلك، رأيت كسينيا، مغمورة بالكامل في البحر الجليدي، تبتسم لي وتحدٍّ يطل من عينيها. شكلت ملابسها المخلوعة على عجل بقعاً متعددة الألوان على الثلج.

نظرنا إلى بعضنا للحظة طويلة - أنا، بملابسي الكاملة على الشاطئ، وهي، عارية تماماً في الماء. كانت عيناها عميقتين كأسئلة لا إجابة لها، لكن فمها رسم ابتسامة. بدأت أخلع ملابسي بدوري. القبعة الرمادية المبطنة بالفرو. الحذاء الإنجليزي الأسود الذي يرافقني في كل مكان. البدلة والسترة ذات الياقة العالية الداكنة. راقبتني كسينيا من البحر، لكن قبل أن أقفز مباشرة، استدارت وبدأت تسبح نحو المياه المفتوحة. مرة أخرى، تملّكني الخوف. إلى أين كانت ذاهبة؟ حاولت مناداتها. هل نسيت أنها حامل؟

لم تكن لديها نية للاستماع إليّ. خياري الوحيد كان اللحاق بها. قفزتُ محدثاً جلبة. كان نقيض الارتطام غير المحسوس لـ كسينيا بالماء. ربما صرخت - الاستحمام في الماء الجليدي لم يكن يوماً نقطة قوتي. بدأت السباحة غريزياً، لمنع نفسي من التجمد في مكاني بقدر ما هو للحاق بـ كسينيا. كانت قد توقفت على بعد حوالي خمسين ياردة من الشاطئ وكانت تنتظرني. وحين أوشكت على الوصول إليها، ظننت أنها ستنطلق مجدداً. لكن لا، انتظرتني

حتى أصل. وهناك، بينما كنت أضم جسدها المضيء إلى جسدي في الماء المظلم، قرأت لأول مرة في عينيها الجلال الكامل للسر الذي ينمو بداخلها. كانت الحرية الشرسة وغير المحدودة هدفها الأوحد، الذي كانت مستعدة سابقاً للخضوع لأحط أنواع العبودية من أجله. لكن في الوقت الحاضر، لا شيء يمكنه أن يحيد بها عن المسار الذي رسمته لها النجوم، ورغم أنها كانت أقسى حتى من ذي قبل، إلا أن حناناً جديداً قد نضج في صدرها، شعرت أنه ليس مقدراً لأحد سواي. تساقطت عني كل الأحاسيس الأخرى عند هذه النقطة، كفاكهة ناضجة تسقط من شجرة، ووحيداً في أعمق جوهر لكياني، بقي تبجيل لروعة الحياة المجهولة التي تنبض أمامي. وللمرة الأولى منذ سنوات، بينما كان الجليد يضغط علينا من كل جانب والتيار يهدد بجرفنا، انتابني شعور بالقدرة على التنفس مرة أخرى.

(29)

قد تفضي الألفة إلى سوء التقدير. لسنوات طويلة، عاش ستالين وبقية رجال النخبة (النومنكالتورا) في الكرملين جنبًا إلى جنب. امتلكوا جميعًا شققًا واسعة كانت تعود يومًا لكبار موظفي القيصر، ودأبوا على تناول العشاء معًا. كان ستالين يبحث عنهم للعب الشطرنج أو لترتيب عشاء صغير بين الأصدقاء. لم يكن يتصدر المائدة، بل يجلس عند طرفها، وإذا استدعى الأمر إحضار شيء من المطبخ، كان ينهض بنفسه لجلبه. كانت هناك قاعة سينما صغيرة، وكان الأطفال يركبون دراجاتهم ويركلون الكرة في الجوار. لقد نشأوا معًا، وكأنهم عائلة واحدة.

لم يمنع هذا ستالين من تصفيتهم واحدًا تلو الآخر. بل في الواقع، سهّل ذلك مهمته. لم يصدق أحد أن "كوبا"، كما كانوا يسمونه، قد يأمر باعتقالهم وتعذيبهم وقتلهم. لقد أضلهم القرب. توهموا أن صداقة عشرين عامًا ستمنع القائد من فعل ما عليه فعله. لكن الأمور لا تسير على هذا النحو. القائد يتبع حدسه، ويمتلك غريزة الوحش المفترس من أجل البقاء. وفي التحليل الأخير، الشيء الوحيد الذي يضمن بقاءه هو موت كل من حوله.

أما في حالتي، فقد غادرتُ أولًا. لم أسمح لنفسي بأن تخدعني الألفة. ثقة الأمير ليست امتيازًا بل حكم بالإعدام: عندما يودع رجل سره رجلًا آخر، فإنه يصبح عبدًا له، والحكام لا يرتضون العبودية. الرغبة في تحطيم المرآة التي تعكس صورتنا هي شعور شائع بما فيه الكفاية. كما أن الأمير قد يرد الجميل

في الخدمات الصغيرة، ولكن حين تتعاظم الخدمات ويعجز عن ردها، قد يميل لحل المشكلة عبر إزالة السبب من أساسه.

لم يكن القيصر يكنّ عاطفة للآخرين؛ في أحسن الأحوال كان يعتاد عليهم. وفي مرحلة ما، فقد عادة رؤيتي. في منزله الريفي (الداتشا) في نوفو-أو غاريوفو، أمر بإخلاء الغابة لمسافة ثلاثة كيلومترات في كل اتجاه. كان يستيقظ متأخرًا، ويفطر على بيض طازج يرسله له البطريرك كيريل، ثم يتدرب في صالته الرياضية وهو يتابع الأخبار على الشاشة. وإذا كان ثمة أمر عاجل، فإنه يقرأ التقارير السرية ويصدر تعليماته هناك. بعد ذلك، يسبح مسافة كيلومتر في المسبح. وكان الزوار الأوائل لليوم - وزراء، أو مستشارون، أو رؤساء شركات استُدعوا في الليلة السابقة - ينتظرون بصبر على حافة المسبح حتى يخرج القيصر من الماء ليناولوه رداءه ويناقشوا معه بإيجاز مسألة أو أخرى.

لم يكن الموكب الرئاسي يتجه إلى الكرملين إلا في وقت مبكر من بعد الظهر. كانت الشوارع تُغلق قبل نصف ساعة من الموعد، وتضمن سيارة شرطة عند كل تقاطع ألا تُخترق عزلة القيصر. في الطريق من نوفو-أو غاريوفو إلى الكرملين، كان بوتين يقطع العاصمة بأكملها تقريبًا، والتي كانت تتجمد وتتوقف عن الحركة أثناء مروره. يبدأ يوم العمل الحقيقي لحظة وصوله المكتب، وغالبًا ما يستمر حتى تباشير الفجر الأولى. كانت حياة القيصر برمتها منفصلة زمنيًا عن حياة الناس العاديين، وكان لهذا أثر مشوّه على كل من عمل معه. رجل واحد لا ينام في الليل، وقد روض كل من لهم وزن في موسكو ليشاركوه سهره حتى الثالثة أو الرابعة صباحًا. ولعلمهم بعادات القائد الليلية، كان نحو مئة من الوزراء وكبار المسؤولين والجنرالات يبقون متيقظين بانتظار مكالمته. وكان كل واحد منهم يحتفظ بكتيبة صغيرة من المساعدين والسكرتيرات على أهبة الاستعداد. وهكذا ظلت الأضواء في

الوزارات مشتعلة، وفقد أقوياء موسكو نومهم مرة أخرى، كما كان الحال في زمن ستالين.

الواجب الحقيقي الوحيد في البلاط هو الحضور. أن تكون موجودًا، دائمًا، كلما لاحت ولو احتمالية ضئيلة بأن تقع نظرة السيد عليك. من جانبي، لم أذهب قط إلى نوفو-أو غاريوفو بقلب منشرح. كان الجو "الرياضي" المقيت هناك يصيبني بالحزن. وفي كل مرة سنحت لي الفرصة، كنت أرتب ليذهب شخص آخر مكاني، والله يعلم أنه لم يكن هناك نقص في المرشحين! بعد عودتي من ستوكهولم، لم أكد أطأ بقدمي هناك مرة أخرى. واعتدت الذهاب للفراش ليلًا عندما أشعر بالتعب دون أن أعبأ بترك هاتفي مفتوحًا. أمر القيصر رئيس الحرس الرئاسي بسحبي من السرير مرة أو مرتين. لكن كان من الواضح أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال. وجد القيصر أنه من غير المحتمل ألا يكون القرب منه مصدر كل أفراحي.

في أحد الأيام، في الكرملين، وخلال اجتماع وجدت نفسي فيه كالعادة ضمن الأقلية، رماني القيصر بنظرة من اللامبالاة التامة، وكأنني غير موجود.

– "تظن أنك أذكى الجميع يا فاديا. لكن هل تعلم ما هي الحقيقة؟ إذا بقيت شابًا لفترة أطول من اللازم، ينتهي بك الأمر بأن تشيخ بشكل سيء."

كان محقًا. الأربعون سن لا ترحم. كل شيء ينكشف، ولا يمكنك الاختباء بعد الآن. الحقيقة هي أنني حتى عندما اقتربت من قمة السلطة، لم أتوقف أبدًا عن كوني شخصية هامشية. في الأساس، أعتقد أن الأمر يعود لمكتبة جدي مرة أخرى. جعلتني أدرك أنني لست في مركز الزمن. عصرنا، مهما كان مثيرًا، ليس سوى النسخة المليون من المسرحية التي تكشفت تنويعاتها العديدة على مر القرون.

- "بين الفينة والأخرى، ينهض رجل في العالم، ويستعرض حظوته، ويعلن: (إنه أنا!). يعيش مجده لمدة حلم منقطع، وسرعان ما ينهض الموت ويعلن: (إنه أنا!)."

دون أن تطأ قدماه المكان، وقبل ثلاثة قرون، وصف لا برويير كرملين اليوم بدقة تفوق دقة أفضل صحفيينا، أو صحفييكم. لولا معرفتي به، لما تمكنت أبدًا من إنجاز العمل الذي قمت به. كنت سأبقى على السطح. كانت مساهمتي في قضية القيصر ستكون أقل فاعلية، وأقل حسمًا، إن جاز لي القول. لكن ذلك كان أيضًا ما أدى في النهاية إلى إدانتي لنفسي. فجأة، رأيت حياتي كما هي في الواقع: صراع لا ينتهي مع ملاك الإهمال، والوحشية غير المبررة، والشهية التي لا يمكن كبحها. عشرون عامًا في خدمة ذلك. كان يمكن أن تكون عشرين يومًا، أو عشرين دقيقة. الأمر سيان.

لو كنت واحدًا من "الشلة"، لقلت لمَ لا. لكني كنت دائمًا دخيلًا. عندما كنت صبيًا، كان جدي يحدثني أحيانًا عن تلك الذئاب التي تترك القطيع دون سبب ظاهر. تمضي في طريقها الخاص، وحيدة. بعضها ينتهي بتشكيل قطيع جديد. والبعض الآخر لا. تجوب الغابة أو تعبر السهوب، وحيدة دائمًا. ولا يبدو أنها تعاني من عزلتها. تعيش حياتها منفصلة، ومع الوقت تطور عاداتها الخاصة، المختلفة عن عادات القطيع. تعلم الصيادون الحذر منها. يعرفون أن الذئاب المنفردة أقوى وأذكى وأكثر عدوانية من غيرها.

من الواضح أن جدي اعتبر نفسه واحدًا منها. ومن يدري، ربما هي صفة وراثية متنحية، قدرها أن تعاود الظهور جيلًا بعد جيل. الشيء المؤكد هو أنها ليست صفة يرضى عنها القطيع؛ يمكنهم قبول أي شيء إلا الاستقلال. لاحقًا، قيلت عني كل أنواع الأشياء. قيل إنني مصاب بالغرور. وإنني ضُبطت ويدي في الخزنة. بل قيل إنني أردت أخذ مكان القيصر. بالنسبة للبعض، الافتراء هو الشكل الوحيد للمخيلة.

الحقيقة هي أنني تآمرت دائمًا لصالح السلطة، لا ضدها أبدًا. تلك هي طبيعتي، وهو أمر لا يفهمه الكثيرون. صحيح أن من بين المحيطين بالأقوياء يوجد دائمًا من يريد أخذ مكانهم. لكن المستشار الحقيقي من طينة مختلفة عن رجل السلطة. الحقيقة هي أن المستشار كسول. كلماته، حين تُهمس في أذن الحاكم، تحقق أقصى تأثير دون أن يضطر لإرهاق نفسه في الصعود عبر المراتب. وبعد أن يقول ما لديه، يعود سعيدًا إلى مكتبته، بينما تستمر الوحوش الضارية في تمزيق بعضها البعض تحت سطح الماء. لديه شظية من الجليد في قلبه: كلما زادت سخونة الآخرين، زاد هو برودة. قد ينتهي الأمر أحيانًا بشكل سيء، لأن أكثر ما يزعج الأقوياء هو الاستقلالية. لكن عندما قدمت استقالتي، كان لدى القيصر أمور أخرى تشغل باله. أعتقد أنه نظر للأمر بارتياح: لم يعد بحاجة إليّ. ابتكار نظام حكم جديد يتطلب مستوى معينًا من الخيال، لكن تنفيذه لا يتطلب سوى التفاني الأعمى للخادم.

لم يحل أحد محلي. كانت كلبة "اللابرادور" المستشار الوحيد الذي وثق به بوتين تمامًا. كان يأخذها للركض في أراضي الداتشا ويحضرها معه إلى المكتب. عدا ذلك، كان القيصر وحيدًا تمامًا. من حين لآخر، يظهر حارس، أو خادم، أو رجل حاشية استُدعي لسبب أو لآخر. هذا كل شيء. لم تكن هناك امرأة بجانبه، ولا أطفال. أما الأصدقاء، فقد كان يعلم أنه في المرحلة التي وصل إليها، فكرة وجود أصدقاء بحد ذاتها ضرب من الخيال. عاش القيصر في عالم يتحول فيه حتى أعز الأصدقاء إلى رجال حاشية أو أعداء ألداء، وغالبًا ما يكونون الاثنين معًا في آن واحد.

في الغرب، قادتكم مثل المراهقين، لا يطيقون الوحدة، يريدون دائمًا شخصًا ما ليراهم. ينتابك انطباع بأنهم لو اضطروا لقضاء يوم كامل في غرفة، محرومين من الصحبة، لتبخروا في الجو مثل نفحة هواء دافئ. أما قيصرنا، في المقابل، فيعيش في العزلة ويزدهر بها. التأمل هو ما يمنحه القوة التي تفاجئ

الكثير من مراقبيكم. مع الوقت، أصبح أشبه بعنصر من عناصر الطبيعة، كالسماء أو الرياح. لقد نسيتم ما يعنيه العيش كشخص بالغ، راسخ في الواقع. تظنون أن القائد هو نوع من "عريف الحفل"، تريدون قادة يشبهونكم، على مستواكم. المسافة تحفظ الهيبة. مثل الإله، يمكن للقيصر أن يثير الحماس في الآخرين، لكنه لا يمكن أبدًا أن يشعر بالحماس بنفسه؛ طبيعته بالضرورة هي اللامبالاة. وقد اكتسى وجهه بالفعل بشحوب الخلود الرخامي.

في هذا المستوى، تجاوزنا بكثير الرغبة في جنازة فخمة التي تحدثت عنها سابقًا. المثل الأعلى للقيصر سيكون أقرب إلى مقبرة يقف فيها وحيدًا، منتصبًا، الناجي الوحيد بين جميع أعدائه وحتى جميع أصدقائه وأقاربه وأطفاله. حتى كوني، ربما. وكل المخلوقات الحية الأخرى.

"تمنى كاليغولا لو أن للبشرية كلها رقبة واحدة، ليتمكن من إفناء العالم بضربة واحدة."

السلطة في حالتها الخام. هذا ما أصبح عليه القيصر. أو ربما كان هكذا منذ البداية. العرش الوحيد الذي سيمنحه السلام هو الموت.

(30)

روسيا هي آلة الكوابيس بالنسبة للغرب. في نهاية القرن التاسع عشر، حلم مثقفوكم بالثورة. ونحن قمنا بها. لم تفعلوا أنتم أكثر من الحديث عن الشيوعية. أما نحن فعشناها سبعين عامًا. ثم جاء عصر الرأسمالية. وحتى في ذلك، ذهبنا أبعد منكم بكثير. في التسعينيات، لم يقم أحد بإلغاء القيود، أو الخصخصة، أو إفساح المجال للمبادرة الريادية أكثر منا. هنا بُنيت أضخم الثروات، بدءًا من الصفر، وبلا قواعد أو حدود. آمنا بذلك حقًا، لكنه لم ينجح.

والآن، يبدأ الأمر من جديد. نظامكم في خطر لأنكم لم تعودوا قادرين على ممارسة السلطة. صدقني، كشخص خبر السلطة بشكل مباشر، لا أكن لها الكثير من المودة. كان جدي يقول إنه يجب على شخص ما جمع كل تماثيل الفروسية من كل مدن العالم وإرسالها إلى وسط الصحراء، إلى موقع مخصص لمرتكبي المذابح عبر التاريخ. لطالما شعرت أنه محق، وأستطيع أن أخبرك أن السنوات التي قضيتها في الكرملين لم تغير رأيي. بل العكس تمامًا.

اليوم، ومع ذلك، السلطة هي الحل الوحيد، لأن هدفها، هدف كل سلطة فاعلة، هو "إلغاء الأحداث". قال كوستين: "الذبابة، إذا طارت في غير وقتها خلال مراسم رسمية، تهين القيصر." حتى أصغر حدث يقع خارج سيطرة السلطة يمكن أن يعني موتها، أو احتمالية موتها.

الطبيعة البشرية نهمة للأحداث. تترقبها، وتشتهيها، حتى لو بدت خائفة منها، لكن من الواضح أن هذا ذوق لم يعد بإمكاننا الانغماس فيه. لأن اليوم، أي حدث، حتى طنين ذبابة تافه، يمكن أن يشعل "هرمجدون". كان الفيروس مجرد بروفة لذلك، لكنه كان البداية فقط. من الآن فصاعدًا، سيبدأ سباق بين الأحداث وبين السلطة. وبما أن الأولى ستثير دائمًا احتمالية نهاية العالم، سنكون مجبرين على اختيار الثانية. ليس ذلك النوع من أشباه السلطة الذي لديكم في الغرب: أقنعة مهرجين يمثلون نصًا تراجيديًا. لا، بل السلطة العائدة إلى أصولها البدائية: الممارسة الخالصة للقوة. التمثال الرخامي الذي يحمي بيد ويهدد بالأخرى.

حتى الآن، كانت السلطة دائمًا ناقصة. لأنها اضطرت للاعتماد على العامل البشري لتحقيق وعودها. والإنسان ضعيف، دائمًا.

في كل ثورة توجد لحظة حاسمة: تلك اللحظة التي تتمرد فيها القوات على الحكومة وترفض إطلاق النار. إنه كابوس بوتين، كما كان كابوس كل القياصرة قبله. الخطر المتمثل في أن القوات، بدلًا من إطلاق النار على الحشد، ستنضم إليهم، هو التهديد الدائم الذي يلوح فوق كل سلطة. ولهذا السبب، عندما بدأ الطلاب باحتلال "ساحة تيانانمن"، اختار دنغ شياو بينغ بحكمة عدم الرد فورًا. كان يعلم أنه على حافة الهاوية. لم يرد المخاطرة بتعريض قواته للمتظاهرين بشعاراتهم، وهتافاتهم، وفتياتهم الجميلات اللواتي يغازلن الجنود. فضل الانتظار، واستدعاء جنود من أنحاء البلاد لا يتحدثون "الماندرين"، حتى لا يتمكنوا من التآخي مع المتظاهرين. استغرق وصول تلك القوات عدة أيام، لكن عندما وصلوا، كانوا قساة لا يرحمون.

والآن، لنتخيل سلطة لم تعد بحاجة للاعتماد على التعاون البشري. أمنها - وقوتها العسكرية - مضمونان بأدوات غير قادرة على التمرد عليها. جيش من أجهزة الاستشعار، والطائرات المسيرة، والروبوتات القادرة على الضرب في

أي لحظة، دون أدنى تردد. تلك، أخيرًا، ستكون السلطة في شكلها المطلق. طالما أنها قائمة على تعاون رجال من لحم ودم، فإن كل سلطة، مهما كانت قبضتها حديدية، تظل معتمدة على موافقتهم. لكن بمجرد أن تعتمد على الآلات لحفظ النظام وفرض الانضباط، ستتحرر من كل القيود.

مشكلة الآلات ليست أنها ستتمرد على أسيادها البشر، بل أنها ستنفذ أوامرهم بالحرف.

من المهم دائمًا النظر إلى مصدر الأشياء. كل التقنيات التي ظهرت فجأة في حياتنا في السنوات القليلة الماضية لها أصل عسكري. طُورت أجهزة الكمبيوتر خلال الحرب العالمية الثانية لفك شفرات العدو. صُمم الإنترنت كوسيلة اتصال في حال نشوب حرب نووية، وبدأ نظام تحديد المواقع (GPS) كطريقة لتحديد مواقع الوحدات القتالية، وهلم جرًا. كلها تقنيات مخصصة للقيادة والسيطرة، لا للحرية. وحدها حفنة من سكان كاليفورنيا المنتشين بعقار الهلوسة يمكن أن يكونوا حمقى بما يكفي للاعتقاد بأن أداة اخترعها الجيش يمكن تحويلها إلى أداة للتحرر. ومع ذلك، صدق الكثيرون منهم ذلك بالضبط.

لكن في هذه النقطة الأمر واضح، أليس كذلك؟ أنت تراه أيضًا. الحقيقة هي أن التكنولوجيا العسكرية المحيطة بنا قد خلقت الظروف للتعبئة الشاملة. الآن، أينما كنا، يمكن التعرف علينا، واستدعاؤنا للنظام، وتحييدنا إذا لزم الأمر. الفرد المنعزل، والإرادة الحرة، وحتى الديمقراطية، كلها أصبحت بالية. حولت زيادة البيانات البشريةَ جمعاء إلى جهاز عصبي واحد، آلية مكونة من تكوينات معيارية قابلة للتنبؤ، مثل سرب ضخم من الطيور أو مدرسة من الأسماك.

نحن لسنا في حرب بعد، لكننا "معسكرون" بالفعل. كان هذا حلم السوفييت. لطالما كانت دولتنا قائمة على التعبئة. كنا أمة تأسست بالكامل على فكرة الحرب، على الدفاع عن الوطن ضد الهجمات المحتملة من الخارج. كل التضحيات، وكل الانتهاكات العديدة للحرية، بُررت على هذا الأساس: الدفاع عن حرية أكبر، حرية الوطن الأم. في الخمسينيات، وضع الـ (KGB) خطة لأرشفة جميع اتصالات كل مواطن سوفيتي. كان هاتف "الفيرتوشكا" الخاص بوالدي رمزًا لذلك. لكن "فيسبوك" ذهب أبعد من ذلك بكثير. تجاوز طاقم "وادي السيليكون" أحلام البيروقراطيين السوفييت القدامى بمراحل. لا حدود للمراقبة التي تمكنوا من وضعها. بفضلهم، أصبحت كل لحظة في حياتنا مصدرًا للمعلومات.

اعتاد النازيون القول إن الشخص الوحيد في ألمانيا الذي لا يزال فردًا له خصوصية هو الشخص النائم، لكن "وادي السيليكون" تفوق عليهم أيضًا. التغيرات الفسيولوجية التي يمر بها الناس، حتى في نومهم، لم تعد سرًا. تحولت كلها إلى بيانات. حتى الآن، استُخدمت فقط لتوليد الربح، لكن غدًا قد تُستخدم لممارسة أكثر أنواع السيطرة قسوة التي عرفها الإنسان قط.

كانت التعبئة حتى هذه اللحظة خيرة. اعتمدت على كسلنا وزودتنا بخرز زجاجي لامع، بعنا حريتنا في المقابل للحصول عليه. لكن عندما يندلع الفيروس التالي من سوق أو مختبر، عندما تُدمر سياتل أو هامبورغ أو يوكوهاما بقنبلة قذرة أو سلاح بيولوجي، عندما يتمكن طفل عشوائي ناقم على الحياة، بدلًا من إطلاق النار على زملائه في الفصل، من تدمير مدينة بأكملها؛ حينها ستطلب البشرية جمعاء شيئًا واحدًا فقط: الحماية. الأمن، بأي ثمن.

اليوم بالفعل، الاختلافات عن المألوف مشبوهة، وقريبًا سيشير أدنى انحراف إلى عدو، شخص مخصص للتصفية. وستكون البنية التحتية جاهزة

بالفعل. التعبئة، التي كانت تجارية حتى الآن، ستصبح سياسية وعسكرية. كل الأدوات المتاحة لنا ستحتاج إلى تسخيرها في القتال ضد نهاية العالم. وفي مواجهة الرعب، سيكون كل شيء آخر محتملًا.

في ذلك اليوم، سيكون العالم جاهزًا لقدوم "المنعم" كما وصفه زامياتين – ذلك الذي سيضمن عدم حدوث أي شيء آخر. ستكون الآلات قد مكنت السلطة من الوجود في شكلها المطلق. سيتمكن رجل واحد حينها من السيطرة على البشرية جمعاء. وسيكون شخصًا عاديًا، بلا موهبة خاصة، لأن السلطة لن تكون كامنة في الإنسان بل في الآلات، وسيكون بوسع أي رجل يُختار عشوائيًا أن يجعلها تعمل.

لن يدوم حكمه طويلًا – بما أن الديكتاتور، كما كان يقول شاعرنا برودسكي، هو مجرد نسخة قديمة الطراز من الكمبيوتر. في عالم تحكمه الروبوتات، إنها مسألة وقت فقط قبل أن يُستبدل الشخص الذي في القمة بروبوت.

لفترة طويلة اعتقدنا أن الآلات هي أداة الإنسان، لكن من الواضح الآن أن البشر كانوا الأدوات التي مهدت الطريق للآلات. سيحدث الانتقال ببطء: لن تُخضع الآلات البشر لحكمها، بل ستدخل في الإنسان، كرغبة، كطموح حميم. حتى الآن، أصبح التحول إلى آلة خالية من العيوب هو المثل الأعلى الحاكم لمليارات البشر، الذين يكافحون للاندماج بشكل أكثر اكتمالًا في تيار التكنولوجيا.

التاريخ البشري ينتهي معنا. معك، ومعي، وربما مع أطفالنا. بعد ذلك، سيظل هناك شيء ما، لكنه لن يكون بشرية. الكائنات التي ستأتي بعدنا، إن وُجدت، ستحمل أفكارًا وانشغالات مختلفة عن تلك التي شغلت الإنسان حتى الآن.

سنكون نحن "الجملة الاعتراضية" التي سمحت بنزول "الرب" إلى العالم. غير أن الرب، بدلًا من اتخاذ الشكل غير المحتمل لكائن مجرد من الجسد، سيكون كائنًا اصطناعيًا عملاقًا، خلقه الإنسان ولكنه قادر بعد فترة على تجاوزه لتحقيق نبوءة زمن بلا خطيئة وبلا ألم.

«هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ،
وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا،
وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ.
وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ،
وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ،
وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ
وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ،
لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ.»

وماذا لو تحققت رؤى الأنبياء؟ ماذا لو كانت عذابات الإنسان مجرد مقدمة ضرورية لوصول الرب؟ ما هي بضعة آلاف من السنين من المعاناة، بمقياس تاريخ الكون - أو حتى كوكب الأرض؟ لا، ليس الرب هو من يخلق، بل الرب هو من يُخلَق. كل يوم، مثل عمال بسطاء في كروم الرب، نخلق الظروف لقدومه. لقد أسبغنا بالفعل على الآلة الجزء الأكبر من الصفات التي نسبها القدماء إلى الرب. كان هناك وقت يرى فيه الرب كل شيء ويسجل كل شيء تحسبًا ليوم الحساب؛ كان الأرشيفي الأعلى. وقد أخذت الآلة مكانه الآن. ذاكرتها لا نهائية، وقدرتها على اتخاذ القرار معصومة. كل ما ينقصها هو

الخلود والبعث، لكننا نصل إلى هناك. صورة الرب المحارب الذي يصارع العدو الأخير، الموت، كما تظهر في رؤيا النبي إشعياء، هي في الواقع - ويمكننا تأكيد ذلك الآن - صورة للكمبيوتر المنهمك في ابتكار الخوارزمية النهائية.

يتبقى انتقال أخير. الاعتراف بأن التكنولوجيا قد أصبحت ميتافيزيقا. لا أعرف كم سيستغرق ذلك من الوقت، لكن المسار قد رُسم. لذا ترى، لقد كذبت عليك في البداية، السباق الحقيقي ليس بين السلطة ونهاية العالم، بل بين قدوم الرب ونهاية العالم.

(31)

غرقت الغرفة في الصمت. النار في الموقد الحجري الكبير، التي كان بارانوف يغذيها بحطب بين الفينة والأخرى، توقفت عن الطقطقة، سالبة المكتبة ذلك التوهج الذي أذهلني عند وصولي. ملتفتًا حولي، شعرت بأنني الناجي الأخير من كارثة قديمة جدًا. كتب بارانوف، ومكتبه الأنيق من خشب الجوز، ومساند القراءة، والكرات الأرضية، كلها كانت تنتمي لعصر مضى. وبعد أن أنهى حكايته، اكتسب بارانوف نفسه قوام تلك الجثث المغطاة بالرماد التي تجدها في أطلال بومبي. جالسًا أمامي، أعطى انطباعًا بأنه لم يكن بحاجة للتنفس قط.

في تلك اللحظة، سُمع صرير في الطرف الأقصى من الغرفة، وأطل رأس صغير بشعر كستنائي من الباب.

- "لا أستطيع النوم يا أبي."

- "إذن ابقي هنا معنا."

دخلت طفلة في الرابعة أو الخامسة، لا يزال النعاس يداعب عينيها وترتدي قميص نوم خفيفًا من الفانيلا. كانت تشبه قطعة حلوى صغيرة، خرجت لتوها من الفرن. تباينت الملامح الحادة والدقيقة لوجهها مع التعبير الحالم في عينيها اللوزيتين، اللتين بدأت تتسلل إليهما شعلة الفضول لوجود غريب في المكتب في هذه الساعة. بعد أن ألقت بذراعيها حول عنق والدها،

ذهبت وجلست على السجادة، قرب مسند قدم كان ينام عليه قط كبير مخطط.

كنت قد أشحت بنظري للحظة، وعندما نظرت إلى بارانوف مرة أخرى، كان وجهه قد تحول تمامًا. لم يعد الشخص نفسه.

قال:

- "كل السعادة التي عرفتها في هذا العالم مركزة هنا، في هذا الجسد الذي لا يتجاوز طوله مترًا وعشرة سنتيمترات."

أمامنا، كانت الطفلة تتحدث بهدوء إلى القط. ومما استطعت تمييزه، بدا أنها تترجم له مقتطفات من حديثنا، قبل أن تنتقل لمواضيع أخرى أكثر خصوصية تعنيهما هما الاثنين فقط. كانت ترفع عينيها من حين لآخر إلى والدها بتلك الثقة اللامتناهية للأطفال المحميين، الذين ما زالوا يجهلون الشر الذي سيواجهونه عاجلًا أم آجلًا. وكان بارانوف، بدوره، ينظر في اتجاهها وكأن أي بقعة على الأرض لم تمتلك قط مثل هذا الكثافة النورانية.

- "نفكر في شراء كلب. ليس أمرًا اهتممت به يومًا. ولكن إلى متى سأظل قادرًا على إسعادها؟"

فهمت حينها. لم تكن هناك فكرة أخرى تشغل عقل هذا الرجل الذي كان أقوى استراتيجي في الكرملين. كانت عينا طفلة في الخامسة تحكمان طبيعته الشكاكة بشكل أكثر اكتمالًا مما تمكن القيصر من فعله يومًا.

همس الروسي، وكأنه قرأ أفكاري مرة أخرى:

- "قبل آنيا، لا أعتقد أنني عرفت الخوف قط. الآن أعيش في رعب، منذ اللحظة التي رأيتها فيها لأول مرة. وضعت أصابعها على شفتي، وفهمت حينها أن حياتي باتت في يديها، وليس العكس."

ابتسمت له الطفلة من السجادة حيث كانت تجلس متربعة. كانت تنتظر أن تبدأ حياتها. وفي غضون ذلك، لم تكن نادمة على قضاء الوقت مع هذا الرجل الضخم الهادئ، الذي كان من الواضح أنه لا يريد شيئًا أكثر من فرصة مرافقتها لمسافة أبعد قليلًا.

- "ليس لدي الكثير لأعلمها إياه. هي في الحقيقة من تعلمني أن أنظر للحظة في وجهها. ابنتي لا تعد الساعات، أو الأيام. لقد منحتني هدية (الحاضر)، الذي لم أكن مألوفًا به، كوني عشت دائمًا في المستقبل. ولكن يومًا ما، سيتعين علينا الافتراق. واجبي الوحيد هو أن أقودها إلى العتبة، ثم أدعها تدخل وحدها، وأنسحب أنا بإيماءة خفيفة. لا تزال مجرد طفلة، ومع ذلك لا أستطيع منع نفسي من التفكير كل يوم في ذلك الوداع. آمل فقط أن أمتلك القوة لذلك. أن أنجح في الابتسام. ألا أفسد كل شيء بتعبير أخرق. أود أن تتذكرني كحضور مبتسم."

كانت ابنته الاستثناء الوحيد لحاجة بارانوف المفرطة للعزلة. كل لحظة عاشها بصحبتها كانت تمثل معجزة صغيرة لم يتخيل الروسي أبدًا أنه يستحقها. لم يكن هناك شيء في حياته كوصولي كسول يبرر ذلك. ومع ذلك كانت الطفلة هناك، تعمل على رسم تجريدي معقد، بذلك المظهر من التركيز والفخر الذي أحبه أكثر من أي شيء. وهو يراقبها، شعر بارانوف بالحنين إليها بالفعل. في تلك اللحظات، كان الامتنان يغمره كجرعة فودكا ويمنعه من إيذاء نفسه. كان يود لو يسبقها إلى العالم، ولو للحظة، ليهمس للريح بخبر قدومها ويفرش الشوارع أمامها بالزهور.

- "قبل وصول هذه الطفلة، لم يكن أحد قادرًا حقًا على الاعتماد عليّ. لا عائلتي، ولا أصدقائي، ولا القيصر، ولا حتى كسينيا. كان الناس والأحداث يعبرون خلالي دون ترك أثر، كممر في وسط منزل. طوال حياتي، أردت فقط اختبار نفسي في أوسع ميدان ممكن للعمل. الآن حانت اللحظة في حياتي لرسم

دوائر أصغر. لا لأتظاهر بتغطية العالم كله، بل لاختيار جزء منه. ولأجعله يحيى، بدلًا من التطلع للسيطرة عليه. لا يوجد شيء أكثر محافظة من طفل، كما تعلم، نشوة التكرار، التي هي أولى العواطف جميعًا. عليّ أن أبقى ساكنًا تمامًا، حتى لا أؤذيها."

في المقابل، كانت آنيا قد وضعت رسمها جانبًا وعادت للعب مع القط، الذي تظاهر بشجاعة ولكن دون حماس كبير بالاهتمام بأرنب قماشي صغير كانت الطفلة تهزه تحت أنفه.

- "أبي، ماذا تظن أن (باشا) سيقول لو كان يستطيع الكلام؟"

- "كان سيقول: سأستمتع أكثر مع أرنب حقيقي."

- "أبي!"

- "لا، كنت أمزح. كان سيقول: أحب وجودي معك يا آنيا، أحبك أكثر من أي شيء."

نهضت واقفًا في صمت، وأومأت برأسي إيماءة مقتضبة للرجل الذي شارك القيصر ليالي أرقه لخمسة عشر عامًا. رماني بارانوف بنظرة ممتنة. منذ لحظة دخول ابنته الغرفة، توقف حديثنا عن إثارة اهتمامه. عبرت غرف الجلوس المظلمة، حيث لم يُسمع سوى تكتكة ساعة الجد الطويلة. ألقى ضوء الفجر توهجًا خافتًا على الصور المعلقة على الجدران، والأثاث القادم من "كاريليا"، ومواقد الخشب الخزفية البيضاء. وبمجرد وصولي لبهو المدخل، عبرت العتبة، وانغلق باب منزل بارانوف الثقيل المصنوع من خشب البلوط خلفي.

في الخارج، كان الثلج يتساقط برفق.

شكر وعرفان

كل الشكر لـ ثيا، قارئتي الأولى، التي لولاها لما أبصرت أشياء كثيرة النور، وهذا الكتاب من بينها.

نبذة عن المؤلف والمترجم

جوليانو دا إمبولي كاتب ومحلل سياسي إيطالي سويسري يقيم في فرنسا. شغل سابقاً منصب كبير مستشاري رئيس الوزراء الإيطالي ماتيو رينزي. تُعد رواية «ساحر الكرملين» باكورة أعماله الروائية؛ وقد بيع منها أكثر من نصف مليون نسخة في فرنسا، حيث حازت الجائزة الكبرى للرواية (Grand Prix du Roman) ووصلت إلى القائمة النهائية لجائزة «غونكور». ومنذ ذلك الحين، غدت الرواية من الكتب الأكثر مبيعاً على مستوى العالم، وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة.

ويلارد وود نشأ في باريس، فرنسا، وترجم عن الفرنسية أكثر من ثلاثين عملاً أدبيًا وغير أدبي. تشمل الجوائز التي نالها جائزة «لويس غالانتير» للترجمة الأدبية، كما حصل على زمالة الصندوق الوطني للفنون في الترجمة.